

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة الإسراء

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوي

الأستاذ بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

(ربنا ثقيل منا ، إنك أنت السميع العليم)

(الجزء الخامس عشر)





المقدمة

نمد الله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وعلى آله
وأصحابه وأتباعه ، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا تفسير لسورة الإسراء ، أسأل الله - عز وجل - أن يجعله
مخالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ، إنه سميع مجيب .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

المدينة المنورة في ٥ / ١ / ١٤٠٤ هـ

الموافق ١٠ / ١٠ / ١٩٨٣ م

المؤلف

د . محمد السيد طنطاوى

تعريف بسورة الإسراء

١ - سورة الإسراء هي السورة السابعة عشرة في ترتيب المصحف ، فقد سبقتها سورة : الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ، والنساء ... الخ .

أما ترتيبها في النزول ، فقد ذكر السيوطي في الإتيان أنها السورة التاسعة والأربعون ، وأن نزولها كان بعد سورة القصص (١) .

٢ - وتسمى - أيضا - بسورة بني إسرائيل ، وبسورة « سبحان » . وعدد آياتها عند الجمهور إحدى عشرة آية ومائة ، وعند الكوفيين عشر آيات ومائة آية .

٣ - ومن الأحاديث التي وردت في فضلها ، ما رواه البخاري في صحيحه عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال في بني إسرائيل ، والكهف ومريم ؛ لمنهن من العتاق الأول ، وهن من تلاميذ (٢) .

والعتاق : جمع عتيق وهو القديم ، وكذلك التالد بمعنى القديم . ومراده - رضي الله عنه - أن هذه السور من أول ما حفظه من القرآن .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا حماد بن زيد ، عن مروان أبي لبابة ، قال : سمعت عائشة - رضي الله عنها - تقول : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصوم حتى تقول : ما يريد أن يفطر ، ويفطر حتى تقول : ما يريد أن يصوم . وكان يقرأ كل ليلة : « بني إسرائيل ، وذا الزمر » (٣) .

٤ - ومن وجوه مناسبة هذه السورة لما قبلها ، ما ذكره أبو حيان بقوله : « ومناسبة هذه لما قبلها ، أنه - تعالى - لما أمره - في آخر النحل - بالصبر ،

(١) الإتيان في علوم القرآن للسيوطي ج ١ ص ٢٧ طبعة المشهد الحسيني .

(٢ ، ٣) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣ - طبعة مكتبة الشعب .

ونها عن الحزن عليهم ، وعن أن يضيق صدره من مكرهم ، وكان من مكرهم نسبته إلى الكذب والسحر والشعر ، وغير ذلك مما رموه به ، أعقب - تعالى - ذلك بذكر شرفه ، وفضله ، واحتفائه به ، وعلو منزلته عنده ، (١) .

هـ - وسورة الإسراء من السور المكية ، ومن المفسرين الذين صرحوا بذلك دون أن يذكروا خلافا في كونها مكية . الزمخشري ، وابن كثير ، والبيضاوي ، وأبو حيان ...

وقال الألوسي : وكونها كذلك بتهامها قول الجمهور ، وقال صاحب الفيضان : بإجماع .

وقيل . هي مكية لإلا آيتين : « ولئن كانوا ليفتنونك » ... « ولئن كادوا يستفزونك » ...

وقيل إلا أربعا ، هاتان الآيتان ، وقوله - تعالى - « وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس » ...

وقوله - سبحانه - : « وقل رب أدخلني مدخل صدق » ... (٢) .
والذي تطمئن إليه النفس أن سورة الإسراء بتهامها مكية - كما قال جمهور المفسرين - لأن الروايات التي ذكرت في كون بعض آياتها مدنية ، لا تنهض دليلا على ذلك لضعفها ...

والذي يغلب على الظن أن نزول هذه السورة الكريمة : أو نزول معظمها ، كان في أعقاب حادث الإسراء والمهاجر .

وذلك لأن السورة تحدثت عن هذا الحادث ، كما تحدثت عن شخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - حديثا مستفيضا ، وحكت إيذاء المشركين له ، وتطاوهم عليه ، وتعنتهم معه ، كما لبثهم إياه بأن يفجر لهم من الأرض يقبوعا ...

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ج ٦ ص ٣ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١٥ ص ٢ .

وقد ردت السورة الكريمة على كل ذلك ، بما يسلي الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويثبت به ، ويرفع منزلته ، ويعلى قدره ... في تلك الفترة الحرجة من حياته - صلى الله عليه وسلم - وهي الفترة التي أعقبت موت زوجته السيدة خديجة - رضى الله عنها - وموت عمه أبي طالب ...

٦ - (١) وعندما نقرأ سورة الإسراء ، نراها في مطلعها تحدثنا عن إسماء الله - تعالى - بنبيه - صلى الله عليه وسلم - من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وعن الكتاب الذي آتاه الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - ليكون هداية لقومه ، وعن قضاء الله في بني إسرائيل ...

قال - تعالى : « سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام ، إلى المسجد الأقصى ، الذي باركنا حوله ، لنزيه من آياتنا إنه هو السميع البصير . وآتيناه موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ، ألا تتخذوا من دوني وكيلاً . ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً . وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلمن علواً كبيراً ... »

(ب) ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن هذا القرآن قد أنزل - سبحانه - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - ليهدي الناس إلى الطريق الأقوم ، وليبشر المؤمنين بالأجر الكبير ، وأن كل إنسان مسئول عن عمله ، وسيحاسب عليه يوم القيامة ، دون أن تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى ...

قال - تعالى - : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، أن لهم أجراً كبيراً ... »

إلى أن يقول - سبحانه - : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك كنى بنفسك اليوم عليك حسيباً . من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنا مضل عليه ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، ... »

(ج) ثم تسوق السورة الكريمة سنة من سنن الله في خلقه ، وهي أن عاقبة العرف والفسق ، الدمار والهلاك ، وأن من يريد العاجلة كانت نهايته إلى جهنم ، ومن يريد الآخرة ويقدم لها العمل الصالح كانت نهايته إلى الجنة .
استمع إلى القرآن الكريم وهو يصور هذه المعاني بأسلوبه البليغ فيقول :
وإذا أردنا أن نملك قرية أمرنا متر فيها ففسقوا فيها . فحق عليها القول فدمرناها تدميرا .
وكم أهلكتنا من القرون من بعد نوح ، وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا .
من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا .
ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا . .

(د) وبعد أن بين - سبحانه - أن سعادة الآخرة منوطة بإرادتها ، وبأن يسمى الإنسان لها وهو مؤمن ، عقب ذلك بذكر بضع وعشرين نوعا من أنواع التكاليف ، التي متى نفذها المسلم ظفر برضى الله - تعالى - ومشوبته ، ومن تلك التكاليف قوله - تعالى - . . . لا تجعل مع الله إلها آخر . .
وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، ...
وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ..
ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ...
ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا .
ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ..
ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ..
وأوفوا السكيل إذا كنتم وزنوا بالفسطاس المستقيم ..
ولا تقف ما ليس لك به علم ..
ولا تمش في الأرض مرحا ...

(هـ) وبعد أن سافت السورة الكريمة تلك التكاليف المحركة التي لا يتطرق

لإلها الفسخ أو النقص ، في ثمانى عشرة آية ، أتبع ذلك بالشاء على القرآن الكريم ، وبتنزيه الله - تعالى - عن الشريك ، وبيان أن كل شيء يسبح بحمده - عز وجل - .

قال - تعالى - : « ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليعذركم وما يزيدكم إلا تقورا . قل لو كان معه آلهة كما يقولون ، إذا لا يفتروا إلى ذى العرش سبيلا . سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا . تسبح له السموات السبع والأرض ومن فىهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفورا . »

(و) ثم تحكى السورة الكريمة جانبها من أقوال المشركين ، وترد عليها بما يدحضها ، وتأمّر المؤمنين بأن يقولوا الكلمة التى هى أحسن ... فتقول : وقالوا أنذا كنا عظاما مورفانا أنما لمبعوثون خافا جديدا . قل كفوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعبدنا قل الذى أنفطرتم أول مرة ، فسينفضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو ، قل عسى أن يكون قريبا . يوم يدعوكم فتستجيبيون بحمده ، وتظنون إن لبئثم إلا قليلا . وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ، إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا . »

وبعد أن تقرر السورة الكريمة شمول علم الله - تعالى - لكل شيء ، وقدرته على كل شيء ، بعد أن تقرر ذلك ، تحكى لنا جانبها من قصة آدم وإبليس فتقول :

وإذ قلنا لللائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا . قال أأرى أنك هذا الذى كرمت على ، لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا . قال اذهب فن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا .. (ح) ثم تسوق السورة بعد ذلك ألوانا من نعم الله على عباده فى البر والبحر ،

وأنا من تكريمه لبني آدم ، كما تصور أحوال الناس يوم القيامة ، وعدالة الله - تعالى - في حكمه عليهم فتقول :

وإذا مسك الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا . أفأنتم أن يخسف بكم جانب البر ، أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا

ثم يقول - سبحانه - : ولقد كرّمنا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا . يوم ندعو كل أناس بإمامهم ، فمن أوتى كتابه بيّينه فأولئك هم مفلحون ولا يظلمون شيئا

(ط) ثم تحكى السورة جانباً من نعم الله - تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - حيث ثبتته - سبحانه - أمام مكر أعدائه ، وأمره بالمداومة على الصلاة وعلى قراءة القرآن ، لأن ذلك يزيد ثباتنا على ثباته ، وتكريما على تكريمه - .

قال - تعالى - : وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره ، وإذا لاتخذوك خليلا . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا ...

ثم يقول - سبحانه - : أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا . ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محمودا . وقل رب أدخاني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق ، واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا

(ك) وبعد أن تقرر السورة الكريمة طبيعة الإنسان ، وتقرر أن الروح من أمر الله - تعالى - ، تتبع ذلك بالثناء على القرآن الكريم ، وبيان أنه المعجزة الخالدة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وبايراد المطالب المتعنت التي طالب المشركون بها النبي - صلى الله عليه وسلم - ...

استمع إلى القرآن الكريم وهو يقرر كل ذلك بأسلوبه البليغ فيقول :
 قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله
 ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل
 فأبى أكثر الناس إلا كفورا .

وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك
 جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها فتفجيرا . أو تسقط السماء كزأمت
 علينا كسفا ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف
 أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه . قل سبحان
 ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ..

(ل) ثم تسوق السورة الكريمة في أواخرها الدلائل الدالة على وحدانية
 الله - تعالى - وقدرته، وتحتججنا من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون
 وتؤكد أن هذا القرآن أنزله الله - تعالى - بالحق، وبالحق نزل ، وأنه نزل
 مفردا ليقراء الناس على تودة وتدبر ...

وكما افتتحت السورة الكريمة بالثناء على الله - تعالى - ، فقد اختتمت
 بحمد الله - تعالى - وتكبيره . قال - تعالى - :

وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي
 من الذل وكبره تكبرا .

(م) وبعد فمنا عرض إجمالي لأهم الموضوعات والمقاصد التي اشتملت
 عليها سورة الإسراء . ومن هذا العرض يتبين لنا ما يلي :

أن سورة الإسراء - كغيرها من السور المسكية - قد اهتمت
 اهتماما بارزا بتقوية العقيدة من كل ما يشوبها من شرك أو انحراف عن الطريق
 المستقيم ..

وقد ساقَت السورة في هذا المجال أنواعا متعددة من البراهين على وحدانية

الله - تعالى - وعلمه وقدرته ، ووجوب إخلاص العبادة له ، وعلى تنزيهه - سبحانه - عن الشريك ، ومن ذلك قوله - تعالى - .

« أفاضلناكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما . »

واقصد صرفنا في هذا القرآن ايذكروا ومايزيدهم إلا نفورا . قل لو كان معه آلهة كما يقولون ، إذا لا يتغورا إلى ذى العرش سيلا . سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ...

٢ - كذلك على رأس الموضوعات التى فصلت السورة الحديث عنها ، شخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، فقد ابتدأت بإسراء الله - تعالى - به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، حيث أراه - سبحانه - من آياته ما أراه ، ثم تحدثت عن طبيعة رسالته ، وعن مزاياها ، وعن موقف المشركين منه ، وعن المطالب المتعنتة التى طلبوها منه ، وعن تثبيت الله - تعالى - له ، وعن تبشيريه بحسن العاقبة ...

قال - تعالى - : « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا . »

٣ - من الواضح - أيضا - أن سورة الإسراء ، اعتنت بالحديث عن القرآن الكريم ، من حيث هدايته ، وإعجازه ، ومنع الذين لا يؤمنون به عن فهمه ، واشتغاله على ما يشفى الصدور ، وتكراره للبينات والبرهان بأساليب مختلفة ، ونزوله مفرقا ليقرأه الناس على مكث ...

ومن الآيات التى وردت فى ذلك قوله - تعالى - .

إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ...

وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ...

وقزل من القرآن ماهو شفء ورحمة للمؤمنين ...

وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا . وقرأنا
فرقاء لتقرأه على الناس على مكث ، ونزلناه تنزيلا . .

٤ - اهتمت السورة الكريمة اهتماما يدينا ، بالحديث عن التكاليف الشرعية ،
المتضمنة لقواعد السلوك الفردي والجماعي ...

وقد ذكرت السورة أكثر من عشرين تكليفا ، في آيات متتالية . بدأت
بقوله - تعالى - : لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا ، الآية ٢٢
واقتهت بقوله - تعالى - : كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ، الآية ٣٨
وبجانب حديثها المستفيض عن التكاليف الشرعية ، تحدثت - أيضا - عن طبيعة
الإنسان في حالتي العسر واليسر ، وعن بخله الشديد بما يملكه ...

قال - تعالى - : وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه
الشركان يشوسا . .

وقال - سبحانه - : قل لو أقمتملكون خزائن رحمة ربي ، إذا لامسكم
خشية الاتفاق وكان الإنسان قتورا . .

ه - ومن الجوانب التي حرصت السورة الكريمة على تجليتها والكشف
عنها : بيان سنن الله التي لا تتخلف في الهداية والإضلال ، وفي الثواب والعقاب ،
وفي النصر والخذلان ، وفي الرحمة والإهلاك ، ومن ذلك قوله - تعالى - :

من امتدى فإنما يمتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة
وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا .

وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا متر فيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول
فدمرناها تدميرا .

يوم ندعو كل أناس بإمامهم فنن أوتى كتابه يمينه فأولئك بقرءون

كتبهم ولا يظلمون فتيلا . ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى
وأضل سبيلا .

إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها ...

هذه بعض المقاصد الإجمالية التي اشتملت عليها سورة الإمراء ، وهناك
مقاصد أخرى يراها المتأمل فيها ، والمتدبر لآياتها ، وحسبك من القلادة
ما أحاط بالعنق .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

التفسير

قال الله تعالى : «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ» ، لِتُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) .

افتتحت سورة الإسراء بتنزيه الله - تعالى - عن كل مالا يليق بجلاله ، كما يدل على ذلك لفظ «سبحان» ، الذي من أحسن وجوه إعرابه ، أنه اسم مصدر منصوب - على أنه معقول مطلق - بفعل محذوف ، والتقدير : سبحت الله - تعالى - سبحانا أى تسيحنا ، بمعنى نزّهته تنزيها عن كل سوء .

قال القرطبي : وقد روى طلحة بن عبيد الله القياض أحد العشرة - أى المبشرين بالجنة - أنه قال للنبي - صلى الله عليه وسلم - : ما معنى سبحان الله ؟ فقال : تنزيه الله من كل سوء (١) .

وقوله «أسرى» ، من الإسرائ ، وهو السير بالليل خاصة .

قال الجمل : يقال أسرى وسرى ، بمعنى سار في الليل ، وهما لازمان ، لكن مصدر الأول الإسرائ . ومصدر الثاني السرى - بضم السين كالحمدى - فالهمزة ليست للتعدي إلى المفعول ، وإنما جاءت التعدي هنا من الباء . ومعنى أسرى به ، صيره ساريا في الليل ، (٢) .

والمراد بعبده ، خاتم أنبيائه محمد - صلى الله عليه وسلم - ، والإضافة للتشريف والتكريم . . .

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٠٤ .

(٢) حاشية الجمل ج ٢ ص ٦٠٨ .

وأثر التعبير بلفظ العبد ، للدلالة على أن مقام العبودية لله - تعالى - هو أشرف صفات المخلوقين وأعظمها وأجلها ، إذ لو كان هناك وصف أعظم منه في هذا المقام لعبر به ، والإشارة - أيضا - إلى تقرير هذه العبودية لله - تعالى - وتأكيدها ، حتى لا يلتبس مقام العبودية بمقام الألوهية ، كما التبس في العقائد المسيحية ، حيث أطوا عيسى - عليه السلام - ، وأطوا أمر مريم ، مع أنهما بريئان من ذلك . . .

قال الشيخ القاسمي نقلا عن الإمام ابن القيم في كتاب «طريق الهجرتين»
أكل الخلق أكلهم عبودية لله - تعالى - . . .

ولهذا كان النبي - صلى الله عليه وسلم - أقرب الخلق إلى الله - تعالى - وأعظمهم عنده جاها ، وأرفعهم عنده منزلة ، لـكـالـه في مقام العبودية . وكان - صلى الله عليه وسلم - يقول : أيها الناس ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي . إنما أنا عبد . وكان يقول : لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله .

وذكره - سبحانه - بسمة العبودية في أشرف مقاماته : في «قام الإسراء» حيث قال : سبحان الذي أسرى بعبده . . .

وفي مقام الدعوة حيث قال : «وأنه لما قام عبد الله يدعوه» . . .
وفي مقام التحدي حيث قال : «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا» (١) .
وقوله : «ليلة ، ظرف زمان لأسرى» .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : الإسراء لا يكون إلا بالليل فما معنى ذكر الليل ؟

قلت : أراد بقوله ليلا بلفظ التنكير ، تقليل مدة الإسراء ، وأنه أسرى به بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة ، وذلك أن التنكير فيه

قد دل على معنى البعضية ... ، (١) .

وقوله : من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، بيان لا ابتداء الإسراء وانتهائه .

أى : جل شان الله - عز وجل - وتنزه عن كل نقص ، حيث أسرى بهبه محمد - صلى الله عليه وسلم - فى جزء من الليل ، من المسجد الحرام الذى بمكة إلى المسجد الأقصى الذى بفلسطين . ووصف مسجد مكة بالحرام ، لأنه لا يحل أنفا كه بقتال فيه ، ولا بصيد صيده . ولا بقطع شجره .

ووصف مسجد فلسطين بالأقصى ، لبعده عن المسجد الحرام ، إذ المسافة بينهما كان يقطعها الركاب للابل فى مدة شهر أو أكثر .

قال الآلوسى : ووصفه بالأقصى - أى الأبعد - بالنسبة إلى من بالحجاز . وقال غير واحد : لأنه سمي به لأنه أبعد المساجد التى تزار من المسجد الحرام وبينهما زهاء أربعين ليلة . وقيل - وصف بذلك - : لأنه ليس وراءه موضع عبادة فهو أبعد مواضعها ... ، (٢)

وظاهر الآية يفيد أن الإسراء كان من المسجد الحرام ، فقد أخرج الشيخان والترمذى والنسائى عن حديث أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : بينا أنا فى الحجر - وفى رواية - فى الخطيم ، بين الغائم واليقظان ، إذ أتانى آت فشوق ما بين هذه إلى هذه ، فاستخرج قلبى فغسله ثم أعيد ، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض يقال له البراق فحملت عليه

وقيل : أسرى به من بيت أم هانئ بنت أبى طالب . فيكون المراد بالمسجد

(١) تفسير الكشاف - ٢ ص ٤٦٦ .

(٢) تفسير الآلوسى - ١٥ ص ٩ .

الحرام : الحرم لإحاطته بالمسجد والتباسه به . فعن ابن عباس - رضى الله عنهما الحرم كله مسجد .

ويمكن الجمع بين هذه الروايات ، بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقى في بيت أم هانئ لفتره من الليل ، ثم ترك فراشه عندها وذهب إلى المسجد ، فلما كان في الحجر أو في الحطيم بين النائم واليقظان ، أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عرج به إلى السموات العلاء . ثم عاد إلى فراشه قبل أن يبرد - كما جاء في بعض الروايات .

وبذلك يترجح لدينا أن وجود الرسول - صلى الله عليه وسلم - في تلك الليلة في بيت أم هانئ ، لا يثنى أن الإصرار بدأ من المسجد الحرام ، كما تقور الآية السكينة .

وقوله ، الذى باركنا حوله ، صفة مدح للمسجد الأقصى
أى : جل شأن الله الذى أسرى بعبد له ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، الذى أحطنا جوانبه بالبركات الدينية والدنيوية
أما البركات الدينية فنز مظاهرها : أن هذه الأرض التى حوله ، جعلها الله - تعالى - مقرا للكثير من الأنبياء ، كإبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وداود وسليمان ، وزكريا ويحيى وعيسى
قال - تعالى - : وسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها ... (١)

وقال - سبحانه - في شأن إبراهيم : ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ، (٢)

والله صود بهذه الأرض أرض الشام ، التى منها فلسطين

(١) سورة الأنبياء الآية ٨١

(٢) ٧١ د د د د

وأما البركات الدنيوية فمن مظاهرها : كثرة الأنهار والأشجار والثمار والزروع في تلك الأماكن

قال بعض العلماء : وقد قيل في خصائص المسجد الأقصى أنه متمم بد الأقيام السابقين ، ومسرى خاتم النبيين ، ومعراجهم إلى السموات العلاء . وأولى القبلتين وثاني المسجدين ، وثالث الحرمين ، لا تشد الرحال بعد المسجد إلا إليه ، (١)

وقوله - سبحانه - ولنريه من آياتنا إشارة إلى الحكمة التي من أجلها أمرى الله - تعالى - بنبيه - صلى الله عليه وسلم - فقوله ولنريه ، متعلق بأمرى الله - تعالى - بنبيه لأن ما رآه النبي - صلى الله عليه وسلم - وإن كان عظيماً إلا أنه مع عظمه بعض آيات الله بالنسبة لما اشتمل عليه هذا الكون من عجائب أي : أمرينا بعددنا محمد ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ، ثم عرجنا به إلى السموات العلاء ، لنطلعه على آياتنا ، وعلى عجائب قدرتنا ، والتي من بينها : مشاهدته لأنبيائها الكرام ، وزوابعه لما نريده أن يراه من عجائب وغرائب هذا السكون .

واقعد وردت أحاديث متعددة في بيان ما أراه الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - في تلك الليلة المباركة ، ومن ذلك ما رواه البخاري عن أنس بن مالك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : ... ووجدت في السماء الدنيا آدم فقال لي جبريل : هذا أبوك آدم فسلم عليه ورد علي آدم السلام فقال : مرحبا وأهلاً بابني ، فسلم الابن أنت ...

وفي رواية للإمام أحمد عن أنس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما عرج بي ربي - عز وجل - مررت بقوم لهم أظفار من نحاس ، يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون في أعراضهم ... (٢)

(١) تفسير القاسمي ج ١ ص ٣٨٨٥ .

(٢) تفسير ابن كثير المجلد الخامس ص ٨ طبعة دار الشعب .

ثم ختم - سبحانه - الآية التكريمه بما يدل على سعة عليه ، ومزيد فضله فقال - تعالى - « لأنه هو السميع البصير » .

أى : لأنه - سبحانه - هو السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم ، مصدقهم ومكذبهم . بصير بما يسرونه ويعلنونه ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب ، بدون ظلم أو محاباة .

هذا وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآية جملة من المسائل منها :

١ - أن هذه الآية دلت على أن ثبوت الإسراء للنبي - صلى الله عليه وسلم - من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وأما الخروج به - صلى الله عليه وسلم - إلى السموات لأملا فقد استدل عليه بعضهم بآيات سورة النجم ، وهى قوله - تعالى - : والنجم إذا هوى . ما ضل صابحكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى . عليه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفنارونه عنى ما يرى .

وقد ساق الإمام ابن كثير تفسيره لهذه الآية أحاديث كثيرة بأسانيدها ومتونها ، وقال فى أعقاب ذكر بعضها .

قال البيهقي : وفى هذا السياق دليل على أن المعراج كان ليلة أسرى به - عليه الصلاة والسلام - من مكة إلى بيت المقدس ، وهذا الذى قاله هو الحق الذى لا شك فيه ولا مرية ^(١)

وقال القرطبي : ثبت الإسراء فى جميع مصنفات الحديث ، وروى عن الصحابة فى كل أقطار الإسلام ، فهو من المتواتر بهذا الوجه ، وذكر النقاش ممن رواه عشر من صحابيا . ، ^(٢)

(١) تفسير ابن كثير المجلد الخامس ج ٧ طبعة دار الشعب .

(٢) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٠٥

٢ - قال بعض العلماء ما ملخصه : ذهب الأكثرون إلى أن الإسراء كان بعد المبعث ، وأنه قبل الهجرة بسنة . قال الزهري وابن سعد وغيرهما . وبه جزم النووي ، وبالحق ابن حزم فتقل الإجماع فيه . وقال : كان في رجب سنة لئنتى عشرة من النبوة .

ولاختار الحافظ المقدسى أنه كان في ليلة السابيع والعشرين من شهر رجب . . . (١) .

والذى تطعن اليه النفس أن حادث الإسراء والمعراج ، كان بعد وفاة أبى طالب والسيدة خديجة - رضى الله عنهم -

ووفاتهما كانت قبل الهجرة بسنتين أو ثلاث . . وفى هذه الفترة التى أعقبت وفاتهما أشد أذى المشركين بالنبي - صلى الله عليه وسلم - . فكان هذا الحادث لتسليته - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم ، ولتقريبه وتكريمه . . .

٣ - من المسائل التى ثار الجدل حولها ، مسألة أكان الإسراء والمعراج فى اليقظة أم فى المنام ؟ وبالروح والجسد أم بالروح فقط ؟

وقد لخص بعض المفسرين أقوال العلماء فى هذه المسألة فقال : أعلم أن هذا الإسراء به - صلى الله عليه وسلم - المذكور فى هذه الآية الكريمة زعم بعض أهل العلم أنه بروحه دون جسده ، زاعما أنه فى المنام لا فى اليقظة ، لأن رؤيا الأنبياء وحى .

وزعم بعضهم أن الإسراء بالجسد ، والمعراج بالروح دون الجسد .

ولكن ظاهر القرآن يدل على أنه بروحه وجسده - صلى الله عليه وسلم - يقظة لا مناما ، لأنه قال : « بعبدى ، والعبد بمجموع الروح والجسد .

ولأنه قال : « سبحان » والتصحيح إنما يكون عند الأداء والعظام ، فلو كان مناما لم يكن له كبير شأن حتى يتعجب منه .

ولأنه لو كان رؤيا منام لما كان فتنة ، ولا سببا للتكذيب قرئش له .
- صلى الله عليه وسلم - لأن رؤيا المنام ليست محل لفكار ، إذ المنام قد يرى فيه
مالا يصح :

ولأنه - سبحانه - قال : لن يبه من آياتنا ، والظاهر أن ما أراه
الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - إنما كان رؤية عن طريق العين
ويؤيده قوله - تعالى - : ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه
الكبرى ، ولأنه ثبت في الأحاديث الصحيحة أن الرسول - صلى الله عليه وسلم -
قد استعمل في روحانيته البراق ، واستعمله البراق يدل على أن هذا الحادث كان
بالروح والجسد وفي اليقظة لا في المنام .

وما ثبت في الصحيحين من طريق شريك عن أنس - رضى الله عنه - أن
الاسراء المذكور وقع مناما ، لا ينافي ما ذكرنا مما عليه أهل السنة والجماعة ،
ودلت دليبه وهو صريح الكتاب والسنة من أنه كان يقظة وبالروح والجسد ،
لإمكان أنه - صلى الله عليه وسلم - رأى الاسراء المذكور مناما ، ثم جاءت
تلك الرؤيا كفراق الصبح ، فأمرى به يقظة تصديقا لتلك الرؤيا المنامية . (١)
هذا ، ومن العلماء الذين فصلوا القول في تلك المسألة تفصيلا محققا ،
القاضي عياض في كتابه الشفا ، فقد قال - رحمه الله - بعد أن ساق الآراء
في ذلك :

والحق في هذا الصحيح - إن شاء الله - أنه إسراء بالروح والجسد
في القصة كلها ، وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار والاعتبار . ولا يعدل عن
الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة ، وليس في الاسراء بجسده
وروحه حال يقظته استحالة . . . (٢)

(١) تفسير أضواء البيان : ص ٤٨ ، لفضيلة المرحوم الشيخ محمد الأمين
الشنقيطي .

(٢) راجع الشفا للقاضي عياض : ص ١٥٤ وما بعدها .

وما قاله القاضي عياض - رحمه الله في هذه المسألة هو الذي نعتقد، ونلقى
الله - تعالى - عليه

وبعد أن بين الله - سبحانه - جانباً من مظاهر تكريمه وتشريفه لنبيه
محمد - صلى الله عليه وسلم - عن طريق إسرائه به ، أتبع ذلك بالحديث عما
أكرم به نبيه موسى - عليه السلام - فقال :

« وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ ، أَلَّا
تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا (٢) ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ، إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا
شَكُورًا (٣) » .

والواو في قوله - تعالى - : « وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ، إلهامية ، أو عاقله
على قوله - : سبحان الذي أمرى ... ،

والمراد بالكتاب : التوراة التي أنزلها الله تعالى - على نبيه موسى - عليه
السلام - والضمير المنصوب في قوله : « وجعلناه » ، يعود إلى الكتاب .

وقوله « ابني إسرائيل ، متعلق بهدي .

وشبيه هذه الآية قوله - تعالى - : « ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن
في مربة من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل ،

و « إن ، في قوله أن لاتتخذوا من دوني وكيلا ، يصح أن تكون زائدة
وتكبر الجملة مقولة لقول محذوف ، والمعنى :

« وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونَ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ إِلَى
الْأَصْرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ .

وقلنا لهم : لاتتخذوا غير الله - تعالى - وكيلا ، أي : معبودا ، تفوضون
إليه أموركم ، وتكلون إليه شئونكم ، فهو - سبحانه - : « رب المشرق والمغرب
لا إله إلا هو فاتخذوه وكيلا ،

قال الإمام الرازي ما ملخصه : قرأ أبو عمرو ، أيا يتخذوا ، بالياء خبرا عن بني إسرائيل : وقرأ الباقون بالياء على الخطاب ، أي : قلنا لهم لا تتخذوا . ويصح أن يكون ، أن ، فاصبة للفعل فيكون المعنى : وجعلناه هدى لئلا تتخذوا ... وأن تكون ، أن ، بمعنى أي التي للتفسير - أي هي مفسرة لما تضمنته الكتاب من النهي عن اتخاذ وكيل سوى الله - تعالى - (١)

وقوله : ذرية من حملنا مع نوح ... ، منصوب على الاختصاص ، أو على النداء والمقصود بهذه الجملة الكريمة إثارة عزائمهم نحو الإيمان والعمل الصالح ، وتنبههم إلى نعمه - سبحانه - عليهم ، حيث جعلهم من ذرية أولئك الصالحين الذين آمنوا بنوح - عليه السلام - وحضهم على السير على منهاجهم في الإيمان وعمل الصالح ، فإن شأن الأبناء أن يقتدوا بالآباء في التقوى والصلاح .

والمعنى : لا تتخذوا يا بني إسرائيل معبودا غير الله - تعالى - ، فأتم أبناء أولئك القوم الصالحين ، الذين آمنوا بنوح - عليه السلام - فأجأهم الله - تعالى - مع نبيهم من الغرق .

فالآلوسي : وفي التعبير بما ذكر لإيماء إلى علة النهي من أوجه : أحدهما تذكيرهم بالنعمة في إنجاء آبائهم . والثاني : تذكيرهم بضعفهم وحالهم الخوج إلى الحل والثالث : أنهم أضعف منهم - أي من آبائهم - لأنهم متولدون عنهم وفي إثبات لفظ الذرية الواقعة على الأصفال والنساء في العرف الغالب مناسبة تامة لما ذكر ، (٢) .

(١) تفسير الفخر الرازي - ٢٠ ص ١٥٣ طبعة دار الكتاب العالمية . طهران :

(٢) تفسير الآلوسي - ١٥ - ١٥

وقوله : « إنه كان عبداً شكوراً ، تذييل قصد به الثناء على نوح - عليه السلام - أى : لمن نوحا - عليه السلام - كان من عبادنا الشاكرين لنعمتنا ، المستعملين لها فيما خلقت له ، المترجمين إلينا بالتضرع والدعاء فى السراء والضراء .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : قوله : إنه كان عبداً شكوراً ، رآه ملامته لما قبله ؟

قلت : كأنه قيل : لا تجذوا من دوني وكيلاً ، ولا تشر كوابي ، لأن نوحاً كان عبداً شكوراً ، وأنتم ذرية محمد آمن به وحمل معه ، فاجعلوه أسوتكم كما جعله آباؤكم أسوتهم ، ويجوز أن يكون تعليلاً لاختصاصهم ، والثناء عليهم بأنهم أولاد المحمولين مع نوح - عليه السلام - فهم متصلون به ، فاستأهلوا لذلك الاختصاص . (١)

وبذلك نرى الآيتين العكريمتين : « دعنا إلى إخلاص العباد لله - تعالى - بأسلوب يرضى العقول السليمة ، والعواطف الشريفة .

ثم بين - سبحانه - بعد ذاك قضاءه العادل فى بنى إسرائيل وساق منه من سننه التى لا تتخلف فى خلقه فقال - تعالى - :

« وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ فِي الْكِتَابِ ، لَتَفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ، وَلَتَمْلِكُنَّ عُلوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَخَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدُ مَفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَاهُمْ أَلْفًا كَثْرًا كَثِيرًا (٦) إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنَكُمْ لَأَنفُسِكُمْ ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ،

فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ، وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا
دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَلِيُتَبَرَّأَ مَا عَمَلُوا تَتَّبِعُوا (٧) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ
وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ، وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨) .

وقوله - سبحانه - : « وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسيدين في
الأرض مرتين » إخبار من الله .. تعالى - لهم ، بما سيكون منهم ، حسب
ما وقع في علمه المحيط بكل شيء ، والذي ليس فيه إيجاب أو قسر ، وإنما هو
صفة إنكشافية ، تنبئ عن ما لهم وأحوالهم .

قال أبو حيان : والفعل « قضى » ، يتعدى بنفسه إلى معمول ، كقوله
- تعالى - فلما قضى موسى الأجل ... ، ولما ضمن هنا معنى الإيحاء أو الانفاذ
تعدى إلى أى : وأوحينا أو أنفذنا إلى بني إسرائيل في القضاء - المحترم المبتوت
وعن ابن عباس : وأعلمناهم ... : (١) .

والمراد بالكتاب : التوراة ، وقيل : اللوح المحفوظ .

واللام في قوله « لتفسدن » ... ، جواب قسم محذوف تقديره : «
والله لتفسدن » .

ويجوز أن تكون جواباً لقوله - تعالى - « وقضينا ... » ، لأنه مضمن
معنى القسم ، كما يقول القائل : قضى الله لأفعان كذا ، فيجري القضاء والقدر
مجرى القسم ...

والمقصود بالأرض : عمومها ، أو أرض الشام

و « مرتين » منصوب على أنه مفعول مطلق لقوله : « لتفسدن » ، من غير

(١) تفسير البحر المحيط ، لأبي حيوان ج ٩ ص ٨ - طبعة دار الفكر - بيروت .

لفظه والمراد : إفساد دين وقوله - عز وجل - « ولتعلمن ... » من « لمو وهو ضد السفلى ، والمراد به هنا : التكبير والتعظيم والبغى والعدوان .

والمعنى : وأخبرنا بني إسرائيل في كتابهم التوراة خبراً مؤكداً : وأوحينا إليهم بواسطه رسلنا ، بأن قلنا لهم : لتفسدن في الأرض مرتين ، ولتستكبرن على الناس بغير حق ، لاستكبارا كبيرا ، يؤدي بكم إلى الخسران والدمار .

والتعصير عما يكون منهم من إفساد بالقضاء وأنه في الكتاب ، يدل على ثبوته ، إذ أصل القضاء - كما يقول القرطبي - الإحكام للشيء والفراغ منه .

وأكد إفسادهم واستعلاهم بلام القسم ، للإشعار بأنه مع ثبوته ووجوده فهو مصحوب بالتعظيم والتكبير والبغى والعدوان .

وكان من مظاهر إفسادهم في الأرض : تحريفهم للتوراة ، وتركهم العمل بما فيها من أحكام ، وقتلهم الأنبياء والمصالحين ..

ثم بين - سبحانه - أنه يسلط عليهم بعد إفسادهم الأول في الأرض ، من يقهرهم وتستبيح حرماهم ، ويدمرهم تدميرا . فقال - تعالى - : « فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد ، فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ،

والمراد بالوعد : الموعد المحدد لعقابهم بسبب إفسادهم في الأرض . فالإكلام على حذف مضاف ، والضمير في « أولاهما » يعود على المرتين المعبر عنهما بقوله : « لتفسدن في الأرض مرتين » .

وقوله « فجاسوا » معطوف على « بعثنا » وأصل الجوس : حلب الشيء باستقصاء واهتمام ، لتنفيذ ما من أجله كان الطلب .

والمعنى : فإذا حان وقت عقابكم - يا بني إسرائيل - على أولى مرتي إفسادكم بعثنا عليكم ووجهنا إليكم « عبادا لنا أولى بأس شديد » أي أصحاب بطش شديد في الحروب والقتال ، فاذلوكم وقهروكم ، ونقضوا عنكم بين المسكن والديار ،

لقتل من بقي منكم على قيد الحياة ، وكان البعث المذكور وما ترتب عليه من قتلهم أو سلب أموالكم ، وهتك أعراضكم ، وتخريب دياركم ... وعدا نافذا لا مرد له ، ولا مفر لكم منه .

قال الألوسي : واختلف في تعيين هؤلاء العباد - الذين بعثهم الله لمعاقبة بني إسرائيل بعد إفسادهم الأول - قعن ابن عباس وقتاده : هم جالوت وجنوده وقال ابن جرير وابن إسحاق : هم سنحاريب ملك بابل وجنوده . وقيل : هم العمالة . وقيل يختصر . (١)

وسنبين رأينا فيمن سلطه الله - تعالى - عليهم في المرتين ، بعد تفسيرنا لهذه الآيات الكريمة .

فإن قال قائل : وما فائدة أن يخبر الله - تعالى - بني إسرائيل في التوراة أنهم يفسدون في الأرض مرتين . وأنه يعاقبهم على ما كان منهم من استعلاء وطغيان ، بأن يسلط عليهم من يذلهم ويقهرهم ويقضى عليهم ؟

فالجواب : أن إخبارهم بذلك يفيد أن الله - عز وجل - لا يظلم الناس شيئا ، وإنما يعاقبهم على ما يكون منهم من إفساد ويعفو عن كثير ، وأن رحمة مفترحة للعصاة متى تابوا وأصلحوا من شأن أنفسهم .

وهناك فائدة أخرى لهذا الإخبار ، وهو تنبيه العقلاء في جميع الأمم أن يحذروا من موقعة المعاصي التي تؤدي إلى الهلاك ، وأن يحذروا أهمهم من ذلك . ويصبروهم بسوء عاقبة السير في طريق الفی، حتى لا يعرضوا أنفسهم لعقاب الله - عز وجل - .

ومن فوائد إيراد هذا الخبر في القرآن الكريم ، تنبيه اليهود المعاصرين للنبي - صلى الله عليه وسلم - ومن على شاكلتهم في الفسوق والعصيان من المشركين ، إلى سنة من سنن الله في خلقه ، وهي أن الإفساد عاقبته الخسران .

فعلى اليهود وغيرهم من الناس أن يتبعوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذى نبئت نبوته ثبوتاً لا شك فيه ، لكي يسعدوا فى دنياهم وآخرتهم .

ثم أشار - سبحانه - إلى العائدة الثالثة من هذا الإخبار ، وهى أن الأمم المغلوبة على أمرها ، تستطيع أن تسترد مجدها ، متى أصلحت من شأن أنفسها ، ومتى استقامت على أمر الله - تعالى - فقال - سبحانه - : ثم رددنا لكم الكرة عليهم ، وأمددناكم بأموال وبغنين ، وجعلناكم أكثر نفيراً .

ففى هذه الآية الكريمة تذكير لبنى إسرائيل بحملة من نعم الله عليهم ، بعد أن أصابهم ما أصابهم من أعدائهم .

أما النعمة الأولى فقد عبر عنها - سبحانه - بقوله : ثم رددنا لكم الكرة عليهم .

والكرة : المرة من الشيء ؛ وأصلها من الكر وهو الرجوع ، مصدر كر يكر - من باب قتل - ، يقال : كر الفارس كراً ، إذا فر للجولان ثم عاد للقتال .

والمراد بالكرة هنا : الدولة والغلبة على سبيل المجاز .

أى : ثم أعدنا لكم - يابى إسرائيل - الدولة والغلبة على أعدائكم الذين قهروكم وأدلوكم ، بعد أن أحسنتم العمل ، ورجعتم إلى الله - تعالى - ، واتبعتم ما جاءكم به رسلكم .

والتعبير بـ ثم لإفادة الفرق الشاسع بين ما كانوا فيه من ذل وهوان ، وما أفاده الله عليهم بعد ذلك من نصر وظفر .

قال أبو حيان : وجعل - سبحانه - « رددنا » موضع نرد - إذ وقت إخبارهم لم يقع الأمر بعد - لأنه لما كان وعد الله فى غاية الثقة فى كونه سيقع ، عبر عن المستقبل بالماضى ^(١) .

(١) تفسير أبى حيان ج ٦ ص ١٠ .

وأما النعمة الثانية فقد دبر عنها - سبحانه - بقوله : « وأمددناكم بأموال وبنين » .

أى : لم نكتف بأن جعلنا النصر لكم على أعدائكم ، بل فضلا عن ذلك ، أمددناكم بالكثير من الأموال والأولاد ، بعد أن نهب أعداؤكم أموالكم ، وقتلوا الكثيرين من أبنائكم .

وأما النعمة الثالثة فتتجلى فى قوله - تعالى - : « وجعلناكم أكثر نفيرا » . والنفير : من ينفر مع الرجل من قومه لنصرته ومؤازرته ، وهو منصوب على التمييز . والمفضل عليه محذوف ، والتقدير : وجعلناكم أكثر عددا وقوة من أعدائكم الذين جاسوا خلال دياركم ...

فمن الواجب عليكم أن تقدروا هذه النعم ، وأن تحسنوا الاستفادة منها ، بأن تشكروا الله - تعالى - وتخلصوا له العبادة والطاعة ، فقد نصركم بعد هزيمتكم ، وأغناكم بعد فقركم ، وكشركم بعد قلتكم .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك سنة من سنته التى لا تتخلف ، وهى أن الإحسان عاقبته الفلاح ، والعصيان عاقبته الخسران ، وأن كل إنسان مسئول عن عمله ، ونتائج هذا العمل - سواء أكانت خيرا أم شرا - لا تعود إلا عليه ، فقال - تعالى - : « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها » .

أى : إن أحسنتم - أيها الناس - أعمالكم ، بأن أدبتموها بالطريقة التى ترضى الله - تعالى - ، أفلحتم وسعدتم ، وبنيتهم الثمار الطيبة التى تترتب على هذا الإحسان للعمل ، وإن أسأتم أعمالكم ، بأن آثرتم الأعمال السيئة على الأعمال الحسنة ، خسرتهم وشقيتم وتحملتم وحدثكم النتائج الوخيمة التى تترتب على إتيان الأعمال التى لا ترضى الله - تعالى - .

وقد رأيتم كيف أن الإفساد كانت عاقبته أن « بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأسا شديدا جاسوا خلال الديار » .

و كيف أن الإحسان كانت عاقبته أن « رددنا لكم الكرة ، على أعدائكم »
« وأمددناكم بأموال وبغير وجعلناكم أكثر تنيرا ،

قال صاحب البحر ما ملخصه : وجواب وإن أسأتم قوله « فلها ، وهو
خبر لمبتدأ محذوف أى : فالإساءة لها . قال السكرماني : قال - سبحانه - « فلها
باللام ازدواجا . أى : أنه قابل ، لأنفسكم ، بقوله « فلها ، . وقال المنبري
اللام بمعنى إلى أى : فإليها نرجع الإساءة .

وقيل : اللام بمعنى على . أى : فعلها ، كما في قول الشاعر : غـرـرـ صـريـعا
للبيدين وللقـم . (١)

ثم بين - سبحانه - ما يحل بهم من دمار ، بعد إفسادهم للمرة الثانية ، فقال
- تعالى - « فإذا جاء وعد الآخرة ، ليسوءوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد
كما دخلوه أول مرة . وليتبروا ما علوا تديرا ،

والكلام أيضا هنا على حذف مضاف . وجواب إذا محذوف دل عليه
ما تقدم وهو قوله « بعثنا عليكم عبادا لنا . ، فإذا جاء وقت عقوبتكم يا بني
إسرائيل على إفسادكم الثاني في الأرض ، بعثنا عليكم أعداءكم ليسوءوا وجوهكم
أى : ليجعلوا آثاره المساءة والحزن بادية على وجوهكم ، من شدة ما تلقونه
منهم من إيذاء وقتل .

قال الجبل ما ملخصه : وقوله « ليسوءوا : الواو لاهباد أولى البأس الشديد .
وفي عود الواو على العباد نوع استخدام ، إذ المراد بهم أولا جالوت
وجنوده ، والمراد بهم هنا يختصرون وجنوده .

وقرأ ابن عامر وحزمة بالياء المفتوحة والهمزة المفتوحة آخر الفعل
: ليسوء ، والفاعل إما الله - تعالى - وإما الوعد ، وإما البعث .

وقرأ الكسائي المنسوء - بنون العظمة - أي : المنسوء نحوز . وهو موافق لما قبله ، من قوله : بعثنا ، ورددنا ، وأبددنا ، ولما بعده من قوله : هدانا ، وجعلنا ، وقرأ الباقر - ليسوءوا ، مسنداً إلى ضمير الجمع العائد على العباد ، وهو موافق لما بعده من قوله : ولیدخلوا المسجد . وليتبروا ،^(١)

وقال الإمام الرازي : ويقال ساءه يسوءه إذا أحزنه ، وإنما عزا - سبحانه - الإساءة إلى الوجوه ، لأن آثار الأعراض النفسية الحاصلة في القلب إنما تظهر على الوجه ، فإن حصل الفرح في القلب ظهر الإشراق في الوجه ، وإن حصل الحزن والخوف في القلب ، ظهر الكلوح في الوجه . ،^(٢)

وقوله - سبحانه - . ولیدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، معطوف على ما قبله وهو قوله - سبحانه - . ليسوءوا وجوهكم ،

والمراد بالمسجد : المسجد الأقصى الذي بيئت المقدس ، وقوله : كما دخلوه . صفة لمصدر محذوف

والمعنى : ولیدخلوا المسجد دخولا كأننا كدخولهم إياه أول مرة قال أبو حيان : ومعنى : كما دخلوه أول مرة ، أي بالسيف والقهر والغلبة والإذلال ،^(٣)

أي أن المراد من التشبيه ، بيان أن الأعداء في كل مرة أذلوا بني إسرائيل وقتلوا قهرهم

وقوله - تعالى - . وليتبروا ما علوا تتبيرا ، يشعر بشدة العقوبة التي أنزلها أولئك العباد بني إسرائيل ، إذ التتبير معناه الإهلاك والتدمير والتخريب لكل ما تقع عليه . ومنه قول الشاعر :

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٦١٧ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٢٠ ص ١٤٩ .

(٣) تفسير البحر المحیط ج ٥ ص ١١ .

وما الناس إلا عاملان فعامل يتبر ما بيني وآخر رافع
أى : يخرب ويهدم ما بينى .

ودعا فى قوله « ما علوا » اسم موصول مفعول يتبروا ؛ وهو عبارة عن
البلاد والأماكن التى هدموها ، والعائد عذوف ، وتبيرا مفعول مطلق
مؤكد لعماله .

أى : وليدمروا ويخربوا البلاد والأماكن التى علوا عليها ، وصارت فى
حوزتهم ، تدميرا تاما لا مزيد عليه .

وبذلك نرى أن العباد الذين سلطهم الله - تعالى - على بنى إسرائيل ، عقب
إفسادهم المعانى فى الأرض ، لم يكتفوا بجوس الديار ، بل أضافوا إلى ذلك
إلقاء الحزن والرعب فى قلوبهم ، ودخول المسجد الأقصى فأنحين ومخربين ،
وتدمير كل ما وقعت عليه أيديهم تدميرا قظيحا لا يوصف .

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة ببيان أن هذا الدمار الذى حل ببنى
إسرائيل بسبب إفسادهم فى الأرض مرتين . قد يكون طريقا لرحمتهم ، وسببا
فى توبتهم وإيمانهم ، إن فتحوا قلوبهم للحق ، واعتبروا بالأحداث الماضية ،
وفهموا عن الله - تعالى - سنته التى لا تتخلف ، وهى أن الإحسان يؤدى إلى
الفلاح والظفر ، والإفساد يؤدى إلى الخسران والهلاك .

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه المعانى بأبلغ تعبير وأحكمه . فقال
... تعالى : : « عسى ربكم أن يرحمكم ، وإن عذبتكم عذابا ، وجعلنا جهنم
للكافرين حصيرا .

أى : عسى ربكم أن يرحمكم ؛ ويعفو عنكم يا بنى إسرائيل متى أخلصتم له
العبادة والطاعة ، وأصلحتكم أقوالكم وأعمالكم ، فقد علمتم أنه - سبحانه -
لا ينزل بلاء إلا بذنب ، ولا يرفع إلا بشربة .

قال : أبو حيان : وهذه الترجية ليست لرجوع دولة ، وإنما من باب

ترحم المطيع منهم ، و كان من الطاعة أن يتبعوا عيسى ومحمدا - عليهما السلام -
ولكنهم لم يفعلوا ، (١) .

وقوله - سبحانه - : وإن عدتم عدنا ، وإنذار لهم بإنزال العقوبات عليهم ،
إن عادوا إلى فسادهم وإفسادهم .

أى : وإن عدتم إلى المعاصى ومخالفة امرى ، وانتهاك حراماتى ، بعد أن
تداركتم رحمتى ، عدنا عليكم بالقتل والتعذيب وخراب الديار . .

ولقد عادوا إلى الكفر والفسوق والعصيان ، حيث أعرضوا عن دعوة
الحق التى جاءهم بها الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ولم يكتفوا بهذا الإعراض
بل هموا بقتله - صلى الله عليه وسلم - وأبدوا كل متربص بالإسلام والمسلمين ،
فكانت نتيجة ذلك أن عاقبهم النبى - صلى الله عليه وسلم - وأعجابه بما يستحقون
من إجلاله وتشريد وقتل ...

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : عادوا فسلط الله عليهم المؤمنين ،

ثم بين - سبحانه - عقوبتهم فى الآخرة فقال : وجعلنا جهنم للكافرين
حصيرا ، أى : إن عدتم إلى معصيتنا فى الدنيا عدنا عليكم بالعقوبة الرادعة ،
أما فى الآخرة فقد جعلنا جهنم للكافرين منكم ومن غيركم د حصيرا ، أى :
سجنا حاصرا لكم لا تستطيعون الهروب منه ، أو الفكاك عنه ، أو فراشا
تفترشونه ، كما قال - تعالى - : لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ، وكذلك
نجزى الظالمين ، .

قال بعض العلماء : قوله د حصيرا ، فيه وجهان : الأول : أن الحصير
المحبس والسجن . من الحصر وهو الحبس ، يقال حصره يحصره حصرا ، إذا
ضيق عليه وأحاط به . .

وثانى . أن الحصير : البساط والفراش ، من الحصير الذى يفرش ، لأن

العرب تسمى البساط الصغير حصيرا ...» (١)

وبذلك نرى الآيات الكريمة : قد حكمت لنا قضاء الله - تعالى - في بني إسرائيل ، وسأقت لنا لكي نعتبر ونتعظ ألوانا من سنن الله - تعالى - التي لا تتخلف ، والتي من أبرزها أن الإيمان والصلاح عاقبتهما الفلاح ، وأن الكفر والفساد عاقبتهما الشقاء ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

هنا ، والذي يراجع ما قاله المفسرون في بيان العباد الذين سلطهم الله - تعالى - على بني إسرائيل بعد إفسادهم الأول والثاني في الأرض ، يرى أقوالا متعددة يبدو على كثير منها الاضطراب والضعف (٢) . . .

ومن ذلك ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس وابن مسعود - رضي الله عنهما - أن الله - تعالى - عهد إلى بني إسرائيل في التوراة : لتفسدن في الأرض مرتين ، فكان أول الفسادين قتل زكريا ، فبعث الله عليهم ملك النبط ، وكان يدعى صحابين ، فبعث الجنود ، وكانوا من أهل فارس . . . فتحصنت بنو إسرائيل . . . ودخل فيهم بختنصر ، - أحد جنود صحابين - وسمع أقوالهم . . . الخ ، (٣)

وهذا الأثر من وجوه ضعفة ، أن غزو النبط ومعههم بختنصر لبني إسرائيل سابق على زمان زكريا - عليه السلام - بحوالي ستة قرون .

لأن الثابت تاريخيا أن بختنصر غزا بني إسرائيل وأذنصر عليهم ثلاث مرات : الأولى في سنة ٦٠٦ ق م والثانية في سنة ٥٩٩ ق م ، والثالثة في سنة ٥٧٨ ق م .

(١) تفسير أضواء البيان ٣ ص ٢٧٢ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي

(٢) ذكرنا معظم هذه الأقوال في كتابنا بنو إسرائيل في القرآن والسنة ،

٢ ص ٢٥٩ وناقشناها ، وضعفنا ما يستحق التضعيف منها ، ورجحنا ما يستحق التزجيج . . .

(٣) تفسير ابن جرير ١٦ ص ١٧ - بتصرف وتلخيص . -

وفي هذه المرة الثالثة أكثر القتل فيهم ، وساق الأحياء منهم أسارى إلى أرض بابل .

أما زكريا - عليه السلام - فمن المعروف ، أنه كان معاصرا لعيسى - عليه السلام - أو مقاربا لعصره : فقد أخبرنا القرآن الكريم أن زكريا هو الذي نولى كفالة مريم أم عيسى .

وإذا فالقول بأن إفسادهم الأول كان لقتلهم زكريا ، وأن المسلط عليهم ملك النبط ومعه ، يختصر ، يتنافى مع الحقائق التاريخية .

وفضلا عن ذلك ، فإن هذا الأمر اضطرابه ظاهر ، لأن صحابين ، ملك النبط ، هو الذي يسميه المؤرخون « سحاريب » ، وكان ملكا للأشوريين ، وهو الذي غزا ملكة يهوذا سنة ٧١٣ ق م . أي قبل غزو بختنصر لها بأكثر من مائة سنة ، أي : أن بختنصر لم يكن معاصرا له .

والرأى الذى نختاره : هو أن العباد الذين سلطهم الله على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول ، هم جالوت وجنود . ونستند فى اختيارنا لهذا الرأى إلى أمور من أهمها ما يلى :

١ - ذكر القرآن الكريم فى سورة البقرة ، عند عرضه لقصة القتال الذى دار بين طالوت قائد بنى إسرائيل ، وبين جالوت ، قائد أعدائهم ، ما يدل على أن بنى إسرائيل كانوا قبل ذلك مقهورين بهزوعين من أعدائهم .

ويتجلى هذا المعنى فى قوله تعالى - : « ألم تر إلى الملائكة من بنى إسرائيل من بعد موسى ، إذ قالوا للنبي لهم . إبعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ، قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا . قالوا وما لنا أن لا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا »

فقولهم - كما حكى القرآن عنهم - « وما لنا أن لا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا » يدل دلالة قوية . على أنهم كانوا قبل

قتلهم لجالوت مهزومين ذريعة اضطيتهم إلى الخروج عن ديارهم ، وإلى مفارقة آبائهم .

٢ - قوله - تعالى - : ، ثم رددنا لكم الكرة عليهم ، صريح في أن الله - تعالى - نصر بني إسرائيل بعد أن تابوا وأتابوا على أعدائهم .

وهذا المعنى ينطبق على ما قصه القرآن علينا ، من أن بني إسرائيل بقيادة طالوت قد انتصروا على جالوت وجنوده . . .

قال - تعالى - : ولما برزوا - أي بنو إسرائيل - لجالوت وجنوده ، قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين . فهم موهوم بإذن الله ، وقتل داود جالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه ما يشاء . . . ولقد كان هذا النصر نعمة كبرى لبني إسرائيل ، فقد جاءهم بعد أن أخرجوا من ديارهم وأبائهم ، وبعد أن اعترفوا على اختيار طالوت ملكا عليهم ، وبعد أن قاتل مع طالوت عدد قليل منهم .

٣ - قوله - تعالى - : ، وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفرا ، أكثر ما يكون انطباق على عهد حكم طالوت ، وداود ، وسليمان لهم .

ففي هذا العهد الذي دام زهاء ثمانين سنة ، ازدهرت ملكتهم ، وعز سلطانهم وأمدهم الله خلاله بالأموال الوفيرة . وبالبنين الكثيرة ، وجعلهم أكثر من أعدائهم عددا وقوة .

أما بعد هذا العهد ، بل وقبل هذا العهد ، فقد كانت حياتهم سلسلة من المآسى والنكبات . . .

فبعد موت سليمان - عليه السلام - سنة ٩٧٥ ق م تقريبا ، انقسمت ملكتهم إلى قسمين : مملكة يهوذا في الجنوب ، ومملكة إسرائيل في الشمال ، واستمرتا في صراع ونزاع حتى قضى الآشوريون سنة ٧٢١ ق م على مملكة إسرائيل ، وقضى بختنصر ، على مملكة يهوذا سنة ٥٨٨ ق م .

٤ -- ذكر بعض المفسرين أن العباد الذين سلطهم الله عليهم بعد إفسادهم الأول هم جالوت وجنوده .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله - فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بآس شديد ، قال : بعث الله عليهم في الأولى جالوت . نجاس خلال ديارهم ، فسألوا الله - تعالى - أن يبعث لهم ملكا ، فبعث لهم طالوت ، فقاتلوا جالوت ، وانتصروا عليه ، وقتل داود جالوت ، ورجع إلى بني إسرائيل ملكهم . فلما أفسدوا بعث الله عليهم في المرة الآخرة ، بختنصر ، تغرب المساجد ، وتبر ما علوا تسييرا . . . (١)

هذه بعض الأدلة التي تجعلنا نرجح أن المراد بالعباد الذين سلطهم الله - تعالى - على بني إسرائيل بعد إفسادهم الأول في الأرض ، هم جالوت وجنوده .

أما العباد الذين سلطهم الله عليهم بعد إفسادهم الثاني ، فيرى كثير من المفسرين أنهم : بختنصر ، وجنوده .

وهذا الرأي ليس يبعد عن الصواب ، لما ذكرنا قبل ذلك من تنكيله بهم ، وسوقهم أسارى إلى بابل سنة ٥٨٨ ق م .

إلا أننا نؤثر على هذا الرأي ، أن يكون المسلط عليهم بعد إفسادهم الثاني ، هم الرومان بقيادة زعيمهم ، تبطس ، سنة ٧٠ ق م . لأمور من أهمها :

١ -- أن الذي يتفحص التاريخ يرى أن رذائل بني إسرائيل في الفترة التي سبقت تنكيل تبطس ، بهم ، أشد وأكبر من الرذائل التي مبيت لإذلالهم بختنصر ، لهم . فهم على سبيل المثال - قبيل بطش الرومان بهم ، كانوا قد قتلوا من أنبياء الله زكريا ويحيى - عليهما السلام - ، وكانوا قد حاولوا قتل عيسى - عليه السلام - ولما سكن الله - تعالى - نجاه من شرورهم .

٢ - ضربات الرومان - في ذاتها - كانت أشد وأقسى على بني إسرائيل ،
من ضربات د بختنصر ، لهم .

فمثلا عدد القتلى من اليهود على يد الرومان بقيادة د تيطس ، بلغ مليون
قتيل ، وبلغ عدد الأسرى نحو مائة ألف أسير (١) .

بينما كان عدد القتلى والأسرى منهم على يد د بختنصر ، أقل من هذا العدد
بكثير .

واقدر وصف المؤرخون النكبة التي أوقعها الرومان بهم ، بأوصاف تفوق
بكثير ما أوقعه البابليون بقيادة بختنصر بهم .

يقول أحد الكتاب وأصفا ما حل باليهود على يد د تيطس ، الروماني :
كان د تيطس ، في الثلاثين من عمره ، حين وقف سنة [٧٠ م] أمام أسوار
أورشليم على رأس جيشه ، بعد أن بدأت المدينة تعاني من أهوال
الحصار ...

وبعد أن اقتحم د تيطس ، وجنوده المدينة ، أصدر أمره لإلهم : أن
أحرقوا وأنهبوا واقتلوا ، فأهوال اليهود وأعراضهم خلال لكم ، وقد
أحرق الرومان معبد اليهود ودمروه ، وتحققت نبوءة المسيح - عليه السلام -
حين قال : ستاتي هذه الأرض بؤسا وغفنا ، وسيحل الغضب على أهلها ،
وسيسقطون صرعى على حاد السيف ، ويرسلون عبيدا في كل مصر . وستطأ
أورشليم الأقدام .

٣ - النكبة التي أنزلها الرومان بهم - من حيث آثارها - أشنع بكثير
من النكبة التي أنزلها بختنصر بهم . لأنهم بعد تشكيل بختنصر بهم وأخذهم

(١) من كتاب د تاريخ الإسرائيليين ، ص ٧٦ اشاهين مكاريوس .

(٢) من مقال للاستاذ عمر طبعث زهران عنوانه د تدمير أورشليم ،

نشر بمجلة الأزهر المجلد ٢١ ص ٤٧ .

أُسرى إلى بلاد، وبقائهم في الأسر زهاء خمسين سنة عادوا إلى ديارهم مرة أخرى ، بمساعدة « قورش ، ملك الفرس ، الذي انتصر على « بختنصر » سنة ٥٣٨ ق م تقريباً ، وبدأوا يتكاثرون من جديد .
أما بعد تدمير « تيطس » بهم فلم تقم لهم قائمة ، ومزقوا في الأرض مشر ممزق ، وانقطع دابرهم كأمة .

وقد صرح بهذا المعنى صاحب تاريخ الإسرائيليين فقال بعد وصفه لما أوقعه « تيطس » بهم من ضربات : « إلى هنا ينتهي تاريخ الإسرائيليين كأمة ، فلم يبق بعد خراب « اورشليم » على يد « تيطس » ، تفرقوا في جميع بلاد الله ، وتاريخهم بعد ذلك ملحق بتاريخ الممالك التي توطنوا ، أو نزلوا فيها .: (١) .
ولهذه الأسباب نرجح أن يكون العباد الذين سلبهم الله على بني إسرائيل بعد إفسادهم الثاني في الأرض ، هم الرومان بقيادة « تيطس » .

أقول ومع ترجيحنا لذلك ، إلا أننا نحجب في نهاية حديثنا عن هذه الآيات الكريمة ، أن نقرر ما يأتي :

١ - أنه لم يصح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حديث في بيان المراد بالعباد الذين سلبهم الله على بني إسرائيل عقب مرتين لإفسادهم ، وإلا لذكره المفسرون .

٢ - أن لإفساد في الأرض قد حدث كثيراً من بني إسرائيل ، وأن المقصود من قوله - تعالى - : « لتفسدن في الأرض مرتين » ، إنما هو أظهر وأبرز مرتين حدث فيهما الإفساد منهم .

ومما يدل على أن هذا الإفساد قد تكرر منهم قوله - تعالى - : « وإن عدتم عدنا ، وقوله - تعالى - : « وإذ تأذن ربك ليعيثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » (٢) .

(١) تاريخ الإسرائيليين ص ٧٧ للمهاجرين مكاريوس .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٦٧ .

٣ . أن المقصود من سياق الآيات ، إنما هو بيان سنة من سنن الله في الأمم حال صلاحها وفسادها .

وقد ساق القرآن الكريم هذا المعنى بأحكام عبارة ، وذلك في قوله تعالى - إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ، . ولا شك أن هذه السنة ماضية في الأمم دون تبدل أو تحويل في كل زمان ومكان .

وما دام هذا هو المقصود ، ففهمه لا يتوقف على تحديد مرتى لإفسادهم ، وتحديد المسلط عليهم عقب كل مرة .

وبمعنى في هذا المقام ، قول الإمام ابن كثير : « وقد وردت في هذا - أي في المسلط عليهم في المرتين - آثار كثيرة إسرائيلية ، لم أر تطويل الكتاب بذكرها ، لأن منها ما هو موضوع من وضع زنادقهم ، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحا ، ونحن في غنية عنها ، والله الخد ، وفيما قص الله علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية المكتب قبله ، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم . وقد أخبر الله - تعالى - أنهم لما بغوا وظفروا سلط عليهم عدوهم ، فاستباح بيضتهم وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم . جزاء وفاقا ، وما ربك بظلام للعبيد ، فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقا من الأنبياء والعلماء » (١) .

وقول الإمام الرازي : « واعلم أنه لا يتعلق كثير غرض في معرفه أولئك الأقوام بأعيانهم ، بل المقصود هو أنهم لما أكثروا من المعاصي ، سلط عليهم أقواما قتلهم وأفدوهم » (٢) .

وقد بسطنا القول في تفسير هذه الآيات الكريمة ، بصورة أكثر تفصيلا

(١) تفسير ابن كثير المجلد ٥ ص ٤٤ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٢٠ ص ١٥٦ .

في غير هذا المكان ، فليرجع إليه من شاء الاستزادة (١) .

وبعد أن بين - سبحانه - أنه قد آتى موسى - عليه السلام - التوراة لتكون هداية لبني إسرائيل ، وأنه - عز وجل - قد قضى فيهم بقضائه العادل . أتبع ذلك بالثناء على القرآن الكريم ، فقال - تعالى - :

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ، وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (١) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) » .

قال الفخر الرازي : أعلم أنه - تعالى - لما شرح ما فعله في حق عباده المخلصين ، وهو الإسماء برسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وإيتاء الكتاب لموسى - عليه السلام - ، وما فعله في حق العصاة والمتمردين وهو تسليط أنواع البلاء عليهم ، كان ذلك تنبيها على أن طاعة الله توجب كل خير وكرامة ، ومعصيته توجب كل بلية وحرمان ، لا جرم أثني - سبحانه - على القرآن فقال : « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ » (٢) .

والفعل « يهدي » مأخوذ من الهداية ، ومعناها : الإرشاد والدلالة بلطف إلى ما يوصل إلى البغية . والمفعول محذوف . أي : يهدي الناس .

وقوله - سبحانه - « دَلَّتْهُيْ أَقْوَمُ » صفة لموصوف محذوف ، أي يهدي الناس إلى الطريقة أو اللذة التي هي أقوم .

قال صاحب الكشاف : دَلَّتْهُيْ أَقْوَمُ ، أي : للحالة التي هي أقوم للحالات وأسدها ، أو اللذة أو للطريقة . وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة

(١) راجع كتابنا « بنو إسرائيل في القرآن والعصاة » ج ٢ من ص ٣٤٧ إلى ص ٣٩٦ .

(٢) تفسير الفخر الرازي .

الذى تجده مع الخلف ، لما فى إلهام الموصوف بحذفه من غفامة تفقد مع إيضاحه ،^(١) .

والمعنى : إن هذا القرآن الكريم ، الذى أنزله الله - تعالى - عليك يا محمد - صلى الله عليه وسلم - ، يرشد الناس ويدلهم ويهديهم - فى جميع شؤونهم الدينية والدنيوية - إلى الملة التى هى أقوم الممل وأعدلها ، وهى دلة الإسلام ، فمنهم من يستجيب لهذه الهداية فيظفر بالسعادة ، ومنهم من يعرض عنها فيبوء بالشفاء .

قال صاحب الظلال ما ملخصه : إن هذا القرآن يهدى للناس إلى أقوم فى عالم الضمير والشعور ، بالعقيدة الواضحة التى لا تنقيد فيها ولا غموض ، والناس تطلق الروح من أنقال الوهم والخرافة ، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء ، وتربط بين فواميس الكون الطبيعية ، وفواميس الفطرة البشرية فى تناسق وانساق .

ويهدى للناس إلى أقوم ، فى التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه ، وبين شاعره وسلوكه ، وبين عقيدته وعمله .

ويهدى للناس إلى أقوم فى عالم العبادة ، بالموازنة بين التكليف والطاقة ، فلا تشق التكليف على النفس حتى تم ، ولا تسهل حتى تنسج فى النفس الرخاوة والاستماتار ، ولا تتجاوز المقصد والاعتدال وحدود الاحتمال ،

ويهدى للناس إلى أقوم ، فى علاقات الناس بعضهم ببعض : أفراداً وأزواجاً وحكومات وشعوباً ، ودولاً وأجناساً .

ويهدى للناس إلى أقوم فى نظام الحكم ، ونظام المال ، ونظام الاجتماع ، ونظام التعامل ...^(٢) .

(١) تفسير السكشاف ج ٢ ص ٤٣٩ ،

(٢) فى ظلال القرآن ج ١٥ ص ٢٢١٥ .

وقوله - سبحانه - ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ، صفة ثافية من صفات القرآن الكريم .

أى ، أن هذا القرآن بجانب هدايته للتي هم ، أقوم ، فهو - أيضا - يبشر المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحات بأن لهم أجرا كبيرا من خالقهم - عز وجل - : أجرا كبيرا لا يعلم مقداره إلا مسدبه وما يحه ، وهو الله رب العالمين .

وقوله - سبحانه - : « وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما ، بيان لسوء عاقبة الذين لا يستجيبيون لهداية القرآن الكريم ، وهو معطوف على قوله - تعالى - « أن لهم أجرا كبيرا » .

أى : أن هذا القرآن يبشر المؤمنين بالأجر الكبير ، ويبشر - على سبيل التهكم - الذين لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من حساب ونواب وعقاب بالعذاب الأليم .

قال الألوسى ما ملخصه : وتخصيص الآخرة بالذكر من بين سائر ما لم يؤمن به الكفرة ، لكونها أعظم ما أمروا بالإيمان به ، ولمراعاة التناسب بين أعمالهم وبين جزائهم ، الذى أفتأ عنه قوله - تعالى - « أعتدنا لهم عذابا أليما » وهو عذاب جهنم . أى : أعتدنا وهما أنا لهم ، فيما كفروا به وأنكروا وجوده من الآخرة عذابا أليما ...

والآية معطوفة على قوله « أن لهم أجرا كبيرا » ، فيكون إعداد العذاب الأليم للذين لا يؤمنون بالآخرة مبشرا به كثيروت الأجر الكبير للمؤمنين ، ومصيبة تعدو سرور يبشر به ، فكأنه قيل : يبشر المؤمنين بشواهم وعقاب أعدائهم ... (١) .

ثم بين - سبحانه - بعض الأحوال التي قد يقدم الإنسان فيها على طلب ما يضره بسبب عجلته واندفاعه فقال - تعالى - :

« وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالْإِثْمِ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (٨) ».

والمراد بالإنسان هنا : الجنس وليس واحداً معيناً .

قال الألوسي : وقوله : « دعاءه بالخير » أي : دعاء كدعائه بالخير ، فحذف الموصوف وحرف التشبيه ، واقتصب المجرور على المصدرية (١) .

والمعنى : ويدعو الإنسان حال غضبه وضجره ، على نفسه ، أو على غيره ، « بالشر » ، كأن يقول : « اللهم أهلكني ، أو أهلك فلانا ... »

« دعاءه بالخير » أي : يدعو بالشر على نفسه أو على غيره ، كدعائه بالخير ، كأن يقول : اللهم اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين .

قال ابن كثير : : يخبر - تعالى - عن عجلة الإنسان ، ودعائه في بعض الأحيان نفسه أو ولده ، أو ماله ، « بالشر » أي : بالموت أو الهلاك والدمار والاهنة ونحو ذلك ، فلو استجاب له ربه لهلك دعائه ، كما قال - تعالى - : « ولو يعجل الله للناس الشر استعجلهم بالخير ، لقضى إليهم أجلهم ... » . وفي الحديث : « لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم ، أن توافقوا من الله ساعة لإجابة يستجيب فيها » (٢) .

وقيل المراد بالإنسان هنا : الكافر ، أو الفاسق الذي يدعو الله - تعالى - بالشر ، كأن يسأله بأن ييسر له أمراً محرماً كالقتل والسرقة والزنا وما يشبه ذلك .

وقد أشار القرطبي إلى هذا الوجه بقوله : « وقيل نزلت في النضر بن الحارث ، كان يدعو ويقول - كما حكى القرآن عنه - : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء » . أو اتقنا عذاب اليم » .

(١) الألوسي ج ١٥ ص ٢٣

(٢) تفسير ابن كثير : ج ٥ ص ٤٦

وقيل : هو أن يدعو في طلب المحذور ، كما يدعو في طلب المباح . كما في قول الشاعر :

أخوف بالبيت فيمن بطوف وأرفع من منزلي المسبل
وأسجد بالليل حتى الصباح وأتلو من المحكم المنزل
عسى فارجح الهم عن يوسف يسخر لي ربة المحمل^(١)

ويدعو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، لأنه المأثور عن بعض الصحابة والتابعين وهم أدري بتفسير كتاب الله من غيرهم .

قال ابن جرير - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية : عن ابن عباس قال في قوله - تعالى - : ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير .. ، يعني قول الإنسان اللهم العنه واغضب عليه ، فلو يجعل له الله ذلك كما يجعل له الخير لهلك .. ،

وقال قتاده : يدعو على ماله فيأمن ماله ، ويدعو على ولده ، ولو استجاب الله له لأدركه .. ،

وقال مجاهد : ذلك دعاء الإنسان بالشر على ولده ، ولا يجب أن يجاب^(٢) .

وقوله - تعالى - : وكان الإنسان عجولا ، بيان للسبب الذي حمل الإنسان على أن يدعو بالشر كما يدعو بالخير .

والعجول من العجل - بفتح العين والجيم - وهو الإسراع في طلب الشيء قبل وقته .

يقال : عجل - بزنة تعب - يجعل فهو عجلان ، إذا أسرع .
أى : وكان الإنسان متسرعاً في طلب كل ما يقع في قلبه ، ويخطر بباله ، لا يتأنى فيه تأنى المتبصر ، ولا يتأمل تأمل المتدبر .

(١) تفسير القرطبي ١٠ ص ٢٢٥

(٢) تفسير ابن جرير ١٥ ص ٣٧

وشبه هذه الجملة قوله - تعالى - خلق الإنسان من عجل ، سار بكم آياتي فلا تستعجلون ، (١) .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته ، وسعة رحمته بعباده ، ومجازاتهم على أعمالهم يوم القيامة ، فقال - تعالى - :

« وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ، فَخَوَّانَا آيَةَ اللَّيْلِ ، وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ، لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (٩) وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٠) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١١) مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَلَا تُزِيذُ وَازِرَةً وِزْرَ أُخْرَى ، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٢) » .

قال أبو حيان : قوله - تعالى - « وجعلنا الليل والنهار آيتين .. » لما ذكر - سبحانه - القرآن وأنه هادٍ إلى الطريقة المستقيمة ، ذكر ما أنعم به عالم يمكن الانتفاع إلا به ، وما دل على توحيده من عجائب العالم العلوي . وأيضا لما ذكر عجلة الإنسان ، وانتقاله من حال إلى حال ، ذكر أن كل هذا العالم كذلك في الانتقال ، لا يثبت على حال ، فنور عقب ظلمة وبالعكس ، وازدياد نور وانتفاص آخر ، (٢) .

والمراد بالآيتين هنا : علامتان الواضحتان ، الدالتان على قدرة الله - تعالى - ووحدانيته .

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٧

(٢) تفسير البحر المحیط ج ٦ ص ١٤

وقوله : « فحوونا » ، من المحو بمعنى إزالة الشيء ، يقال : محى فلان الشيء محواً - من باب قتل - إذا أزال أثره .

والعلماء في تفسير هذه الآية إجماعان : أما الاتجاه الأول فيرى أصحابه ، أن المراد بالآيتين : نفس الليل والنهار ، وأن الكلام ليس فيه حذف .
فيكون المعنى : وجعلنا الليل والنهار - بهيئتهما الثابتة ، وتعاقبهما الدائم ، واختلافهما طويلاً وقصراً - آيتين كونييتين ، بمرتبتين ، داليتين على أن لهما صانعاً قادراً ، حكيماً ، هو الله رب العالمين .

وقوله - سبحانه - « فحوونا آية الليل » ، أى : لجعلنا الآية التى هى الليل - محوّة الضوء ، مظلمة الهيئته ، مختلفة فيها الأشياء ، ساكنة فيها الحركات .

وقوله - تعالى - « وجعلنا آية النهار مبصرة » ، أى : وجعلنا الآية التى هى النهار مضبوطة ، تبصر فيها الأشياء وترى بوضوح وجلاء .

وعلى هذا الاتجاه ، تتكون إضافة الآية إلى الليل والنهار - من إضافة الشيء إلى نفسه ، مع اختلاف اللفظ ، تنزيلاً لاختلاف اللفظ منزلة الاختلاف فى المعنى ، كما فى قوله - تعالى - « شهر رمضان » ، « رمضان هو نفس الشهر » .

وأما الاتجاه الثانى فيرى أصحابه أن الكلام على حذف مضاف ، وأن المراد بالآيتين : الشمس والقمر ، فيسكون المعنى : وجعلنا فيرى الليل والنهار - وهما الشمس والقمر - آيتين داليتين على قدرة الله - تعالى - ووحدانيته ، فحوونا آية الليل - وهى القمر - ، بأن أزلنا عنه شعاعه وضياءه ، ولم نجعله كالشمس فى ذلك ، وجعلنا آية النهار - وهى الشمس - مبصرة ، أى : ذات شعاع وضياء يبصر فى ضوءها الشيء على حقيقةه .

وقد ذكر صاحب الكشاف هذين الوجهين ، دون أن يرجح بينهما فقال : قوله - تعالى - : « وجعلنا الليل والنهار آيتين .. » فيه وجهان أحدهما أن يراد أن الليل والنهار آيتان فى أنفسهما ، فتسكون الإضافة فى آية الليل

وآية النهار للتيبين ، كإضافة العدد إلى المعداد ، أى : فبحونا الآية التى هى الليل ، وجعلنا الآية التى هى النهار مبصرة .

والثانى : أن يراد : وجعلنا نرى الليل والنهار آيتين ، يريد الشمس والقمر

أى : فبحونا آية الليل التى هى القمر ، حيث لم نخلق له شعاعا كشعاع الشمس تبصر به الأشياء ، وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر فى ضوئها كل شئ . (١) .

والذى نراه ، أن الإنجاء الأول أقرب إلى الصواب ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة ، ولأنه لا يحتاج إلى تقدير ، وما كان كذلك أرى مما يحتاج إلى تقدير ، ولأن الليل والنهار هما بذاتهما ، من أظهر العلامات والأدلة على قدرة الله - تعالى - ووحدانيته . وهناك عشرات الآيات القرآنية فى هذا المعنى ، ومن ذلك قوله - تعالى - وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، (٢) .

وقوله - تعالى - : ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ... ، (٣) وقال - تعالى - : وإن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، لآيات لأولى الألباب ، (٤) إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى أوردها الله - تعالى - فى هذا المعنى .

وقوله - سبحانه - : ولتبتعوا فضلا من ربكم ، بيان لمظهر من مظاهر حكيمته تعالى - ورحمته بعباده .

(١) تفسير الكشف - ٢ ص ٤٤٠

(٢) سورة يس الآية ٢٧

(٣) سورة فصلت الآية ٣٧

(٤) سورة آل عمران ، الآية ١٩٠

والجملة الكريمة متعلقة بها قبلها ، وهو قوله - سبحانه - « وجعلنا آية
النهار مبصرة ، أي : جعلنا النهار مضيئاً ، لتطلبوا فيه ما تحتاجونه من أمور
معايشكم ، ومن الأرزاق التي قسمها الله بينكم .

قال الألوسي ما ملخصه : وفي التعبير عن الرزق بالفضل ، وعن الكسب
بالابتغاء . : دلالة على أنه ليس للعبد في تحصيل الرزق تأثير سوى الطلب ،
ولنما الإعطاء ، من الله - تعالى - بطريق التفضل . . . (١)

وشبه به - الجملة الكريمة قوله - تعالى - : « ومن رحمته جعل لكم الليل
والنهار ، لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلمكم نشكرون » .

فقوله - تعالى - « لتسكنوا فيه » يعود إلى الليل . وقوله - تعالى - « ولتبتغوا
من فضله » يعود على النهار .

ثم بين - سبحانه - حكمة أخرى ونعمة أخرى لجعله الليل والنهار على هذه
الهيئة فقال : « ولتعلموا عدد السنين والحساب » .

أي : وجعلنا الليل والنهار على هذه الصفة من التعاقب والاختلاف في
الطول والقصر لتعرفوا عن طريق ذلك عدد الأيام والشهور والأعوام ،
التي لا تستغفون عن معرفتها في شئون حياتكم ، وتعرفوا - أيضا - الحساب
المتعلق بها في معاملاتكم ، وبيعكم وشرائكم ، وأخذكم وعطائكم وصلاتكم ،
وصيامكم ، زكاتكم ، وحجكم ، وأعيادكم . . . وغير ذلك مما تتوقف معرفته
على تقلب الليل والنهار . ولولوج أحدهما في الآخر .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « وكل شيء فصلناه تفصيلا » .
والتفصيل : من الفصل بمعنى القطع . والمراد به هنا : الإبانة التامة للشيء
بحيث يظهر ظهورا لإخفاء معه ولا التباس .

ولفظ « كل » منصوب على الاشتغال بفعل يفسره ما بعده .

أى . وفصلنا كل شيء تحتاجون إليه في أمور دينكم ودنياكم ، تفصيلا . واضحا جليا ، لا خفا . معه ولا التباس ، فقد أفضنا هذا الـكون على التدبير المحكم ، وعلى الصنع المتقن ، وليس على المصادفات التى لا تخضع لنظام أو ترتيب .

ثم ساق - سبحانه - صورة من صور هذا التفصيل المحكم فى كل شيء . فقال - تعالى - : « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه . . »

والمراد بطائره : عمله الصادر عنه باختياره وكسبه ، حسبما قدره الله - تعالى - عليه من خير وشر .

أى : وألزمنا كل إنسان مكلف عمله الناتج عنه ، إلزاما لا فكاك له منه . ولا قدرة له على مفارقتها .

وعبر - سبحانه - عن عمل الانسان بطائره ، لأن العرب كانوا - كما يقول الألوسى - يتفاملون بالطير ، فإذا سافروا ومر بهم الطير زجروه ، فإن مر بهم سائحا - أى من جهة الشمال إلى اليمين - تيمنوا وتفاءلوا ، وإن مر بارحا ، أى : من جهة اليمين إلى الشمال تشاءموا ، فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر ، استعير إستعارة تصريحية ، لما يشبههما من قدر الله - تعالى - وعمل العبد ، لأنه سبب للخير والشر ، (١) .

وقوله - سبحانه - « فى عنقه » تصوير لشدة اللزوم وكال الارتباط بين الانسان وعمله .

وخص - سبحانه - العنق بالذكر من بين سائر الأعضاء ، لأن اللزوم فيه أشد ، ولأنه العضو الذى تارة يكون عليه ما يزينه كالقلادة وما يشبهها ، وتارة يكون فيه ما يشينه الغل والقيد أو ما يشبههما .

قال الامام ابن كثير : وطائره : هو ما طار عنه من عماء كما قال ابن عباس

ومجاهد ، وغير واحد - من خير أو شر ، يلزم به ويجازى عليه ؛ كما قال - تعالى - : « فن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره . » . وكما قال - تعالى - : « إنما نجزون ما كنتم تعملون » .

والمقصود أن عمل ابن آدم يحفظ عليه ، قليله وكثيره ؛ ويكتب عليه ليلا ونهارا ، صباحا ومساء ، ^(١) .

وقوله - سبحانه - : « ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، بيان لحاله في الآخرة بعد بيان حاله في الدنيا .

والمراد بالكتاب هنا صحائف أعماله التي سجلت عليه في الدنيا .

أى : ألزمنا كل إنسان مكلف عمله الصادر عنه في الدنيا ، وجعلناه مسئولاً عنه دون غيره . أما في الآخرة فسنخرج له ما عمله من خير أو شر وفي كتاب يلقاه منشورا ، أى ، مفتوحا بحيث يستطيع قراءته ، ومكشوفاً بحيث لا يملك له خفاء شيء منه ، أو تجاهله ، أو المغالطة فيه .

كتابا ظهرت فيه الحبايا والأسرار ظهورا يغنى عن الشهود والجدال .

كتابا مشتملا على كل صغيرة وكبيرة من الإنسان ، كما قال - تعالى - : « ونضع الميزان القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » ^(٢) .

ثم بين - سبحانه - ما يخاطب به الإنسان بعد أن فتح كتابه أمامه ، فقال - تعالى - : « اقرأ كتابك ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » .

أى : ويقال له بعد أن وجد كتابه منشورا أمامه ، اقرأ كتابك هذا ، وما اشتمل عليه من أعمال صدرت عنك في الدنيا ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا .

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٧

(٢) سورة الأنبياء الآية ٢٧

أى . محاسباً ، كجليس بمعنى مجالس ، أو حاسباً وعاداً كحريم بمعنى صارم يقال حسب فلان على فلان قوله ، إذا عده عليه .

ولفظ « كنى » هنا لازم ، ويترد في هذه الحالة جر فاعله بالباء المزيده لتوكيد الكفايه و « حسيباً » تمييز ، و « عليك » متعلق به

وقارة يأتي لفظ « كنى » متعدداً ، كما في قوله - تعالى - « وكفى الله المؤمنين القتال » ،

ثم ساق - سبحانه - قاعدة كلية ، لتحمل كل إنسان نتيجة عمله ، فقال - تعالى -
« من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى . »

والفعل « تزر » من الوزر بمعنى الإثم والحمل والثقل . يقال : وزر يزر وزراً ، أى : أثم ، أو حمل حملاً ثقيلاً ، ومنه سمي الوزير ؛ لأنه يحمل أعباء تدبير شؤون الدولة .

أى : من اهتدى إلى الطريق المستقيم ، وقدم في حياته العمل الصالح فثمرة هدايته راجعة إلى نفسه ، ومن ضل عن الطريق القويم ، وفسق عن أمر به فوبال ضلاله راجع إليه وحده ، ولا تحمل نفس آثمة ، لثم نفس أخرى ، وإنما تسأل كل نفس عن آثامها بحسب .

وقد تكرر هذا المعنى في كثير من آيات القرآن الكريم ومن ذلك قوله - تعالى - : « ولا تنكسب كل نفس إلا عليها » ، ولا تزر وازرة وزر أخرى . (١)

وقوله - تعالى - : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ، وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ، ولو كان ذا قربى . (٢)

(١) سورة الأنعام الآية ١٦٤

(٢) سورة فاطر الآية ١٨

ولا يتنافى هذا مع قوله - تعالى - : « وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم... » (١)

وقوله - تعالى - : « وليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم... » (٢)

لأن المقصود في هاتين الآيتين وأشباههما ، أن دعاة الكفر والفسوق والعصيان ، يحملون ذنوبهم يوم القيامة ، ويحملون فوق ذلك جانباً من ذنوب من كانوا هم سبباً في ضلالتهم ، لأن من سن سنة سيئة فعلية وزرها ، ووزر من عمل بها - كما جاء في الحديث الصحيح - ، فهم يحملون آثام أنفسهم ، والآثام التي كانوا سبباً في ارتكاب غيرها .

كذلك لا يتنافى بقوله - تعالى - : « ولا تزر وازرة وزر أخرى ، مع ما ثبت في الحديث الصحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما - من « أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه... »

لأن العلماء حملوا الحديث على أن يكون الميت قد أوصى بذلك قبل موته ، أو أن يحمل نكيرهم عن النوح عليه قبل موته ، مع أنه يعلم أنهم - ينوحون عليه ويشقون الجيوب ، ويلطمون الخدود... فتعذيبه بسبب تفریطه ، وعدم تنفيذه لقوله - تعالى - : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ، وقودها الناس والحجارة... » (٣)

وقوله - تعالى - : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله - تعالى - بعباده - ورأفته بهم - وكرمه معهم .

قال الألوسي : قوله : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، بيان للعناية

(١) سورة العنكبوت الآية ١٣

(٢) سورة النحل الآية ٢٥

(٣) سورة التحريم الآية ٦

الربانية لإثربيان آثار الهداية والضلالة بأصحابها ، وعدم حرمان المهتدى من ثمرات هدايته . وعدم مؤاخذة النفس بحماية غيرها .

أى : وما صح وما استقام منا ، بل استحال فى سفتنا المبينة على الحكم البالغة... أن نعذب أحدا بنوع ما من العذاب دفويا كان أو أخرويا ، على فعل شىء أو ترك شىء ، أصايا كان أو فرعا ، حتى نبعث إليه رسولا ، يهذى إلى الحق . ويردى عن الضلال ، ويقيم الحجج . وبمـد الشرائع . (١)

وقد وردت آيات كثيرة فى القرآن الكريم ؛ تشبه هذه الآية ، فى بيان أن الله - تعالى - لا يعذب أحدا من خلقه ، حتى يبعث إليه رسولا يبشره وينذره ، فبعصى ذلك الرسول ، ويستمر فى كفره وضلاله بعد التبشير والافتذار .

ومن هذه الآيات قوله - تعالى - ، رسلا مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزا حكيم ، (٢)

وقوله - تعالى - : ولو أنا أهلكنهم بعذاب من قبله ، لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آيتك من قبل أن نذل ونخزى ، (٣) .

وقوله - تعالى - ، يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ، أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير... ، (٤)

قال ابن كثير عند تفسيره لقوله - تعالى - : وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، : هذا لإخبار عن عدله - تعالى - ، وأنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام

(١) تفسير الألوسى ج ١٥ ص ٣٧

(٢) سورة النساء الآية ١٦٥

(٣) سورة طه الآية ١٣٤

(٤) سورة المائدة الآية ١٠

الحجة عليه ، بإرسال الرسول إليه ، كما قال - تعالى - : وكذا ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير . فالأولى بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا : ما نزل الله من شيء

إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على أن الله - تعالى - لا يدخل أحدا النار إلا بعد إرسال الرسول إليه (١)

هذا ، وما ذهب إليه الإمام ابن كثير ، والإمام الآلوسي ، من أن الله - تعالى - اقتضت رحمته وعدلته ، أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه . عن طريق إرسال الرسل ، هو الذي نعتقده ، وتطمئن إليه نفوسنا ، لأنه هو الظاهر من معاني الآيات الكريمة ، ولأنه هو المناسب لرحمة الله - تعالى - التي وسعت كل شيء .

وهناك من يرى أن من مات على الكفر فهو في النار ، ولو لم يرسل الله - تعالى - إليه رسولا ، واستدلوا بأدلة لا مجال لذكرها هنا (٢) .

ثم ساق - سبحانه - سنة من سنته في إهلاك الأمم ، وفي حال الذين يريدون العاجلة ، وحال الذين يريدون الآجلة ، فقال - تعالى - :

« وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧) مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعَاجِلَةَ جَعَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ، ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٥٠

(٢) راجع تفسير الآلوسي ج ١٥ ص ٣٧ . وتفسير أضواء البيان ج ٣

رَبِّكَ ، وما كَانَ عطاءُ رَبِّكَ مُحْظُوراً (٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١) لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً (٢٢) .

قال أبو حيان - رحمه الله - : لما ذكر - تعالى - في الآية السابقة ، أنه لا يعذب أعداء حتى يبعث إليه رسولا ، بين بعد ذلك علة إهلاكهم ، وهي مخالفة أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، والتأدي على الفساد - فقال ، سبحانه - : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها... » (١)

وقوله - سبحانه - « أمرنا » من الأمر الذي هو ضد النهي ، والمأمور به هو الإيمان والعمل الصالح ، والشكر لله رب العالمين ، وحذف لظهوره والعلم به .

وقوله « مترفيها » جمع مترف ، وهو المتنعم الذي لا يمنع من تنعمه ، بل يترك يفعل ما يشاء . يقال : ترف فلان - كهرج - أي : تنعم ، وفلان أثرفته النعمة ، أي : أطعته وأبطرته لأنه لم يستعملها في وجوبها المشروعة .

والمراد بهم . أصحاب الجساه والغنى والسلطان ، الذين أحاطت بهم التعم من كل جانب ، ولكنهم استعملوها في الفسوق والمصيان ، لا في الخير والإحسان .

والمعنى : وإذا قرب وقت إرادتنا إهلاك أهل قرية ، أمرنا مترفيها ، وأهل الغنى والسلطان فيها بالإيمان والعمل الصالح ، والمداومة على خاعتنا وشكرنا ، فلم يستجيبوا لأمرنا ، بل فسقوا فيها ، وعاثوا في الأرض فسادا : وهذا الأمر إنما هو على لسان الرسول المبعوث إلى أهل تلك القرية ،

وعلى السنة المصالحين المتبعين لهذا الرسول والأمين بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقال - سبحانه - : وإذا أردنا أن نهلك قرية . . . ، مع أن الهلاك لأهلها ، للإشارة إلى أن هذا الهلاك لن يصيب أهلها فقط ، بل سيصيبهم ويصيب معهم مساكنهم وأموالهم وكل ما احتوته تلك القرية ، بحيث تصير هي وسكانها أثرا بعد عين .

وخص مآثرها بالذكر مع أن الأمر بالطاعة للجميع ، لأن هؤلاء المترفين هم الأئمة وقادة ، فإذا ما استجابوا للأمر لاستجاب غيرهم تبعاً لهم في معظم الأحيان ، ولأنهم في أعم الأحوال هم الأسرع إلى ارتكاب ما نهى الله عنه ، وإلى الانغماس في المتع والشهوات . . .

والحكمة من هذا الأمر ، هو الإعذار والإفذار ، والتخويف والوعيد ، كما قال - تعالى - : « رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . . » (١) .

وهذا التفسير للآية الكريمة ، سار عليه جمهور المفسرين .

ولصاحب الكشف رأى يخالف ذلك ، فهو يرى أن الأمر في الآية الكريمة مجاز عن إمدادهم بالنعم الكثيرة التي أبطرتهم .

قال - رحمه الله - : قوله تعالى - : « وإذا أردنا ، وإذا دنا وقت إهلاك قوم ، ولم يبق من زمان إيمانهم إلا قليل أمرناهم ، ففسقوا ، أي : أمرناهم بالفسق ففعلوا .

والأمر مجاز لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم : افسقوا ، وهذا لا يسكون ، فبقي أن يكون مجازاً . ووجه المجاز أنه صلب عليهم النعمة صلباً ، فجعلوها ذريعة إلى المعاصي واتباع الشهوات ، فكانهم مأمورون بذلك لتسبب

لإزالة النعمة فيه ، وإنما خولهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير ، ويتمكنوا من الإحسان والبر . كما خلقهم أصحاب أقراب ، وأقدرهم على الخير والشر ، وطلب منهم لإثبات الطاعة ، على المعصية ، فأثروا الفسوق ، فلبت فسقوا حق عليهم القول ، هو كلفة العذاب فدمرهم . . . (١)

ومن المفسرين من يرى أن قوله تعالى - « أمرنا » بمعنى كثرنا - بتشديد الثاء - وقرئ - « أمرنا » بتشديد الميم ، أي : كثرنا متفرقها وجعلناهم أمراء مسلمطين . . .

ولكن هذه القراءة - وقرأة - « أمرنا » بمعنى كثرنا ، أيضا - ليست من القراءات السبعة أو العشرة ، وإنما هما من القراءات الشاذة

قال الإمام ابن جرير : وأولى القراءات في ذلك عندي بالصواب - قراءة من قرأ « أمرنا » - بقصر الألف وتخفيف الميم - لإجماع الحجة من القراءة بتصويبها دون غيرها وإذا كان ذلك هو الأولى بالصواب بالقراءة ، فأولى التأويلات به تأويل من تأوله : أمرنا أهلها بالطاعة نعضوا وفقد قواؤها . لحق عليهم القول ، لأن الأغلب من معنى « أمرنا » : الأمر الذي هو خلاف النهي دون غيره ،

وتوجيه معاني كلام الله - جل ثناؤه - إلى الأشهر الأعراف من معانيه ، أولى ما وجد لإيمه سبيل من غيره . . . (٢)

ويبدو لنا أن الرأي الأول الذي سار عليه جمهور المفسرين ، وعلى رأسهم الإمام ابن جرير ، أولى بالقبول ، لأسباب منها :

أن القرآن الكريم يؤيده في كثير من آياته ، ومن ذلك قوله - تعالى - « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها » ، قبل إن الله لا يأمر بالفحشاء . . . (٣)

(١) تفسير الكشاف - ٢ ص ٤٤٢

(٢) تفسير ابن جرير - ٥ ص ٤٣

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٨

قوله - تعالى - : قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، دليل واضح على أن قوله - سبحانه - : : أمرنا مترفيا ففسقوا فيها . . . ، معناه : أمرناهم بالطاعة ففسقوا ، وليس معناه : أمرناهم بالفسق ففسقوا . لأنه - سبحانه - لا يأمر لا بالفسق ولا بالفحشاء .

ومنها : أن الأسلوب العربي السليم يؤيده ، لأنك إذا قلت : أمرته فعصاني كان المعنى "تبادر والظاهر من هذه الجملة : أمرته بالطاعة فعصاني ، وليس معناه . أمرته بالعصيان فعصاني :

ومنها : أن حمل الكلام على الحقيقة - كما سار جمهور المفسرين - أولى من حمله على المجاز - كما ذهب صاحب الكشف - .

وقوله - سبحانه - : : دقق عليها القول فدمرناها تدميرا ، بيان لما نزل بهذه القرية وأهلها من عذاب محاسن من الوجود ، إذ التوحيد هو الإهلاك مع طمس الأثر ، وهدم البناء .

أي : : أمرنا عترفيا بطاعتنا وشكرنا ، فعصوا أمرنا وفسقوا فيها ، ففتيت وتحقق عليها عذابنا ، فأهلكناها إهلاكاً استأصل شأفتها ، وأزال آثارها .

وأكد - سبحانه - فعل التدمير بمصدره ، للمبالغة في إبراز شدة الإهلاك الواقع على تلك القرية الظالم أهلها .

قال الآلوسی ما ملخصه : والآية تدل على إهلاك أهل القرية على أتم وجه ، وإهلاك جميعهم ، لصدور الفسق منهم جميعا ، فإن غير المترف يتبع المترف عادة . . .

وقيل : هلاك الجميع لا يتوقف على التبعية فقد قال - تعالى - : : واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة

وقد صح عن أم المؤمنين زينب بنت جحش أنها قالت : قلت ، يا رسول الله ، أهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم ، إذا أضر الخبيث ، (١) .

ثم بين - سبحانه - أن هذه القرية لم تكن بدعا في نزول العذاب بها ، بل هناك قرى كثيرة عنت عن أمر ربها فأخذها - سبحانه - أخذ عزيز مقتدر ، فقال - تعالى - : **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ**

وذكر ، هنا خبرية أى : أن معناها الإخبار عن عدد كثير . وهى فى محل نصب مفعول به الجملة **وَأَهْلَكْنَا** ، و **وَمِنْ** ، فى قوله - تعالى - **وَمِنْ الْقُرُونِ** ، بيان للفظ **وَمِنْ** ، وتمييز له كما يميز العدد بالجنس . ولما ، من ، فى قوله - تعالى - **وَمِنْ بَعْدِ نُوحٍ** ، فهى لا ابتداء للغاية .

والقرون : جمع قرن ، ويطلق على القوم المقتربين فى زمان واحد . والمشهور أن مدته مائة سنة .

أى أن هذه القرية المدمرة بسبب فسوق أهلها ، وعصيتهم لأمرنا . ليست هى القرية الوحيدة التى نزل بها عذابنا ، بل إننا قد **أَهْلَكْنَا** كثيرا من القرى من بعد من نوح - عليه السلام - كقوم عاد وثمود وغيرهم من استجبوا العمى على الهدى وآثروا الكفر على الإيمان والفى على الرشد .

وخص نوح - عليه السلام - بالذكر . لأنه أوى رسول كذبه قومه وآذوه وسخروا منه . . . فأهلكهم الله - تعالى - بالطوفان .

قال ابن كثير : ودل هذا على أن القرون التى كانت بين آدم ونوح على الإسلام ، كما قاله ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ، (٢) .

(١) تفسير الألوسى ج ١ ص ٤٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٥٩ .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالتهديد الشديد لمن يخالف أمره فقال - تعالى - : « وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً » .

أى : وكفى بربك - أيها الرسول الكريم - لإحاطة وإطلاعا وعلماً بما يقدمه الناس من خير أو شر ، فإنه - سبحانه - يعلم السر وأخفى .

والآية الكريمة بجانب أنها تسمية للرسول - صلى الله عليه وسلم - فهي أيضاً تهديد للمشركين ، وإفناد لهم بأنهم إذا ما استمروا على كفرهم ، ومعاداتهم للحق ، وتطاولهم على من جاء به وهو الرسول - صلى الله عليه وسلم - فسيكونون محلاً لغضب الله - تعالى - وسخطه ، ولنزول عذابه الذي أهلك به أمثالهم في الشرك والكفر والجحود .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : « أفلم يسيروا في الأرض فيمضوا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها » (١) .

وقوله - تعالى - : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » (٢) .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مصير الذين يؤثرون العاجلة على الآجلة ، فقال - تعالى - : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد » . . .

والمراد بالعاجلة : دار الدنيا ، وهي صفة لموصوف محذوف أى : الدار العاجلة التي ينتهى كل شئ فيها بسرعة وعجلة .

أى : من كان يريد بقوله وعمله وسعيه ، زينة الدار العاجلة وشهواتها فحسب ، دون التفات إلى ثواب الدار الآخرة ، « عجلنا له فيها ، أى : عجلنا لذلك الإنسان في هذه الدنيا ، ما نشاء ، تعجيله له من زيتها ومتعها . . .

(١) سورة محمد الآية ١٠ .

(٢) سورة ق الآية ١٦ .

وهذا العطاء العاجل المقيد بمشيئتنا ليس اسكل الناس، وإنما هو «لمن نريد»
عطاءه منهم، بمقتضى حكمتنا وإرادتنا.

فأنت ترى أنه - سبحانه - قد قيد العطاء لمن يريد العاجلة بمشيئته وإرادته.
ورحم الله صاحب الكشف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية: «من
كانت العاجلة همه، ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة، تفضلنا عليه
من منافعها بما فشاء لمن نريد. ففيد الأمر تقيدين: أحدهما: تقييد المعجل
بمشيئته، والثاني: تقييد المعجل بإرادته.

وهكذا الحال، نرى كثيرا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون
إلا بعضا منه، وكثيرا منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرّموا فاجتمع عليهم
فقر الدنيا وفقر الآخرة. وأما المؤمن التقى فقد اختار مراده، وهو غنى
الآخرة فما يبالي أوتي حظا من الدنيا أو لم يوت. فإن أوتي فيها، وإن لم يوت
فربما كان الفقر خيرا له، وأعون على مراده.

وقوله «لمن نريد» يدل من دله، وهو - وبذلك البعض من الكل، لأن
الضمير يرجع إلى «من»، وهو في معنى الكثرة^(١) ومفعول نريد محذوف.
أى: لمن نريد عطاءه.

وقوله: «ثم جعلنا له جهم بصلاها مذموما مدحورا» بيان أسوء مصير
هذا المرید للعاجلة في الآخرة.

ود بصلاها، أى: يلقى فيها ويدوق حرها وسعيرها: يقال: صليت
الشاة: شويتها. وصلى فلان بالنار - من باب تعب - إذا وجد حرها.
ود مذموما، من الذم الذى هو ضد المدح.

ود مدحورا، من الدحور بمعنى الطرد واللعن. يقال: دحره دحرا
ودحورا، إذا طرده وأبعده.

أى : من كان يريد بسعيه الدنيا وزينتها أعطيناها منها ما يشاء إعطاءه له ، أما في الآخرة فقد جعلنا له جهنم يدخلها ، ويصلى حرها ولهبها ، حالة كونه « مذموما ، أى : مبعوضا بسبب سوء صنيعه » ، « مدحورا ، أى : مطرودا » ، وبعدا من رحمة الله - تعالى - .

قال الإمام الرازى ماملخصه : وفي لفظ هذه الآية فوائد : منها : أن العقاب عبارة عن مضرة مقرونة بالإهانة والذم ، بشرط أن تكون دائمة وخالية عن شوب المنفعة . فقولنا : « ثم جعلنا لهم جهنم يصلوها » ، إشارة إلى المضرة العظيمة . وقوله « مذموما » ، إشارة إلى الإهانة والذم . وقوله « مدحورا » ، إشارة إلى البعد والطرده عن رحمة الله - تعالى - .

وهي تفيد كون تلك المضرة خالية عن شوب النفع والرحمة ، وتفيد كونها دائمة وخالية عن التبديل بالراحة والخلاص (١) .

وقوله - سبحانه - « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكورا » ، بيان لحسن عاقبة المؤمنين الصادقين بعد بيان سوء عاقبة المؤمنين المتبعين الدنيا وشهواتها .

أى : ومن أراد بقوله وعمله ثواب الدار الآخرة ، وما فيها من عطاء غير مقطوع ، وسعى لهذه الدار سعيها الذى يوصله إلى سرور الله - تعالى - حالة كونه مؤمنا بالله - تعالى - وبكل ما يجب الإيمان به ، « فأولئك » ، الذى فعلوا ذلك ، « كان سعيهم » ، للدار الآخرة سعيا « مشكورا » : من الله - تعالى - ، حيث قبله - سبحانه - منهم ، وبكافئهم عليه بما يستحقون من ثواب لا يعلم مقداره إلا هو - سبحانه - وعبر - عز وجل بالسعى عن أعمالهم الصالحة ، للإشعار بجدهم وحرصهم على أداء ما يرضيه - تعالى - بدون إبطاء أو تأخير ، إذ السعى يطلق على المشى الذى تصاحبه السرعة .

قال بعض العلماء ما ملخصه : وفي الآية الدليل الواضح على أن الأعمال الصالحة لا تنفع إلا مع الإيمان بالله - تعالى - لأن الكافر سيئة لا تنفع معها حسنة .

ولذا قال - سبحانه - « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ... » .

وقد أوضح - سبحانه - هذا في آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحبيته حياة طيبة ... » .
ومفهوم هذه الآية وأمثالها ، أن غير المؤمن إذا قدم عملاً صالحاً في الدنيا لا ينفعه في الآخرة لفقد شرط الإيمان ، قال - تعالى - : « وتذنبوا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً » .

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطي بها في الدنيا ، ويجزي بها في الآخرة . وأما الكافر فيقطعهم بحسناته . لا عمل بها لله في الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزي بها ، (١) » .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على كمال قدرته ، وسعة عطائه . فقال : « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان ربك بمحظوراً ، ولفظ كلاً هنا : مفعول به للفعل نمد ، والتعديين عوض عن المضاعف إليه . أى : نمد كل واحد من الفريقين » .

وقوله ، نمد ، من الإمداد بمعنى الزيادة . يقال : أمد القائد الجيش بالجند ، إذا زاده وقواه .

والمراد باسم الإشارة الأول هؤلاء : المؤمنون للعاجلة ، والمراد بالثاني الراغبون في ثواب الآخرة .

(١) تفسير أضواء البيان ج ٢ ص ٤٨ ، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي .

والمعنى : كلا من الفريقين تمده من فضلنا وإحساننا . فمنع على ما تريد إعطاه .
لمن يريد العاجلة ولمن يريد الآجلة ، دون أن ينقص مما عندنا شيء ، ودون
أن يخرج عن مشيئتنا شيء .

وما كان عطا ربك ، أيها الرسول الكريم ، محظورا ، أى : ممنوعا
لاعن المؤمن ولا عن الكافر ، ولا في الدنيا ولا في الآخرة .

من الحظر بمعنى المنع يقال : حظره يحظره - من باب قتل - فهو محظور ،
أى : ممنوع .

ثم أسر - سبحانه - عباده بالنظر والتأمل في أحوال خلقه ، ليزدادوا
عظة وعبرة ، فقال : « أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر
درجات وأكبر تفضيلا » .

أى : أنظر - أيها العاقل - نظر تأمل وتدبر وأعتبار في أحوال الناس ،
لترى عن طريق المشاهدة كيف فضل الله - تعالى - بعض الناس على بعض في
هذه الحياة ، فهذا غني وذاك فقير ، وهذا قوى وذاك ضعيف ، وهذا ذكى
وذاك خامل ، وهذا مالك وذاك مملوك ...

إلى غير ذلك من الأحوال التى تدل على تفاوت الناس في هذه الدنيا ،
على حسب ما تقتضيه إرادة الله - تعالى - وحكمته ، ومشيئته .

أما في الآخرة فالناس فيها أكبر تفاضلا وتفاوتا في الدرجات والمنازل ،
كما كانوا عليه في الدنيا .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : وقرله وللآخرة
أكبر درجات وأكبر تفضيلا ، أى : ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من
الدنيا ، فإن منهم من يكون في الدرجات في جهنم وسلاسلها وأغلالها ، ومنهم
من يكون في الدرجات العلا ونعيمها وسرورها . ثم أهل الدرجات يتفاوتون
فيها هم فيه ، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون ؛ فإن في الجنة مائة درجة ما بين

كل درجتين كما بين السماء والأرض . وفي الصحيحين : « إن أهل الدرجات
العلا ليرون أهل عليين ، كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء » (١) .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقنا لنا سنة من سنن الله - تعالى - في
إهلاك الأمم ، وأنه - تعالى - ما أهلكها إلا بعد أن عنت عن أمره ، وعصت
رسله كما أنها بينت لنا سوء عاقبة الذين يؤثرون متع الدنيا على دعة الله
- تعالى - ، وحسن عاقبة الذين يريدون الآخرة وما فيها من ثواب جزيل ،
وأن الفريقين لا ينالون بما يطلبونه إلا ما قدره الله - تعالى - لهم ، وأن عطاءه
للناس جميعا لا ينقص مما عنده شيئا ، وأن حكمته - سبحانه - قد اقتضت
تفضيل بعض الناس على بعض في الدنيا والآخرة ، وصدق - عز وجل -
حيث يقول : « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات
وأكبر تفضيلا » .

ثم ساق - سبحانه - بضع عشرة آية ، تناولت مجموعة من التكاليف تزيد
على عشرين أمرا ونهيا .

وهذه التكاليف قد افتتحت بالنهاى عن الإشراف بالله - تعالى - ، وبالأمور
بالإحسان إلى الوالدين . قال - تعالى - :

« وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا
يَنْفَقَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ، فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَوْ لَا تَنْهَرْهُمَا
وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَقُلْ
رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَّانِي صَغِيرًا (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِنَّ
إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ ، فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُزُورًا (٢٥) » .

قال الإمام الرازي ما ملخصه : بعد أن بين - سبحانه - أن الناس فريقان : فريق يريد بعمله الدنيا فقط ، وفريق يريد بعمله طاعة الله ، ثم شرط ذلك بشرائط ثلاثة : أولها : إرادة الآخرة ، وثانيها : أن يسعى سعياً موافقاً للطلب الآخرة ، وثالثها : أن يكون مؤمناً .

لا جرم فصل في هذه الآيات تلك الجملات : فبدأ أولاً بشرح حقيقة الإيمان ... ثم ذكر عقبه سائر الأعمال ... (١) .
والخطاب في قوله - تعالى - « لا تجعل ... » لسل من يصلح له .

والقعود في قوله « فتقعد ... » قيل بمعنى المسك : كما يقول القائل : فلان قاعد في أسوأ حال ، أي : ما كنت في أسوأ حال سواء أكان قاعداً أم غير قاعد . وقيل بمعنى العجز ، لأن العرب تقول : فلان ما أقعده عن المسكارم ، أي : ما أعجزه عنها ، وقيل هو بمعنى الصيرورة ، من قوطم : فلان شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة ، أي صارت .

والذي نطمئن إليه النفس أن القعود على حقيقة ، لأن من شأن المذموم المخدول أن يقعد حائراً نادماً على ما فرط منه .

وقوله - سبحانه - : « مخدولاً » من الخذلان ، وهو « ترك النصرة منه » الحاجة إليها .

يقال : خذل فلان صديقه ، أي : امتنع عن نصرته وعونه مع حاجته المتعددة إليهما .

والمعنى : لا تجعل - أيها المخاطب - مع الله - تعالى - إلهاً في عبادتك أو خضوعك ، فتقعد جامعاً على نفسك مصيبتين :

مصيبة الذم من الله - تعالى - ومن أوليائه ، لأنك تركت عبادته من له الخلق والأمر ، وعبدت ما لا يملك لنفسه نفعا ولا ضراً ،

ومصيبة الخذلان، بحيث لا تجد من يعينك أو ينصرك، في ساعة أنت أحوج ما تكون فيها إلى العون والنصر .

وجاء الخطاب في قوله - تعالى - « لا تجعل ، عاما ، لكى يشعر كل فرد يصلح للخطاب أن هذا النهى موجه إليه ، وصادر إلى شخصه لأن سلامة الاعتقاد مسألة شخصية ، مسئول عنها كل فرد بذاته ، وسيتحمل وحده تبعه انحرافه عن طريق الحق » يوم لا ينفع مال ولا بنون - إلا من أتى الله بقلب سليم . .

وقوله « فتعبد ، منصوب لأنه وقع بعد الفاء - جوابا للنهى . وقوله « مذموما مخذولا ، حالان من الفاعل .

وفي هذا الجملة الكريمة تصوير بديع لحال الإنسان المشرك ، وقد حط به التذم والخذلان ، ففقد مهموما مستكينا عاجزا عن تحصيل الخيرات ، وعن السعى في تحصيلها .

قال الألوسى : وفي الآية الكريمة إشعار بأن الموحد جامع بين الملدح والنصرة ،^(١) :

وبعد أن ذكر - سبحانه - الأساس في قبول الأعمال ، وهو إخلاص العبادة له - عز وجل - وحده : أتبع ذلك بتأكيد هذا الأساس بما هو من شرائط الإيمان الحق وشعائره ، فقال - تعالى - « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا لىاده ، وبالوالدين إحسانا »

قال القرطبي ما ملخصه : « قضى ، أى : أمر والأزم وأوجب . . . والقضاء يستعمل في اللغة على وجوه ، فالقضاء بمعنى الأمر ، كما في هذه الآية ، والقضاء بمعنى الامتناع ، كقوله « نقضاهن سبع سموات في يومين » ، بمعنى خلقهن ، والقضاء بمعنى الحكم ، كقوله - تعالى - « فاقض ما أنت قاض » ، بمعنى :

احكم ما أنت تحكم . والقضاء بمعنى الفراغ من الشيء ، كقوله ، قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ، أى فرغ منه .
والقضاء بمعنى الإرادة ، كقوله - تعالى - ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . . . ، (١) .

والمعنى : لقد نهى ربك عن الإشراف به نهياً قاطعاً ، وأمر أمراً محكمًا لا يحتتمل النسخ ، بأن لا تعبدوا أحداً سواه ، إذ هو الخالق لكل شيء ، والقادر على كل شيء ، وغيره مخلوق وعاجز عن فعل شيء إلا بإذنه - سبحانه - .
فالجملة الكريمة أمر لازم لإخلاص العباد لله ، بعد النهى عن الإشراف به فى قوله - تعالى - ، لا تجعل مع الله إلهاً آخر . . . ،

وقد جاء هذا الأمر بلفظ « قضى » زيادة فى التأكيد ، لأن هذا اللفظ هنا يفيد الوجوب القطعى الذى لا رجعة فيه ، كما أن اشتغال الجملة الكريمة على النفي والاستثناء - وهما أعلا مراتب القصر - يزيد هذا الأمر تأكيداً وتوثيقاً .

ثم اتبع - سبحانه - الأمر بوحدايته ، بالأمر بالإحسان إلى الوالدين فقال : « وبالوالدين إحساناً . . . » .

أى : وقضى - أيضاً - بأن نحسنوا - أيها المخاطبون - إلى الوالدين إحساناً كاملاً لا يشوبه سوء أو مكروه .

وقد جاء الأمر بالإحسان إلى الوالدين عقب الأمر بوجوب إخلاص العباد لله . فى آيات كثيرة . منها قوله - تعالى - : « قل تعالوا آتوا محرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً . . . » (٢) .

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٢٧ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٥١ .

وقوله - تعالى - « وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا ... » (١) ،

ولعل السر في ذلك هو الإشعار للمخاطبين بأهمية هذا الأمر المقتضى لوجوب الإحسان إلى الوالدين ، حيث إنهما هما السبب المباشر لوجود الإنسان في هذه الحياة ، وهما اللذان لقيا ما لقيا من متاعب من أجل راحة أولادهما ، فيجب أن يقابل ما فعلاه بالشكر والاعتراف بالجميل .

قال بعض العلماء : وقد جاءت هذه الوصية بأسلوب الأمر بالواجب المطلوب ، وهو الإحسان إلى الوالدين ، ولم تذكر بأسلوب النهي سموا بالإنسان عن أن تظن به الإساءة إلى الوالدين ، وكأن الإساءة إليهما ، ليس من شأنها أن تقع منه حتى يحتاج إلى النهي عنها ، ... » (٢) .

ثم فصل - سبحانه - مظاهر هذا الإحسان فقال : « لما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما ... » .

و « لما » حرف مر كب من « إن » الشرطية ، ومن « ما » المزيدة عليها للتأكيد ، وقوله : « أحدهما » فاعل . يبلغن . . . وقرأ حمزة والكسائي « لما يبلغان » ، فيكون قوله « أحدهما » بدل من ألف الاثنين في « يبلغان » .

وقوله « فلا تقل لهما أف » جواب الشرط .

قال الآلوسی : و « وأف » اسم صوت ينبىء عن التضجر ، أو اسم فعل مضارع هو أنضجر

(١) سورة البقرة الآية ٨٣ .

(٢) تفسير القرآن الكريم ص ٤٣٤ لفضيلة الامام الأكبر الشيخ محمود

شلتوت - رحمه الله - .

وفيه نحو من أربعين لغة . والوارد من ذلك في القراءات سبع . ثلاث متواترة ، وأربعة شاذة .

فقرأ نافع وحفص بالكسر والتنوين ، وهو للتشكيل ، فالمعنى : فلا تقل أتضجر تضجرا ما .

وقرأ ابن كثير وابن عامر بالفتح دون تنوين . والباقون بالكسر بدون تنوين ... (١) .

وقوله « ولا تنهرهما » من النهر بمعنى الزجر ، يقال نهر فلان فلانا إذا زجره بغلظه .

والمعنى : كن - أيها المخاطب - محسناً إحساناً تاماً بأبويك ، فإذا ما بلغ « عندك » أي : في رعايتك وكما لك « أحدهما أو كلاهما » سن « الكبير » والضعف « فلا تقل لهما » أف « أي : قولاً يدل على التضجر منهما والاستثقال لأي تصرف من تصرفاتهما .

قال البيضاوي : والنهي عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء قياساً بطريق الأولى ، وقيل عفاك قولك : فلان لا يملك النكير والتقطير - فإن هذا القول يدل على أنه لا يملك شيئاً قليلاً أو كثيراً - (٢) .

وقوله « ولا تنهرهما » أي : ولا تزجرهما عما يتعاطياناه من الأفعال التي لا نحبها ،

فالمراد من النهي الأول : المنع من إظهار التضجر منهما مطلقاً . والمراد من النهي الثاني : المنع من إظهار المخالفة لهما على سبيل الرد والتكذيب والتعليق في القول .

والتعبير بقوله : « عندك » يشير إلى أن الوالدين قد صارا في كنف

(١) تفسير الألوسي ج ١٥ ص ٥٥ .

(٢) تفسير البيضاوي ج ١ ص ٥٨٢ .

الإبن ونحو رعايته ، بعد أن بلغ أشده واستوى ، وبعد أن أصبح مستولاً
عنهما ، بعد أن كانا هما مسئولين عنه .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : معنى « عندك » ، قلت هو أن يكبر
ويعجزا ، وكانا كلا على ولدهما لا كافل لهما غيره ، فهما عنده في بيته وكنفه ،
وذلك أشق عليه وأشد احتمالا وصبرا ، وربما تولى منهما ما كانا يتوليانه منه
في حالة الطفولة فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطأة الخلق ، ولين الجانب ،
حتى لا يقول لهما إذا أضجره ما يستقدر منهما ، أو يستثقل من مؤنهما : أف ،
فضلا عما يزيد عليه . . . ، (١)

والتقييد بحالة الكبر في قوله - تعالى - « لما يبلغن عندك الكبر » جرى
مجرى الغالب ، إذ أنهما يحتاجان إلى الرعاية في حالة الكبر ، أكثر من احتياجهما
إلى ذلك في حالة قوتهما وشبابهما ، وإلا فالإحسان إليهما ، والعناية بشأنهما .
واجب على الأبناء سواء أكان الآباء في سن الكبر أم في سن الشباب أم في
غيرهما .

وقوله - سبحانه - : « وقل لهما قولا كريما » ، أمر بالمكلام الطيب معهما ،
بعد النهي عن الكلام الذي يدل على الضجر والقلق من فعلهما .

أي : وقل لهما بدل التأنيف والرجز ، قولا كريما حسنا ، يقتضيه حسن
الآداب معهما ، والاحترام لهما ، والعطف عليهما .

وقوله ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة . . . ، زيادة في تبجيلهما
والتلطف بهما في القول والفعل ، والمعاملة على اختلاف ألوانها .

أي : وبجانب القول الكريم الذي يجب أن تقوله لهما ، عليك أن تكون
متواضعا معهما ، متلطفا في معاشرتهم ، لاترفع فيهما عينا ، ولا ترفض لهما
قولا ، مع الرحمة التامة بهما ، والشفقة التي لانهاية لهما عليهما .

قال الإمام الرازي ماملخصه : ر قوله ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، المقصود منه المبالغة في التواضع .

وذكر القفال في تقريره وجهين : الأول : أن الطائر إذا أراد صمفره له إليه للتربية خفض له جناحه ، ولهذا السبب صار خفض الجناح كناية عن حسر التربية . فكأنه قال للولد : اكفل والدبك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلنا ذلك بك في حال صغرك .

والثاني : أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه ، وإذا أراد ترك الطيران وترك الارتفاع خفض جناحه . فصار خفض الجناح كناية عن التواضع (١) .

وإضافة الجناح إلى الذل إضافة بيمانية ، أي : اخفض لهما جناحك الذليل و د من ، في قوله د من الرحمة ، ابتدائية . أي تواضع لهما تواضعا ناشئا من غرط رحمتك عليهما .

قال الألوسي : وإنما احتاجا إلى ذلك ، لافتقارهما إلى من كان أفقر الخلق إليهما ، واحتياج الممرء إلى من كان محتاجا إليه أدعى إلى الرحمة ، كما قال الشاعر :

يامن أنى يسألني عن فاقتي ما حال من يسأل من سائله ؟
مأذلة السلطان إلا إذا أصبح محتاجا إلى عامله

وقوله د وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ، تذكير للإنسان بحال ضعفه وطفولته ، وحاجته إلى الرعاية والحنان .

أي : وقل في الدعاء لهما : يارب ارحمهما برحمتك الواسعة ، واشملهما بمغفرتك الغامرة ، جزاء ما بذلا من رعاية لي في صغري ، فأنت القادر على مشرتهم ومكافأتهما .

قال الجمل : والسكاف في قوله ، كما ريباني . . ، فيها قولان : أحدهما أنها نعت لمصدر محذوف .

أى : ارحمهما رحمة مثل رحمتيها لى والثانى أنها للتعليل . أى : ارحمهما لأجل تربيتيها لى ، كما في قوله ، واذكروه كما هذاكم ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات التى سمعت بمنزلة الوالدين ، بما يدل على كمال علمه ، وعلى التحذير من عقابه ، فقال - تعالى - : : ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا . . .

والأوابون : جمع أواب . وهو الكثير الذوبة والتوبة والرجوع إلى الله - تعالى - يقال : آب فلان يشوب إذا رجع

قال ابن جرير بعد أن ساق الأقوال فى ذلك : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب ، قول من قال : الأواب هو التائب من الذنب ، الراجع عن معصية الله إلى طاعته ، ونما يكرهه إلى ما يرضاه ؛ لأن الأواب إنما هو فعال من قول القائل : آب فلان من سفره إلى منزله ، كما قال الشاعر :

وكل ذى غيبة يشوب وغائب الموت لا يؤوب (٢)

أى : ربكم - أيها الناس - أعلم بما فى نفوسكم ، وضما نركم ، سواء أكان خيرا أو شرا ، وسواء أكنتم تضمررون البر بآبائكم أم تخفون الإساءة إليهم ، ومع ذلك فإنكم إن تكونوا صالحين ، أى : قاصدين الصلاح والبر بهما ، والرجوع عما فرط منكم فى حقهما أو فى حق غيرهما ، فإنه - تعالى - يقبل توبتكم ، فإنه - سبحانه - فضله وكرمه كان للأوابين ، أى الرجاعين إليه بالتوبة مما فرط منهم ، غفورا لذنوبهم .

فآلية الكريمة وعيد لمن تهاون فى حقوق أبويه ، وفى كل حق أوجبه الله عليه ، ووعد لمن رجع إليه - سبحانه - بالتوبة الصادقة .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٦٢٢ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١٥ ص ٥٢ .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أمرت بالإحسان إلى الوالدين، بأسلوب يستجيش عواطف البر والرحمة في قلوب الأبناء ، ويبعثهم على احترامهما ورعايتهما والتواضع لهما ، وتحذيرهم من الإساءة ليهما ، ويفتح باب التوبة أمام من قصر في حقهما أو حق غيرهما .

وقد كرر القرآن هذا الأمر للأبناء بالإحسان إلى الآباء ، ولم يفعل ذلك مع الآباء .

وذلك لأن الحياة - كما يقول بعض العلماء - وهي مدفوعة في طريقها بالأحياء ، توجه اهتمامهم القوى إلى الأمام . إلى الذرية . إلى الناشئة الجديدة . إلى الجيل المقبل . وقلما توجه اهتمامهم إلى الوراء . إلى الأبوة . إلى الحياة المارلية . إلى الجيل الناهب .

ومن ثم تحتاج النبوة إلى استجاشة وجدانها بقوة لتنعطف إلى الخلف ، وتتلف إلى الآباء والأمهات .

إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد . إلى التضحية بكل شيء حتى بالذات ، وكما تمتص الغائبة الخضراء كل غذاء في الحبة فإذا هي فئات ، ويمتص الفرخ كل غذاء في البيضة فإذا هي قشر ، كذلك يمتص الأولاد ، كل رحيق ، وكل عافية ، وكل جهد ، وكل اهتمام من الوالدين ، فإذا هما شيخوخة فانية - إن أمهلهما الأجل - وهما مع ذلك سعيدان .

فأما الأولاد فسرعان ما يندسون هذا كله ويندفعون بدورهم إلى الأمام . إلى الزوجات والذرية .. وهكذا تندفع الحياة .

ومن ثم لا يحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء . إنما يحتاج هؤلاء إلى استجاشة وجدانهم بقوة ، لينذكروا واجب الجيل الذي أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف .

وهذا يحى الأمر بالإحسان إلى الوالدين ، في صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد ، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله ، (١) .

هذا ، وقد ساق المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات ، كثيرا من الأحاديث والآثار التي ترجع الأبناء إلى رعاية الآباء ، واحترامهم ، والعطف عليهم ، والرحمة بهم ، والاهتمام بشؤونهم .

قال الإمام ابن كثير : وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة ، منها الحديث المروي عن طريق عن أنس وغيره : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما صعد المنبر قال : آمين . آمين . آمين .

فقالوا : يا رسول الله ، علام أمنت ؟ قال : أفتاني جبريل فقال : يا محمد ، رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصل عليك ، فقل : آمين . ثم قال : رغم أنف امرئ دخل عليه شهر رمضان ثم خرج ولم يغفر له ، قل : آمين . فقلت : آمين . ثم قال : رغم أنف امرئ أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخله الجنة . قل آمين فقلت آمين .

وعن مالك بن ربيعة الساعدي قال : بينما أنا جالس عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ جاءه رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله ، هل بقي على من بر أبوي شيء بعد موتهما أبرهما به ؟ قال نعم ، خصال أربع . الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقيهما ، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما ، فهو الذي بقي عليك بعد موتهما من برهما ، (٢) .

وقال القرطبي : أمر الله - سبحانه - بعبادته وتوحيده ، وجعل بر الوالدين مقرونا بذلك . كما قرن شكرهما بشكره ، فقال : وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا .

(١) د في ظلال القرآن ، ج ١٥ ص ٢٢٢١

(٢) راجع تفسير ابن كثير - ٥ ص ٦٢ .

وقال : « إن اشكر لى ولوالديك إلى المصير » .

وفى صحيح البخارى عن عبد الله قال : سألت النبى - صلى الله عليه وسلم - :
أى الأعمال أحب إلى الله - تعالى - ؟

قال : الصلاة على وقتها . قلت : ثم أى ؟ قال : « ير الوالدين » . قلت ثم
أى : قال : الجهاد فى سبيل الله ...

ثم قال القرطبى - رحمه الله - : ومن عقوق الوالدين مخالفتهم فى
أغراضهما الخاتمة لهما ، كما أن من برهما موافقتهم على أغراضهما . وعلى هذا
إذا أمرا أو أحدهما ولدهما بأمر وجبت طاعتهم فيه ، ما لم يكن ذلك الأمر معصية
ولا يختص برهما بأن يكونا مسلمين ، بل إن كانا كافرين يبرهما ويحسن
إليهما .

ففى صحيح البخارى عن أسماء قالت : قدمت أمى وهى مشركة فاستغثت
النبى - صلى الله عليه وسلم - فقلت : إن أمى قدمت وهى راغبة أفأصلها - أى
رعى راغبة فى برى وصلى ، أو وهى راغبة عن الإسلام كارهة له - قال :
صل أمك ، .

ثم قال القرطبى : ومن الإحسان إليهما والبر بهما ، إذا لم يتعين الجهاد
ألا يجاهد إلا بإذنهما . فعن عبد الله بن عمرو قال : جاء رجل إلى النبى - صلى
الله عليه وسلم - يستأذنه فى الجهاد فقال : أحى ولدك ؟ قال : نعم . قال :
فقبهما بجاهد .

قال ابن المنذر : فى هذا الحديث النهى عن الخروج بغير إذن الأبوين
ما لم يقع الذمير ، فإذا وقع وجب الخروج على الجميع ...

ثم قال : ومن تمام برهما صلة أهل ودهما ، فى الصحيح عن ابن عمر قال :
سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إن من أبر البر صلة الرجل
أهل وذأبيه بعد أن يولى » ...

وكان - صلى الله عليه وسلم - يهدي لصدائق خديجة إبراهيم ووفاء لها وهي زوجته ، فما ظنك بالوالدين ، (١) ...

وبعد أن بين - سبحانه - ما يجب على الإنسان نحو خالفه - عز وجل - ونحو والديه ، أتبع ذلك ببيان ما يجب على هذا الإنسان نحو أقاربه ، ونحو المسكين وابن السبيل ، ونحو ماله الذي هو نعمة من نعم الله عليه . فقال - تعالى - :

« وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ، وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُمْرَضْنَ مِنْهُمْ ابْتَغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا ، فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِيسُورًا (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُ كَانَ بِمُبَادِرِ خَيْرٍ بَصِيرًا (٣٠) » .

قال أبو حيان في البحر : « لما أمر الله - تعالى - ببر الوالدين ، أمر بصلة القرابة . قال الحسن : نزلت في قرابة النبي - صلى الله عليه وسلم - . والظاهر أنه خطاب لمن خوطب بقوله : « إما يبلغن عندك الكبر . . » ، وألحق هنا ما يتعين له من صلة الرحم ، وسد الخلة ، والمواساة عند الحاجة بالمال والمعونة بكل وجه . قال فخره : ابن عباس وعكرمة والحسن وغيرهم ، (٢) . والمراد بذوى القربى : من تربطك بهم صلة قرابة سواء أكانوا من المحارم أم لا .

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢١٨ .

(٢) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ح ٦ ص ٢٩ .

والمسكين : هو من لا يملك شيئاً من المال ، أو يملك ما لا يسد حاجته .
وهذا النوع من الناس في حاجة إلى العناية والرعاية ، لأنهم - في الغالب -
يفضلون الاكتفاء بالقليل ، على إراقة ماء وجوههم بالسؤال .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :
ليس المسكين الذي يطوف على الناس فتردهم للقمعة واللقمتان ، والتمرة
والبرتان ، قالوا : فما المسكين يا رسول الله ؟ قال الذي لا يجد غنى يغنيه ،
ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئاً .

وابن السبيل هو المسافر المنقطع عن ماله سمي بذلك - كما يقول الألوسي
لما لزمته السبيل - أي : الطريق في السفر . أو لأن الطريق تبرزه فكانها ولدته ، (١) .

وهذا النوع من الناس - أيضاً - في حاجة إلى المساعدة والمعاونة ، حتى
يستطيع الوصول إلى بلده .

وفي هذا الأمر تنبيه إلى أن المسلمين وإن اختلفت أديانهم ، ينبغي أن
يكنوا في التعاضد والتعاون على متاعب الحياة كالأسرة الواحدة .

والمعنى : وأعط - أيها العاقل - ذوى قرباك حقوقهم الثابتة لهم من البر ،
وصلة الرحم ، والمعاونة ، والزيارة ، وحسن المعاشرة ، والوقوف إلى جانبهم
في السراء والضراء ، ونحو ذلك مما ترجبه تعاليم دينك الحنيف .

وأعط - كذلك - المسكين وابن السبيل حقوقهما التي شرعها الله - تعالى -
لهما ، من الإحسان إليهما ، ومعاونتهما على ما يسد حاجتهما .

وقدم - سبحانه - الأقارب على غيرهم ، لأنهم أولى بالمعروف ، ولأن
إعطائهم إحسان وصله رحم .

روى الإمام أحمد والترمذي والفساني وغيرهم ، عن سليمان بن عامر قال :

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن الصدقة على المسكين صدقة .
وعلى ذى الرحم اثنتان : صدقة وصلة ،

وقوله - سبحانه - : « ولا تبذر تبذيراً » ، نهي عن وضع المال في غير
موضعه الذي شرعه الله - تعالى - ، وأخوذ من تفريق البذر وإلقائه في
الأرض كيفما كان من غير تعمد لمواقعه ، ثم استعير لتضييع المال في غير
وجوهه .

قال صاحب الكشف : التبذير تفريق المال فيما لا ينبغي ، وإنفاقه على
وجه الإمراء ، وكانت الجاهلية تنحدر لبلها وتقياسر عليها ، وتبذر أموالها
في الفخر والسمة ، وقد كر ذلك في أشعارها ، فأمر الله - تعالى - بالنفقة
في وجوهها ، بما يقرب منه ويؤلف ... (١) ،

وقال ابن كثير : وقوله « ولا تبذر تبذيراً » : لما أمر بالإففاق نهي عن
الإمراء فيه ، بل يكون وسطاً ، كما قال - تعالى - : « والذين إذا أنفقوا لم
يسرفوا ولم يفتروا وكان بين ذلك قواماً » .

وقال ابن مسعود : التبذير : الإففاق في غير حق . وكذا قال ابن عباس .
وقال مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً . ولو أنفق
مداً في غير حقه كان تبذيراً ، (٢) ،

وقوله : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين » ، وكان الشيطان لربه
كفوراً ، تعليل للنهي والتبذير ، وتنفير منه بأبلغ أسلوب
والمراد بأخوة الشياطين : المماثلة لهم في الصفات السيئة ، والسلوك
القيبيح .

قال الإمام الرازي : والمراد من هذه الإخوة ، التشبيه بهم في هذا الفعل

(١) تفسير الكشف - ٢ ص ٤٦ ،

(٢) تفسير ابن كثير - ٥ ص ٦٦ طبعة دار الشعب

(٦ - سورة الإسراء :

القيبح ، وذلك لأن العرب يسمون الملازم للشيء أخاه ، فيقولون : فلان أخو الكرم والجود . وأخو السفر ، إذا كان مواظبا على هذه الأعمال^(١)

أى : كن - أيها العاقل - متوسطا في نفقتك ، ولا تبذر تبذيرا . لأن المبذرين يماثلون ويهايمون الشياطين في صفاتهم القبيحة ، وكان الشيطان في كل وقت وفي كل حال جودا لنعم ربه ، لا يشكره عليها ، بل يضعها في غير ما خلقت له هذه النعم

وفي تشبيه المبذر بالشيطان في سلوكه السيئ ، وفي عصيانه لربه ، إشعار بأن صفة التبذير من أقبح الصفات التي يجب على العاقل أن يبتعد عنها ، حتى لا يكون مماثلا للشيطان اجاحد لنعم ربه .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما يجب على المؤمن فعله في حال عدم قدرته على تقديم العون للأقارب والمحتاجين ، فقال - تعالى - : « ولما تعرض عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ، فقل لهم قولا ميسورا » .

ولفظ « إما » مركب من « إن » الشرطية ، ومن « ما » المزيدة . أى : وإن تعرض عنهم .

وقوله « تعرضن » من الإعراض ، بمعنى صرف الوجه عن السائل حياء منه ، بسبب عدم القدرة على تلبية طلبه .

وقوله « ابتغاء » مفعول لأجله منصوب بتعرضن . وهو من باب وضع المسبب موضع السبب . لأن الأصل : « ولما تعرض عنهم لإعسارك » .

والمراد بالرحمة : إلتظار الحصول على الرزق ، وحلول الفرج بعد الضيق والميسور : اسم مفعول من يسر الأمر - بالبناء المفعول - مثل مساعد الرجل ، ومعناه : السهل اللين .

والمعنى : « ولما تعرضن - أيها المخاطب - عن ذى قرابتك وعن المسكين

وإين السبيل ، بسبب إعسارك وانتظارك لرزق يأتيك من الله - عز وجل -
فقل لهم في هذه الحالة قولاً ليناً رقيقاً يدل على اهتمامك بشأنهم ، ويدخل
السرور على نفوسهم ، كأن تقول لهم مثلاً : - ليس عندى اليوم ما أقدمه
لكم ، وإن يرزقنى الله بشئ ف سأجعل لكم نصيباً منه .

قال القرطبي ما ملخصه : وهو تأديب عجيب ، وقول لطيف بديع ، أى
لا تعرض عنهم لعراض مستهين عن ظهر غنى وقدرة فتحرمهم ، وإنما يجوز
أن تعرض عنهم عند عجز يعرض ، وعائق يعوق ، وأنت عند ذلك ترجو من
الله - تعالى - فتح باب الخير ، لتوصل به إلى مواساة السائل ، فإن فعد بك
الحال ، فقل لهم قولاً ميسوراً ، أى ليناً لطيفاً . . . ولقد أحسن من قال :

إن لم تكن وريق يوماً أجود بها للسائلين فلانى لين العود
لا يعدم السائلون الخير من خلقى إما نوالى وإما حسن مردود^(١)

ثم أرشد - سبحانه - عباده إلى أفضل الطرق لإتفاق أمورهم والتصرف
فيها ، فقال - تعالى - : ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل
البسط ، فتقدم ملوماً محسوراً ،

وقوله «مغلولة» من الغل - بضم الغين - وأصله الطوق الذي يجعل في العنق
وتربط به اليد ، كما يربط المذنب والأسير . وهو كناية عن البخل والتقتير .

قال صاحب الكشف ما ملخصه : غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود
ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط . ولا فرق عنده بين هذا
الكلام وبين ما وقع مجازاً عنه ، لأنهما كلامان متعقبان على حقيقة واحدة .
حتى أنه يستعمله في ذلك لا يعطى عطاء قط . ولا يمنعه إلا بإشارته من غير
استعمال يد وقبضها وبسطها . وأعطى إذا قطع إلى المنسكب عطاء جزيلًا

لقالوا : ما أبسط يده بالنوال ؛ لأن بسط اليد وقبضها عبارتين متعاقبتين
للبخل والجود ... (١) .

وقوله « محسورا » من المحسور بمعنى الانقطاع عن الشيء ، والعجز عن
الحصول عليه .

يقال : فلان حسره السير ، إذا أثر فيه أثرا بليغا جعله يعجز عن اللحاق
برفقائه .

ويقال : بعير محسور . أن : ذهبت قوته وأصابه الكلل والإعياء . فصار
لا يستطيع النهوض بما يوضع عليه من أحمال .
والمقصود من الآية الكريمة : الأمر بالتوسط والاعتدال في الإنفاق ،
والنهي عن البخل والإسراف .

وقد شبه - سبحانه - مال البخيل ، بحال من يده مربوطة إلى عنقه
ربطاً محكماً بالقيود والسلاسل ، فصار لا يستطيع تحريكها أو التصرف بها .
وشبه حال المسرف والمبذر ، بحال من مده وبسطها بسطاً كبيراً ،
بحيث أصبحت لا تمسك شتاً يوضع فيها سواء أكان قليلاً أم كثيراً .

والمعنى : كن - أيها الإنسان - متوسطاً في كل أمورك ، ومعتدلاً في إنفاق
أموالك ، بحيث لا تكن بخيلاً ولا مسرفاً ، فإن الإسراف والبخل يؤديان بك
إلى أن تصير ملوماً . أي : مذموماً من الخلق والخالق محسوراً ، أي :
مغموماً منقطعاً عن الوصول إلى مبتغاك بسبب ضياع مالك ، واحتياجك
إلى غيرك .

قال الألوسي ما ملخصه : فالآية الكريمة تحض على التوسط ، وذلك هو
الجود الممدوح ، بخير الأمور أوسطها . وأخرجه أحمد وغيره عن ابن عباس

قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « ما عال من اقتصد » . وأخرجه البيهقي عن ابن عمر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة » . وفي رواية عن أنس مرفوعا : « التدبير نصف المعيشة » ، والتودد نصف العقل ، والهم نصف الهرم ، وقلة العيال أحد اليسارين وكان يقال : حسن التدبير مع العفاف ، خير من الغنى مع الإسراف . (١)

ثم بين - سبحانه - أن مرجع الأمور كلها إليه ، فهو المعطى وهو المانع ، فقال - تعالى - : إن ربك بسيط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه كان بعباده خيرا بصيرا .

أى : إن ربك - أبها الإنسان العاقل بسيط الرزق ويضيقه ويقدره على من يشاء من خلقه . إذ كل شيء في هذا الكون يسير على حسب ما تقتضيه حكمته وحشيدته ، وهو - سبحانه العليم ببواطن الناس وبظواهرهم ، لا يخفى عليه شيء من أحوالهم ، ولا يعطى أو يمنع ، إلا لحكمة هو يعلمها .

قال - تعالى - : ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد حضت على إيتاء ذوى القربى والمساكين وابن السبيل حقوقهم . وعلى الاعتدال في إنفاق المال ، ونهت عن الشح والتبذير ، وأسندت العطاء والمنع إلى الله - تعالى - . الخبير البصير بالظواهر والبواطن .

ثم يسوق - سبحانه - جملة من النواهي التى يؤدى الوقوع فيها إلى فساد أحوال الأفراد والجماعات ، وإلى شيوع الفاحشة فى الأمم ، مما يؤدى إلى اضمحلالها وذهاب ريعها ، فقال تعالى - :

« وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الرِّئَا ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جُنَا تَةً أُولَئِكَ سَاطِعَاتُ الْإِسْرَافِ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا الْمَكِيلَ إِذَا كُنْتُمْ وَرَثًا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ ، كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ يَنْتَهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَأَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ، وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُنْقَلَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (٣٩) » .

وقوله - سبحانه - : « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ... » ، نهي عن قتل الأولاد بعد بيان أن الأرزاق بيده - سبحانه - ، يبسطها لمن يشاء ، ويضيقها على من يشاء .

والإملاق : الفقر . يقال : أملك الرجل إذا افتقر قال الشاعر :

ولم يأت على الإملاق يا قوم ماجد أعد الأضيافى الشواء المصهبا

قال الآلومي : وظاهر اللفظ النهي عن جميع أنواع قتل الأولاد ، ذكورا كانوا أو إناثا مخافة الفقر والفاقة .

لكن روى أن من أهل الجاهلية من كان يمد البنات مخافة العجز عن النفقة عليهن ، فنهى في الآية عن ذلك ، فيكون المراد بالأولاد البنات ، وبالقنصل الواد ... (١)

أى : ولا تقتلوا - أبها الآباء - أولادكم خشية فقر متوقع ، فنحن قد تكفلنا برزقهم ورزقكم ، وأرزاق غيركم من مخلوقاتنا التي لا تخصى .

قال - تعالى - : وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ... ،

ولا شك أن الحياة حق لهؤلاء الصغار كما أنها حق لكم ، فمن الظلم البين الإعتداء على حقوقهم ، والتخلص منهم خوفا من الفقر المتوقع في المستقبل ، مع أن الله - تعالى - هو الرزاق لهم ذلكم في كل زمان ومكان .

وقد ورد النهى عن قتل الأولاد هنا بهذه الصيغة ، وورد في سورة الأنعام بصيغة أخرى ، هي قوله - تعالى - : ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن رزقكم وإبائهم .

وليست أحدهما تكرارا للآخرى ، وإنما كل واحدة منهما تعالج حالة معينة .

فهنا يقول - سبحانه - : ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن رزقكم وإبائكم ، لأن النهى موجه بالأصالة إلى الموسرين ، الذين يقتلون أولادهم لأجل فقر كائن فيهم ، وإنما من أجل فقرهم يتوهمون حص - وله في المستقبل بسبب الأولاد ، لذا قال - سبحانه - ونحن رزقكم وإبائكم ، فقدم رزق الأولاد لأنهم سبب توقع الفقر ، في زعم آبائهم - لكي يمتنع الآباء عن هذا التوقع ولكي يضمن للأولاد رزقهم ابتداء مستقلا عن رزق الآباء .

وقال - سبحانه - هناك : من إملاق ، لأن النهى متوجه أصالة إلى الآباء والمعسرين : أى لا تقتلوهم بسبب الفقر الموجود فيكم - أبها الآباء - ، فقد

يجعل الله بعد عرس يسرا . ولذا قال - سبحانه - نحن نرزقكم وإياهم ، لجعل الرزق للآباء ابتداء : لكي يطمئنهم - سبحانه - على أنه هو السكفيل برزقهم وبرزق أولادهم .

وفي كلتا الحالتين ، القرآن الكريم ينهى عن قتل الأولاد ، ويغرس في نفوس الآباء الثقة بالله - تعالى - ، والإعتماد عليه .

وجملة - نحن نرزقهم وإياكم ، تعليل للنهي عن قتل الأولاد ، بإبطال موجبه - في زعمهم - وهو الفقر .

أى : نحن نرزقهم لا أنتم ، ونرزقكم أنتم معهم ، وما دام الأمر كذلك ، فلا تقدموا على تلك الجريمة النكراء : وهى قتل الأولاد ، لأن الأولاد ، قطعة من أبيهم ، والشأن - حتى في الحيوان الأعجم - أنه بضحي من أجل أولاده ، ويحميهم ، ويتحمل الصعاب في سبيلهم .

وقوله : إن قتلهم كان خطئاً كبيراً ، تعليل آخر للنهي عن قتل الأولاد . جىء به على سبيل التأكيد .

والخطئ : هو الإثم - وزنا ومعنى - ، مصدر خطىء - كأنهم إنما من باب علم .

أى : أن قتل الأولاد كان عند الله - تعالى - إثماً كبيراً فاحشاً ، يؤدي إلى التعامة والشقاء في الدنيا والآخرة :

والحق أن المجتمع الذى يبيع قتل الأولاد ، خوفاً من الفقر أو العار ، لا يمكن أن يصلح شأنه ، لأنه مجتمع نفعى تسوده الأثرة والأنانية والفساوم والأوهام ، لأن أفرادهم يظنون أن الله يخلق خلقاً لا يدبر لهم رزقهم ، ويمتدون على روح بريئة طاهرة ، تخوفاً من فقر أو عار مترقب ، وذلك هو الضلال المبين .

ورحم الله الإمام الرازي فقد قال عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه :

لأن قتل الأولاد وإن كان لخوف الفقر ، فهو سوء ظن باقية . وإن كان لأجل الغيرة على البنات فهو سعى في تخريب العالم . فالأول ضد التعظيم لأمر الله - تعالى - والثاني ضد الشفقة على خلقه ، وكلاهما مذموم ، (١)

ولقد أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - برعاية الأبناء ، وحذر من الإعتداء عليهم في أحاديث كثيرة ، ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : قلت يارسول الله ، أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزنى بحليلة جارك (٢)

وبعد أن نهى - سبحانه - عن قتل الأولاد المؤدى إلى افناء النسل ، أتبع ذلك بالنهى عن فاحشة الزنا المؤدية الى اختلاط الأنساب ، فقال - تعالى - : « ولا تقربوا الزنا ، أنه كان فاحشة وساء سبيلا ،

والزنا : وطء . المرأة بدون عقد شرعى يميز للرجل وطأها .

والفاحشة : ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال . يقال فحش الشيء ، فحشاء كفحش قبحا - وزنا ومعنى - ، ويقال أفحش الرجل ، إذا أتى الفحش بضم الفاء وسكون الحاء - ، وهو القبيح من القول أو الفعل . وأكثر ما تكون الفاحشة اطلاقا على الزنا .

وتعليق النهى بقربانها ، للمبالغة في الزجر عنها ، لأن قربانها قد يؤدى الى الوقوع فيها ، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

وهذا لون حكيم من ألوان اصلاح النفوس ، لأنه اذا حصل النهى عن القرب من الشيء ، فلا بد ينهى عن فعله من باب أولى .

فكانه - سبحانه - يقول : كونوا - أيها المسلمون - بعيدين عن كل المقدمات

(١) تفسير الفخر الرازى ٢٠٥ ص ١٩٦

(٢) تفسير ابن كثير ٥ ص ٦٩

التي تفضى إلى فاحشة الزنا كخاططة النساء ، والحلوة بين ، والنظر اليهن ...
فإن ذلك يفتح الطريق الى الوقوع فيها .

قال بعض العلماء : وكثيراً ما يتعلق النهى في القرآن بالقربان من الشيء ،
وضابطه بالإستقرار :

أن كل منهى عنه من شأنه أن تميل النفوس اليه ، وتدفع اليه الأهواء ،
جاء النهى فيه عن القربان ، ويكون القصد التحذير من أن يأخذ ذلك الميل
في النفس مكانة تصل بها إلى إقتراف المحرم ، ومن ذلك قوله - تعالى - :
« ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ... » « ولا تقربوا الزنا ... »
« ولا تقربوهن حتى يظفرن ... »

أما المحرمات التي لم يؤلف ميل النفوس اليها ، ولا لإقتضاء الشهوات لها ،
فإن الغالب فيها ، أن يتعلق النهى عنها بنس الفعل لا بالقربان منه .

ومن ذلك قوله - تعالى - : « ولا تقتلوا أولادكم خشية لإملاق ... » وقوله
- تعالى - : « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ... »

فهذه وإن كانت فواحش ، إلا أنها ليست ذات دوافع نفسية ، يميل اليها
الإنسان بشهوته . بل هي في نظر العقل على المقابل من ذلك ، يجد الإنسان في
نفسه مرارة ارتكابها ، ولا يقدم عليها إلا وهو كاره لها ، أو في حكم
الكاره ... (١)

وقوله : « لأنه كان فاحشة وساء سبيلاً » ، تعليل للنهى عن الإقتراب منه
أي : ابتعدوا عن مقدمات الزنا فضلاً عن الوقوع فيه ذاته ، لأنه كان
- وما زال - في شرع الله ، وفي نظر كل عقل سليم فعلة فاحشة ظاهرة القبح
وبش الطريق طريقة ، فإنها طريق تؤدي إلى غضب الله - تعالى - وسخطه .

(١) تفسير القرآن العظيم ص ٤١ ؛ لفصيحة المرحوم الشيخ محمود شلتوت

ومما لاشك فيه أن فاحشة الزنا من أقبح الفواحش التي تؤدي إلى شيوع الفساد والأمراض الخبيثة في الأفراد والمجتمعات ، وما وجدت في أمة إلا وكانت عاقبتها خسرأ .

ولقد تحدث الإمام الرازي عن تلك المفاسد التي تترتب على الزنا فقال ما ملخصه :

الزنا أشتمل على أنواع من المفاسد : أولها : اختلاط الأنساب واشتباها ، فلا يعرف الإنسان أن الولد الذي أتت به الزانية ، أهر منه أو من غيره ...

وثانيها : أنه إذا لم يوجد سبب شرعي لأجله يكون هذا الرجل لتلك المرأة ، لم يبق في حصول ذلك الإختصاص الا التوابع والتقاتل ...

وثالثها : أن المرأة إذا باشرت الزنا ، استقذرها كل طبع سليم ، وحينئذ لا تحصل الألفة والمحبة ، ولا يتم السكن والإزدواج ...

ورابعها : أنه إذا فتح باب الزنا ، فحينئذ لا يبقى لرجل اختصاص بامرأة وحينئذ لا يبقى بين نوع الإنسان ، وبين سائر البهائم فرق في هذا الباب .

وخامسها : أنه ليس المقصود من المرأة قضاء الشهوة ، بل أن تصير شريكة للرجل في ترتيب المنزل واعداد مهماته . . . وهذه المهمات لا تتم الا اذا كانت مقصورة الهمة على هذا الرجل الواحد ، منقطعة الطمع عن سائر الرجال وذلك لا يحصل الا بتحريم الزنا ... فثبت بما ذكرنا أن العقول السليمة تقضى على الزنا بالقبح (١)

ولقد سد الإسلام جميع المنافذ التي تؤدي الى ارتكاب هذه الفاحشة ، وسلك لذلك وسائل من أهمها :

١ - تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية ، ومنع الإختلاط بين الرجال والنساء

الا في حدود الضرورة الشرعية ، ومن الأحاديث التي وردت في هذا المعنى ،
مارواه الشيخان عن ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :
« لا يخلون أحدكم بامرأة الا مع ذي محرم ،

وروى الشيخان - أيضا - عن عقبه بن عامر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
عليه وسلم - قال : إياكم والدخول على النساء . فقال رجل من الأنصار :
أفرايت الحمى - بفتح الحاء - وسكون الميم - وهو قريب الزوج كإخيه وابن
عمه - فقال - صلى الله عليه وسلم - : الحمى الموت (١) . أى : دخوله قد يؤدي
إلى الموت .

٢ - تحريم النظر إلى المرأة الأجنبية . وجوب غض البصر .

قال - تعالى - « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ... »
وقال - سبحانه - « قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن
فروجهن ... » (٢)

وروى الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
قال : كتب على ابن آدم نصيبه من الزنى مدرك ذلك لا محالة : العيان . زناهما
النظر ، والأذان زناهما الاستماع ، واللسان زناه الكلام ... والقلب يهوى
ويصدى ذلك تفرج أو يكذبه ، (٣) .

٣ - وجوب التستر والاحتشام للمرأة ، وإزالة التبرج والسفور يفرى
الرجال بالنساء ، ويحرك الفريضة الجنسية بينهما .

قال - تعالى - : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدفين

(١) رياض الصالحين ص ٦٢٤ باب تحريم الخلوة بالأجنبية .

(٢) سورة النور الآيتان ٣٠ ، ٣١

(٣) رياض الصالحين ص ٦٢٢ الإمام النووي ،

عليهن من جلايبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين . . . (١)

٤ - الحض على الزواج ، وتيسير وسائله ، والبعد عن التغالى فى نفقاته ، وتخفيف مؤنه وتكاليفه فإن الزواج من شأنه أن يحسن الإنسان ، ويجعله يقضى شهوته فى الحلال . . .

فإذا لم يستطع الشاب الزواج ، فعليه بالصوم فإنه له وقاية - كما جاء فى الحديث الشريف . -

٥ - إقامة حدود الله بحزم وشدة على الزناة سواء أكانوا من الرجال أم من النساء ، كما قال - تعالى - . الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة . ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ، (٢) .

وهذا الجلد إنما هو بالنسبة للبكر ذكرًا كان أو أنثى ، أما بالنسبة للمحصن وهو المتزوج أو الذى سبق له الزواج ، فمقوبته الرجم ذكرًا كان أو أنثى ، وقد ثبت ذلك بالأحاديث الصحيحة .

فى الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قضى فى زان لم يتزوج وزانية متزوجة ، بقوله لوالد الرجل : د على ابنك مائة جلدة وتغريب عام ، ثم قال - صلى الله عليه وسلم - لأحد أصحابه واسمه أنيس : أغديا أنيس إلى امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها ، فغدا عليها فاعترفت فرجمها .

ومما لاشك فيه أنه لو تم تنفيذ حدود الله - تعالى - على الزناة ، لحقت هذه الفاحشة محققا ، لأن الشخص إن لم يتركها خوفا من ربه - عز وجل - لتركها خوفا من تلك العقوبة الرادعة ، ومن فضيحتة على رموس الاشهاد .

(١) سورة الاحزاب الآية ٥٩

(٢) سورة النور الآية ٢

هذه بعض وسائل الوقاية من تلك الفاحشة القبيحة ، ولو اتبعها المسلمون ،
لطهرت أمتهم من رجسها ، ولحفظت في دينها وديارها .

ثم نهي - سبحانه - عن قتل النفس المعصومة الدم ، بعد نهي عن قتل
الاولاد ، وعن الاقتراب من فاحشة الزنا فقال - تعالى - : ولا تقتلوا النفس
التي حرم الله إلا بالحق .

أي : ولا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها ، إلا بالحق الذي يبيح قتلها
شرعا ، كردة ، أو قصاص ، أو زنا يوجب الرجم .

قال الإمام ابن كثير : يقول - تعالى - ناهياً عن قتل النفس بغير حق
شرعى ، كما ثبت في الصحيحين - عن عبد الله بن مسعود - أن رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - قال : لا يعل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله
وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والزاني المحصن ،
والتارك لدينه المفارق للجماعة .

وفي السنن - لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مسلم (١) .

وقوله - « إلا بالحق » متعلق بـ لا تقتلوا ، والباء للسببية ، والاستثناء
مفرغ من أعم الاحوال أي : لا تقتلونها في حال من الاحوال ، إلا في حال
ارتكابها لما يوجب قتلها .

وذلك ؛ لأن الإسلام ينظر إلى وجود الإنسان على أنه بناء بناء الله - تعالى -
فلا يحل لاحد أن يهدمه إلا بحق .

وبهذا يقرر الإسلام عصمة الدم الإنساني ، ويعتبر من يعتدى على نفس
واحدة ، فكأنما قد اعتدى على الناس جميعا . قال - تعالى - : من أجل ذلك
كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض

فكأنها قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنها أحيى الناس جميعا ... (١) ،
وقوله - سبحانه - ، « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا
يسرف في القتل إنه كان منصورا » ، إرشاد لولى المقتول إلى سلوك طريق
العدل عند المطالبة بحقه .

والمراد بوليه . من يلى أمر المقتول ، كإبيه وابنه وأخيه وغيرهم من
أقاربه الذين لهم الحق في المطالبة بدمه . فإن لم يكن المقتول ولى ،
فالحاكم وليه .

والمراد بالسلطان : القوة التى منحتها شريعة الله - تعالى - لولى المقتول
على القاتل ، حيث جعلت من حق هذا الولى المطالبة بالقصاص من القاتل ،
أو أخذ الدية منه ، أو العفو عنه ، ولا يستطيع أحد أن ينازعه في هذا الحق ،
أو أن يجبره على التنازل عنه .

والمعنى : ومن قتل مظلوما ، أى : بدون سبب يوجب قتله ، فإن دمه لم
يذهب هدرا ، فقد شرعنا لوليه سلطانا ، على القاتل ، لأنه - أى الولى - إن
شاء طالب بالقصاص منه ، وإن شاء أخذ الدية ، وإن شاء عفا عنه . وبذلك
يصير الرلى هو صاحب الكلمة الأولى في التصرف في القاتل ، حتى لكأنه
مملوك له .

وما دامت شريعة الله - تعالى - قد أعطت الولى هذا السلطان على القاتل ،
فعليه أن لا يسرف في القتل ، وأن لا يتجاوز ما شرعه الله - تعالى - .
ومن مظاهر هذا التجاوز : أن يقتل اثنين - مثلا - في مقابل قتيل واحد ،
أو أن يقتل غير القاتل ، أو أن يمثل بالقاتل بعد قتله .

قال الألوسى ما ملخصه : كان من عادتهم في الجاهلية ، أنهم إذا قتل منهم
واحد ، قتلوا قاتله ، وقتلوا معه غيره

وأخرج البيهقي في سننه عن زيد بن أسلم أنه قال : إن الناس في الجاهلية كانوا إذا قتل من ليس شريفاً شريفاً ، لم يقتلوه به ، وقتلوا شريفاً من قومه ، فنهوا عن ذلك ، كما نهوا عن المملة بالقاتل .

وقرأ حمزة والكسائي : فلا تسرف بالخطاب للولي على سبيل الإلتفات ، (١) .

وقوله : فإنه كان منصورا ، تذييل المقصود به تعليل النهي عن الإسراف في القتل . والضمير يعود إلى الولي - أيضا - .

أي : فلا يسرف هذا الولي في القتل ، لأن الله - تعالى - قد نصره عن طريق ما شرعه له من سلطان عظيم ومن مظاهره : المطالبة بالقصاص من القاتل ، أو بأخذ الدية ، ومن مظاهره - أيضا - وقوف الحاكم وغيره إلى إلی جانبه حتى يستوفي حقه من القاتل ، دون أن ينازعه منازع في هذا الحق .

ومنهم من يرى أن الضمير في قوله : فإنه ، يعود إلى المقتول ظلما ، على معنى : أن الله - تعالى - قد نصره في الدنيا بمشروعية القصاص والدية حتى لا يضيع دمه ، ونصره في الآخرة بالثواب الذي يستحقه ، وما دام الأمر كذلك فعلى وليه أن لا يسرف في القتل .

ويدو لنا أن الرأي الأول أقرب إلى الصواب . لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة .

قال ابن جرير بعد أن ساق الأقوال في ذلك : وأشبه ذلك بالصواب عندي ، قول من قال : عني بها - أي بالهاء في إنه - الولي ، وعليه عادت ، لأنه هو المظلوم وولي المقتول . وهي إلى ذكره أقرب من ذكر المقتول ، وهو المنصور - أيضا - لأن الله - جل ثناؤه - قضى في كتابه المنزل ، أن سلطه على قاتل وليه ، وحكمه فيه ، بأن جعل إلیه قتله إن شاء ، واستبقاه على الدية

إن أحب ، والعفو عنه إن رأى . وكفى بذلك نصرة له من الله - تعالى - ،
فلذلك هو المعنى بالها . التي في قوله : إنه كان منصوراً ، (١) .

والمشأن في هذه الآية الكريمة التي هي أول آية نزلت في شأن القتل كما
قال الضحاك (٢) - : براها قد عالجت هذه الجريمة علاجا حكما .

فهي أولا : تنهى عن القتل ، لأنه من أكبر الكبائر التي تؤدي إلى غضب
الله - تعالى - وسخطه ، قال - تعالى - : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه
جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما » ، (٣) .

وجاء النهي عنه في بعض الآيات بعد النهي عن الإشراك بالله - عز وجل - ،
قال - سبحانه - : « والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس
التي حرم الله إلا بالحق » ، (٤) .

كما جاء النهي عنه في كثير من الأحاديث النبوية ، ومن ذلك ما جاء في
الصحيحين عن ابن مسعود - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - قال : أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء ، .

وفي حديث آخر يقول - صلى الله عليه وسلم - الأدمى بنيان الرب ، ملعون
من هدم بنيان الرب ، .

وفي حديث ثالث : لو اجتمع أهل السموات والأرض على قتل رجل
مسلم ، لأكبرهم الله في النار ، .

وهذا النهي الشديد عن قتل النفس من أسبابه : أنه يؤدي إلى شيوع الغل
والبغض والتقاتل بين الأفراد والجماعات .

(١) تفسير ابن جرير ج ٨ ص ٦٠ : طبعة دار المعرفة - بيروت

(٢) تفسير الألوسي ج ١٥ ص ٧٠

(٣) سورة النساء الآية ٩٣

(٤) سورة الفرقان الآية ٦٨

إذ النفس البشرية في كل زمان ومكان ، يؤلمها ، ويشير غضبها وانتقامها ،
أن ترى قاتل عزيز لديها يمشى على الأرض . . .

وهي ثانيا : تسوق لولى المقتول من التوجيهات الحكيمه ، ما يهدى - نفسه ،
ويقلل من غضبه ، ويطفى - من نار ثورته المشتعلة . .

وقد أجاد صاحب الظلال - رحمه الله - في توضيح هذا المعنى فقال :

« وفي تولية صاحب الدم على القصاص من القاتل ، وتجنيد سلطان الشرع
وتجنيد الحاكم لنصرته ، تلبية للفطرة البشرية ، وتمهيداً للعليان الذي تستشعره
نفس الولي . العليان الذي قد يحرقه ويدفعه إلى الضرب يمينا وشمالا ، فيحمي
انغضب والافعال على غير هدى . فأما حين يحس أن الله قد ولاه على دم القاتل .
وأن الحاكم يجسد لنصرته على القصاص ، فإن ثأرته تهدأ ، ونفسه تسكن ،
ويقف عند حد القصاص العادل الهادي . »

والإنسان لإنسان ، فلا يطالب بغير ما ركب في فطرته من الرغبة العميقة
في القصاص . لذلك يعترف الإسلام بهذه الفطرة ويلببها في الحدود المأمورة ،
ولا يتجاهلها فيفرض التسامح فرضاً . إنما هو يدعو إلى التسامح ويؤثره ،
ويجيب فيه ، ويأجر عليه ، ولكنه بعد أن يعطى الحق . فلولى الدم أن يقتص
أو يصفح .

وشعور ولى الدم بأنه قادر على كليهما ، قد يمنح به إلى الصفح والتسامح ،
أما شعوره بأنه مرغم على الصفح فقد يهيج نفسه ، ويدفع به إلى الغلو
والنجوح ، (١) .

هذا ، والذي نعتقده وندين الله - تعالى - عليه ، أنه لا علاج للجريمة
القتل - وغيرها - إلا بتطبيق شريعة الله - تعالى - التي جمعت بين الرحمة
والعدل .

وبارحمة والعسل : تتلاقى القلوب بعد التفرق ، وتلتئم بعد التصدع ، وتسامى عن الانتقام إلى ما هو أعلى منه وهو العفو .

وبعد أن نهى - سبحانه - عن إقلاف النفوس عن طريق القتل والزنا ، أتبع ذلك بالنهى عن إقلاف الأموال التى هى قرام الحياة ، وبدأ - سبحانه - بالنهى عن الاقتراب من مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ، ثم نهى بالامر بإيفاء الكيل والميزان عند التعامل ، فقال - تعالى - :

ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً ٣٤ وأوفوا الكيل إذا كتمتم ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلاً ٣٥ .

واليتيم : هو الصغير الذى مات أبوه مأخوذ من اليتيم بمعنى الافتراد ، ومنه الدرّة اليتيمة .

والخطاب فى قوله : « ولا تقربوا ... » لأولياء اليتيم ، والأوصياء على ماله .

والأشد : قوة الإنسان ، واشتعال حرارته ، من الشدة بمعنى القوة . يقال : شد النمار إذا ارتفع واكتمل ، وهو مفرد جاء بصيغة الجمع . أو هو جمع لا واحده من لفظه ، أو جمع شدة كأنعم ونعمة .

أى : ولا تقربوا - أيها الأولياء على اليتيم - ماله الذى منحه الله لإياه عن طريق المسيرات أو غيره ، إلا بالطريقة التى هى أحسن الطرق ، والتى من شأنها أن تنفعه ، كالحفاظة عليه ، واستئثاره له ، وانفاقه فى الوجوه المشروعة . واعلموا أن كل تصرف مع اليتيم أو فى ماله ، لا يقع فى تلك الدائرة - دائرة الأنفع والأحسن - فهو تصرف محظور ومنهى عنه ، وسيحاسبكم الله - تعالى - عليه .

وتعليق النهى بالقربان ، للمبالغة فى الزجر عن التصرف فى مال اليتيم ، إلا بالطريقة التى أحسن .

وقوله : « حتى يبلغ أشده » ، ليس غاية للنهي ، إذ ليس المعنى : فإذا بلغ أشده فاقربوه ، لأن هذا المعنى يقتضى إباحة أكل الولي لمال اليتيم بعد بلوغه وإنما هو غاية لما يفهم من النهي ، فيكون المعنى لا تقربوا مال اليتيم إلا بالطريقة التي هي أحسن ، واستمروا على ذلك حتى يبلغ أشده ، أي : حتى يصير بالغاً عاقلاً رشيداً ، فإذا ما صار كذلك ، فسلوا إليه ماله بأمانته واستعفاه عن التطلع إلى شيء منه .

هذا ، وقد أمرت شريعة الإسلام ، بحسن رعاية اليتيم ، وبالحفاظة على حقوقه ، ونهت عن الإساءة إليه ، بأى لون من ألوان الإساءة :
قال - تعالى - : « ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ، وإن خفاطوهم فإخوكم » (١) .

وقال - سبحانه - : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ، إنما يأكلون في بطونهم نارا ، وسيصلون سعيراً » (٢) .

وقال - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الذي رواه الإمام البخارى عن سهل بن سعد رضى الله عنه - « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا ، وأشار بالسبابة والوسطى » (٣) .

وروى الشيخان عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أنه قال : اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الفافلات ،

ومن الحكم التى من أجلها أمر الإسلام بالعطف على اليتيم ، ونهى عن ظلمه ، أنه إنسان ضعيف فقد الأب الحانى ، والعائل والنصير منذ صغره ...

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٠

(٢) سورة النساء الآية ١٠

(٣) من كتاب رياض الصالحين ، ص ١٣٧ للإمام النووى

فإذا نشأ في بيته ترعاه وتكرمه ... شب مجال من حوله ، وللمجتمع الذي يعيش فيه .

وإذا نشأ في بيته تقهره وتذله وتظلمه ... ، نظر إلى من حوله ، وإلى المجتمع الذي يعيش فيه ، نظرة العدو إلى عدوه ...

وكانه يقول لنفسه : إذا كان الناس لم يحسنوا إلى في صفري وفي حالة ضعفي ، فلماذا أحسن إليهم في حال كبري وقوتي !!

وإذا كانوا قد حرموني حقى الذى منحه الله لى فلماذا أعطيهم شيئاً من خيرى وبرى !!

هذه بعض الأسباب التى من أجلها أمر الإسلام أتباعه برعاية اليتيم وإكرامه ، وصيانة حقوقه من أى اعتداء أو ظلم .

وبعد أن نهى - سبحانه - عن الاقتراب من مال اليتيم إلا بالتي هى أحسن ، أمر بالوفاء بالعهود فقال : د وأوفوا بالعهد إن العهد كان مستولاً .

والعهد : ما من شأنه أن يراعى ويحفظ ، كالوصية واليمين . وعهد الله : أوامره ونواهيه وعمه الناس : ما يتعاهدون عليه من معاملات وعقود وغير ذلك مما تقتضيه شئون حياتهم .

أى : وأوفوا بالعهود التى بينكم وبين الله - تعالى - ، واتى بينكم وبين الناس ، بأن تؤدوها كاملة غير منقوصة ، وأن تقوموا بما تقتضيه من حقوق شرعية . وقوله د إن العهد كان مستولاً ، تعليل لوجوب الوفاء بالعهد .

أى : كوفوا أوفياء بعهودكم لأن صاحب العهد كان مستولاً عنه ، أمام الله - تعالى - وأمام الناس . فالكلام على حذف مضاف كما فى قوله - سبحانه - . واسأل القرية .

وقال - سبحانه - د وأوفوا بالعهد إن العهد ... ، بالإظهار دون الإضمار للإشمار بكمال العناية بشأن الوفاء بالعهود .

ويجوز أن يكون المعنى : وأوفوا بالعهد إن العهد كان مستولاً أى : كان مطلوباً الوفاء به وقد مدح الله - تعالى - الذين يوفون بعهدهم فى آيات كثيرة، منها قوله - تعالى - : «لأنما يتذكر أولوا الألباب . الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق» (١) .

وقوله - تعالى - : «الموفون بعهدهم إذا عاهدوا . والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون» (٢) .

وبعد أن أمر - سبحانه - بالوفاء بصفة عامة ، أتبع ذلك بالوفاء فى شئون البيع والشراء ، فقال - تعالى - : «وأوفوا السكيل إذا كلمتم ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلاً» .

والقسطاس : الميزان الذى يوزن به فى حالتى البيع والشراء .

قال صاحب الكشف : قرئ «بالقسطاس» . بكسر القاف وضمة ... قيل كل ميزان صغر أو كبر من موازين الدراهم وغيرها (٣) .

وقال الألوسى ماملاً خصه : وهذا اللفظ روى معرب .. وقيل عربى ... وعلى القول بأنه روى معرب - وهو الصحيح - لا يقدح استعماله فى القرآن فى عربيته المذكورة فى قوله - تعالى - : «لأنما أنزلناه قرآناً عربياً ، لأنه بعد التعريب والسماع فى فصيح الكلام ، يصير عربياً ، فلا حاجة إلى إنكار تعريبه ...» (٤)

وقوله : «تأويلاً» ، من الأول - بفتح الهمزة وسكون الواو - بمعنى الرجوع . يقال : آل هذا الأمر كذا ، إذا رجع إليه .

(١) سورة الرعد الآية ١٩ ، ٢٠ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٧٧ .

(٣) تفسير الكشف ج ٢ ص ٤٤٨ .

(٤) تفسير الألوسى ج ١٥ ص ٧٢ .

والمعنى : وأنتموا أيها المؤمنون السكيل إذا كلمتم الغيركم عند بيعكم لهم ما تريدون بيعه ، وزنوا لهم كذلك بالميزان المستقيم العادل ما تريدون وزنهم لهم .
وقيد - سبحانه - الأمر بوجوب إتمام السكيل والميزان في حالة البيع ، لأنها الحالة التي يكون فيها التطفيف في العادة . إذ أن البائع هو الذي غالبا ما يظف للمشتري في المسكيل والميزان ولا يعطيه حقه كاملا .

قال - تعالى - : « ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون .
وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، » .

واسم الإشارة في قوله « ذلك خير وأحسن تأويلا » يعود إلى تمام السكيل والميزان بالقسطاس المستقيم .

أي : ذلك الذي أمرناكم به . من وجوب إتمام المسكيل والميزان عند التعامل ، خير لكم في الدنيا ، لأنه يرغب الناس في التعامل معكم ، أما في الآخرة فهو أحسن عاقبة ومالا ، لما يترتب عليه من الثواب الجزيل لكم من الله - عز وجل - .

ثم ختم - سبحانه - تلك التوجيهات السامية السديدة ، بالنهي عن تتبع مالا علم للإنسان به ، وعن الفخر والتكبر والخيلاء ... فقال - تعالى - :

ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسئولا ٢٦ ولا تمش في الأرض مريحا ، إنك إن تخرق الأرض ، ولن تبلغ الجبال طولا ٢٧ كل ذلك كان سيطرة عند ربك مكرها ٢٨ ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ، ولا تجعل مع الله إلها آخر ، فتلقى في جهنم ملوما مدحورا ٢٩ .

قال القرطبي - رحمه الله - مالم يخصه : قوله - تعالى - : « ولا تقف ما ليس لك به علم ، أي : ولا تتبع مالا تعلم ولا يخفيك - من قول أو فعل - قال قتادة : لا تقف رأيت وأنت لم تر ، وسمعت وأنت لم تسمع ، وعلمت وأنت لم تعلم ... » .

ثم قال : وأصل القفو البهت ، والقذف بالباطل ، ومنه قوله - عليه الصلاة والسلام - : نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمنا ، ولا فتنق من أيننا ، أى : لا نسب أمنا .

ويقال : قفوته أقفوه ... إذا اتبعت أثره وقافية كل شيء آخره ، ومنه اسم النبي - صلى الله عليه وسلم - : المقتي ، لأنه آخر الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ، ومنه القائف ، وهو الذي يتبع الأثر ... ، (١)

وقال صاحب الكشف - رحمه الله - : قوله : ولا نقف ما ليس لك به علم : يعنى ، ولا نكون في إتباعك ما لا علم لك به من قول أو فعل ، كمن يتبع مسلما لا يدري أنه يوصله إلى مقصده فهو ضال . والمعاد : النهى عن أن يقول الرجل ما لا يعلم ، وأن يعمل بما لا يعلم . ويدخل فيه النهى عن التقليد - الأعمى - دخولا ظاهرا لأنه اتباع لما لا يعلم صحته من فساد ... ، (٢)

وقوله : إن السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسئولا ، تحذير شديد من أن يقول الإنسان قولا لا علم له به ، أو أن يفعل فعلا بدون تحقق ، أو أن يحكم حكما بلا بيضة أو دليل .

أى : إن السمع الذى تسمع به - أيها المكاف - ، والبصر الذى قبصر به ، والفؤاد - أى القلب - الذى تحيا به ، كل أولئك الأعضاء ستكون مسئولا عن أفعالها يوم القيامة ، وسيقال لك بتأنيب وتوبيخ : لماذا سمعت ما لا يحل لك سماعه ، ونظرت إلى ما لا يجوز لك النظر إليه ، وسمعت إلى ما لا يصح لك أن تسمى لإياه !!

وعلى هذا التفسير يكون السؤال فى قوله - تعالى - : « كان عنه مسئولا ، للإنسان الذى تتبع ما ليس له به علم من قول أو فعل .

(١) تفسير القرطبي - ١٠ ص ٢٥٧ .

(٢) تفسير الكشف - ٢ ص ١٤٩ .

ومن الآيات التي تشهد لهذا التفسير قوله - تعالى - : « فوريك لذاتهم
أجمعين عما كانوا يعملون » (١) .

ومنهم من يرى أن السؤال موجه إلى تلك الأعضاء ، لتتطرق بما اجتريحه
صاحبها ، ولتكون شاهدة عليه ، فيسكون المعنى :

إن السمع والبصر والفؤاد ، كل واحد من أولئك الأعضاء ، كان مسئولا
عن فعله ، بأن يقال له : هل استعملك صاحبك فيما خلقت من أجله أولا ؟

ويكون هذا السؤال للأعضاء من باب التوبيخ لأصحابها ، كما قال - تعالى - :
« اليوم نختم على أفواههم وقلمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » (٢)

وكما قال - سبحانه - : « ويوم يحشر أعداء الله على النار فهم يوزعون .
حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون » (٣) .

واسم الإشارة « أولئك » ، على التفسيرين يعود إلى السمع والبصر والفؤاد ،
لما لأن هذا الاسم يشار به إلى العقلاء ويشار به إلى غير العقلاء ، كما في قول
الشاعر :

كُذِمَ المنازلَ بعد منزلة الأولى والعيش بعد أولئك الأيام

ولما لأن هذه الأعضاء أخذت حكم العقلاء ، لأنها جزء منهم ، وشاهدة
عليهم .

وعلى كلا التفسيرين أيضا ، يتمثل التحذير الشديد للإنسان عن أن يتبع
ماليس له به علم .

(١) سورة الحجر الآية ٩٢ ، ٩٣ .

(٢) سورة يس الآية ٦٥ .

(٣) سورة فصلت الآيتان ١٩ ، ٢٠ .

قال الجمل : وقوله - تعالى - « كل أولئك ، مبتدأ ، خبره جملة ، كان عنه مسئولاً ، والضمير في « كان » وفي « عنه » وفي « مسئولاً » يعود على كل .
أى : كان كل واحد منها مسئولاً عن نفسه ، يعنى ، عما فذل به صاحبه : ويجوز أن يكون الضمير في « عنه » لصاحب السمع والبصر والفؤاد ، . . . ، (١)

وشبيه بهذه الآية في النهى عن اتباع ما لا علم للانسان به . قوله - تعالى - :
« قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ،
وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » ، (٢).

وقوله - سبحانه - : « يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً : ولا تتبعوا
خطوات الشيطان فإنه لكم عدو مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن
تقولوا على الله ما لا تعلمون » ، (٣).

قال الإمام ابن كثير : ومضمون ما ذكره - فى معنى قوله - تعالى - :
ولا تقف ما ليس لك به علم . . . - أن الله - تعالى - نهى عن القول بلا علم ،
كما قال - سبحانه - : « اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم . . . » ،
وفى الحديث : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث . . . » وفى سنن
أبى داود : « بنس مطية الرجل زعموا ، وفى الحديث الآخر : « إن أفرى
الفرى - أى أكذب الكذب - أن يرى الرجل عينيه ما لم تريا » ، (٤) .

وقال بعض العلماء : وهذه الكلمات القليلة - التى اشتملت عليها الآية -
تقيم منهجاً كاملاً للقلب والعقل ، يشمل المنهج العلمى الذى عرفته البشرية حديثاً
جداً ، ويضيف إليه استقامة القلب ، ومراقبة الله ، ميزة الإسلام على المناهج
العقلية الجافة !

(١) حاشية الجمل على الجلالين ص ٢ ص ٦٢٥ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٣٣ (٣) سورة البقرة الآية ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٤) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٧٢ .

فالتثبت من كل خبر ، ومن كل ظاهرة ، ومن كل حركة ، قبل الحكم عليها ، هو دعوة القرآن الكريم ، ومنهج الإسلام الدقيق ...

فلا يقول اللسان كلمة ، ولا ينتقل رواية ، ولا يروي حادثة ، ولا يحكم العقل حكماً ، ولا يبرم الإنسان أمراً . إلا وقد تثبت من كل جزئية ، وعن كل ملاحظة ، ومن كل نتيجة ، فلم يبق هنالك شك ولا شبهة في صحتها ... (١) .

ثم ينتقل القرآن الكريم من النهى عن أن يتبع الإنسان ما لا دلم له به ، إلى النهى عن التفاخر والتكبر والإعجاب في النفس فيقول : ولا تمش في الأرض مرحاً

والمرح في الأصل : شدة الفرح ، والتوسع فيه ، مع الخيلاء والتعالى على الناس ، يقال : مرح - بزنة فرح - يروح مرحاً ، إذا اشتد فرحه ومشى مشية المتكبرين . وهو مصدر وقع موقع الحال .
أى : ولا تمش - أيها الإنسان - في الأرض مشية الفخور المتكبر المختال ، بل كن متواضعاً متأدباً بأدب الإسلام في سلوكك .

وتقييد النهى بقوله : في الأرض ، للتذكير بالمبدأ والمعاد ، المانعين من التكبر والخيلاء ، إذ من الأرض خلق وإليها يعود ، ومن كان كذلك كان جديراً به أن يتواضع لا أن يتكبر .

قال - تعالى - : منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى ، (٢) .

وقوله - سبحانه - : : إنك لن تخرق الأرض ، ولن تبلغ الجبال طولاً ، تعليل للنهى عن التفاخر مع السخرية والتهكم من التفاخر المغرور .

أى : إنك - أيها الماشي في الأرض مرحاً - لن تخرق الأرض بوطئك

(١) من تفسير ، في ظلال القرآن ، ج ١٥ ص ٢٢٢٧ .

(٢) سورة طه الآية ٥٥ .

عليها ، أو بعثيك فوقها ، وإن تبلغ - مهما ارتفعت قامتك - الجبال في الطول والعلو . وما دام شأنك كذلك ، فكن متواضعا ، فمن تواضع لله - تعالى - رفعه .

وقوله « طولاً » يتميز بحول عن الفاعل . أى : لن يبلغ طولك الجبال ، وشبهه بهذه الآية في النهى عن التعالى والتطاول ، قوله - تعالى - : « ولا تصغر خدك للناس ، ولا تمتش في الأرض مرحاً » ، إن الله لا يحب كل مختال فخور ، (١) .

وقد أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بالتواضع ، ونهى عن التكبر والغرور ، وبين سوء عاقبة ذلك في أحاديث كثيرة ، منها ما رواه مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله تعالى - أوحى إلى أن تواضعوا ، حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد » ، (٢) .

وروى الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطراً » ، (٣) .

وروى الترمذي عن سلمة بن الأكوع قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لا يزال الرجل يذهب بنفسه - أى يرتفع ويتكبر - حتى يكتب في الجبارين - فيصديه ما أصابهم » ، (٤) .

ورحم الله القائل :

ولا تمتش فوق الأرض إلا تواضعا فكم تحتها قوم هموا منك أرفع
وإن كنت في عز وحرز ومنعة فكم مات من قوم هموا منك أضع

(١) سورة لقمان الآية ١٨ .

(٢) ، (٣) ، (٤) من كتاب رياض الصالحين ص ٢٨٥ للإمام النووي ،

ثم ختم - سبحانه - تلك التكالييف ، التي يغلب عليها طابع النهى عن الرذائل بقوله : وكل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها . .

واسم الإشارة ، ذلك ، يعود إلى ما تقدم ذكره من التكالييف والأوامر والنواهي ، التي لا يتطرق إليها النسخ ، والتي تبلغ خمسة وعشرين تسكليفا ، تبدأ بقوله - تعالى - لا تجعل مع الله إلها آخر ، ثم يأتي بعد ذلك النهى عن عقوق الوالدين ، والأمر بصلة الأرحام ، وبالعطف على المسكين وابن السبيل ، ثم النهى عن البخل ، والإسراف ، وقتل الأولاد ، والافتراء من الزنا ، وقتل النفس إلا بالحق ، والاعتداء على مال اليتيم . . إلخ .

والضمير في ، سيئه ، يعود إلى ما نهى الله عنه من أفعال ، كالشرك ، وعقوق الوالدين ، والزنا .

أي : كل ذلك الذي يبنأ لك فيما سبق ، كان الفعل السيء منه ، عند ربك مكروها ، أي : مبغوضا عنده - سبحانه - وأما الفعل الحسن كالوفاء بالعهد ، وإعطاء ذى القربى حقه ، فهو محمود عند ربك - عز وجل .

قال الألوسى : ووصف ذلك بمطلق المكراهة مع أن أكثره من الكبائر - كالشرك والزنا . . . - لا يذان بأن مجرد المكراهة عنده - تعالى - كافية في وجوب السكف عن ذلك .

وتوجيه الإشارة إلى السكف ، ثم تعيين البعض دون توجيهها إليه ابتداء ، لما قيل : من أن البعض المذكور جعلته ، بل على وجه الاختلاط لنسكتة اقتضته ، وفيه إشعار بكون ما عداه مرضيا عنده - سبحانه - .

ولما لم يصرح بذلك ، ليداننا بالغنى عنه ، أو اهتماما بشأن التنفير من النواهي . . . (١) .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : وكل ذلك كان سيئة ، بالتاء والتنوين .

وعلى هذه القراءة يكون اسم الإشارة ، يعود إلى المنهيات السابقة فقط ، ويكون المعنى : كل ذلك الذي نهيتك عنه في الآيات السابقة ، من الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وإتباع مالبس لك به علم ... كان اقتراحه سيئة من السيئات المبغوضة عند ربك ، المحرمة في شرعه ، المماقب مرتكبها .

ثم ختم - سبحانه - تلك الأحكام المحسنة ، والتكاليف السامية ، بقوله : ذلك ما أحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقي في جهنم ملوماً مدحوراً .

أى : ذلك الذى أمرناك به ، ونهيتك عنه - أيها الرسول الكريم - بعض ما أوحاه الله - تعالى - عليك من الحكمة ، التى هى علم الشرائع ومعرفة الحق ، والعمل به ، وحذار أن تجعل بعد هذا البيان الحكيم ، مع الله - تعالى - إلهاً آخر - أيها المخاطب - فتلقى وتطرح في جهنم ، ملوماً من نفسك ومن غيرك ، مدحوراً أى : مبعداً من رحمة الله - تعالى - .

قال صاحب الكشف : ولقد جعل الله - تعالى - فى تلك الآيات المشتملة على تلك الأوامر والنواهي - وخاتمها ، النهى عن الشرك ، لأن التوحيد هو رأس كل حكمة وملاكها ، ومن عدمه لم تنفعه حكمه وعلومه وإن بذفها الحكام ، وحك يافوخه السماء ، وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم وهم عن دين الله أهمل من النعم ، (١) .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة التى اشتملت على بضع وعشرين تكليفاً ، والى ابتدأت بقوله - تعالى - لا تجعل مع الله إلهاً آخر ... واقتمت بقوله - سبحانه - ولا تجعل مع الله إلهاً آخر ... قد ربطت قواعد السلوك والآداب : والتكاليف الفردية والاجتماعية ، بإخلاص العبادة لله - تعالى -

لأن هذا الإخلاص لله - تعالى - في العقيدة والعبادة والقول والعمل . . . هو رأس كل حكمة وملاكمها . كما قال صاحب الكشف - رحمه الله - .

وبعد أن ذكر - سبحانه - ما ذكر من الأوامر والنواهي في الآيات السابقة ، التي بدأها وختمها بالنهي عن الإشراك بالله - تعالى - أتبع ذلك بإقامة الأدلة على استحالة أن يكون له شريك أو ولد ، بل كل من في السموات ومن الأرض ، خاضع لسلطانه ، وما من شيء إلا ويسبح بحمده ، فقال - تعالى - :

« أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ ، وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ، إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا ، وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) » .

والخطاب في قوله - تعالى - : « أَفَأَصْفَاكُمْ » . . . ، للكافرين الذين قالوا ، الملائكة بنات الله .

والإصفا بالشئ : جعله خالصا . يقال : أصفى فلان فلانا بالشئ ، إذا أثر به . ويقال للأشياء التي يختص السلطان بها نفسه : الصوافي . وفعله صفا يصفو وتضمن هنا معنى التخصيص .

والاستفهام للانكار والتوبيخ والتهكم .

والمعنى - كما يقول صاحب الكشف - : أغضكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد ، وهم الذكور ، ولم يجعل فيهم فمديبا لنفسه ، واتخذ

أدوهم ، ومن البنات ، وأنتم لاترضونهن لأنفسكم ، بل تقتلوهن وقتلوهن ۱۱
فهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم . فإن العبيد لا يؤثرون
بأجود الأشياء وأصفأها من الشوب ، ويكون أردوها وأدونها
للسادات ، (١) .

والمقصود من الجملة السكرية نفي ما زعموه من أن الملائكة بنات الله بأبلغ
وجه ، أى : لم يخصكم ربكم بالبنين ؛ ولم يتخذ من الملائكة إناثا ، لأنه سبحانه
تفزه عن الشريك والولد والوالد والشيء .

قال - تعالى - : لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء ،
سبحانه هو الله الواحد القهار ، (٢) ،

وقال - تعالى - : إنا أنعم الذكور وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى ، (٣) .
وقوله - سبحانه - : إنا أنعم لتقولون قولاً عظيماً ، تسفيه لأقوالهم الباطلة
وأفكارهم الفاسدة ، وعقولهم السقيمة .

أى : إنا أنعم بنسبتكم البنات إلى الله - تعالى - ، لتقولون قولاً عظيماً في
قبحه وشناعته ، وفي استهجان العقول السليمة له ، وفيما يترقب عليه من عقوبات
أليمه من الله - تعالى - لكم .

قال - تعالى - : وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا إدا . تسكاد
السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن
ولدا . وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا . إن كل من في السموات والأرض
إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتية يوم القيامة
فردا (٤) ..

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٥٠ .

(٢) سورة الزمر الآية ٤ .

(٣) سورة النجم الآية ٢١ - ٢٢ .

(٤) سورة مريم الآيات من ٨٨ - ٩٥ .

ثم بين - سبحانه - أن هذا القرآن الذي أنزله على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - قد أشتمل على ألوان متعددة من الهدايات والآداب والأحكام ، فقال - تعالى - : ولقد صرفنا في هذا القرآن ليعذروا ، وما يزيدهم إلا نفورا . .
وقوله - تعالى - : « صرفنا » من تنصريف ، وهو في الأصل صرف - الشيء من حالة إلى أخرى ، ومن جهة إلى أخرى .

والمراد به هنا : بينا ، وكررنا ، ومفعوله محذوف للعالم به .

والمعنى : ولقد بينا وكررنا في هذا القرآن أنواعا من الوعد والوعيد ، والقصص ، والأمثال ، والمواعظ والأخبار ، والآداب والتشريعات ، ليتذكر هؤلاء الضالون ويتعظوا ويعتبروا ، ويوقنوا بأنه من عند الله - تعالى -
فبيدهم ذلك إلى اتباع الحق ، والسير في الطريق القويم .

وقوله - تعالى - : « وما يزيدهم إلا نفورا » تصوير بديع لإصرارهم على كفرهم وعنادهم ، وإيثارهم النفي على الرشد .

والنفور : التبعاد والإعراض عن الشيء . يقال : نفرت الدابة تنفر - بكسر الفاء وضمها - نفورا ، إذا جزعت وتباعدت وشردت .
أى : وما يزيدهم هذا البيان والتكرار الذي أشتمل عليه القرآن الكريم ، إلا تباعدا عن الحق ، وإعراضا عنه ، وعكوبا على باطلهم ، بسبب جحودهم وعنادهم وحسد للرسول - صلى الله عليه وسلم - على ما آناه الله من فضله .
وكان بعض الصالحين إذا قرأ هذه الآية قال : زادني لك خضوعا ، ما زاد أعداءك نفورا . .

ثم أمر الله - تعالى - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يوبخهم على شرهم ، وأن يسوق لهم الدلائل الواضحة على فساد عقولهم ، فقال - تعالى - :
قل لو كان معه آلهة كما يقولون ، إذا لا يتفوا إلى ذي العرش سيلا . .
٨١ - سورة الإسراء

وقد قرأ جمهور القراء ، كما تقولون ، وقرأ ابن كثير وحده عن عاصم
« كما يقولون » .

والمفسرين في تفسير هذه الآية إجماعان ، أما الاتجاه الأول فيرى أصحابه
أن المعنى :

قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين ، لو كان مع الله - تعالى -
آلهة أخرى - كما يزعمون - إذا لطلبوا إلى ذى العرش - وهو الله عز وجل -
طريقا وسبيلا لتوصلهم إليه ، لكي ينزعوه في ملكه ، ويقاسموه إياه ، كما
هي عادة الشركاء ، وكما هو ديدن الرؤساء والملوك فيما بينهم .

قال - تعالى - : ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل
إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحانه الله عما يصفون ، (١) .

وقال - سبحانه - : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا ، فسبحان الله رب
العرش عما يصفون ، (٢) .

وهذا الاتجاه قد صدر به صاحب الكشف كلامه فقال ما ملخصه : قوله
« إذا لا تبغوا إلى ذى العرش سبيلا » جواب عن مقالة المشركين وجزاء للـ « لا » .
أي : إذا لطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلا بالمغالبة ، كما يفعل الملوك
بعضهم مع بعض ... ، (٣) .

وأما الاتجاه الثاني فيرى أصحابه أن المعنى : قل أيها الرسول لهؤلاء
المشركين . لو كان مع الله - تعالى - آلهة أخرى - كما يزعمون - ، إذا لا تبغوا
- أي الآلهة المزعومة - إلى ذى العرش سبيلا وطريقا ليقتربوا إليه ،
ويعترفوا بفضلله ، ويخلصوا له العبادة ، كما قال - تعالى - : أولئك الذين

(١) سورة المؤمنون الآية ٩١

(٢) سورة الأنبياء الآية ٢٢

(٣) تفسير الكشف ج ٢ ص ٤٥٠

يدعون يبتغون إلى رحيم الوسيلة أيهم أقرب ، وبرجون رحمته ، وبخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محظورا ، (١)

وقد اقتصر ابن كثير على هذا الوجه في تفسيره للآية فقال: يقول - تعالى -: قل يا محمد هؤلاء المشركين الواعمين أن لله شريكا ، من خلقه ، لو كان الأمر كما تقولون ، من أن - مع آلهة تعبد . . . لكان أولئك المعبدون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة . . . ، (٢)

ومع وجاهة الرأيين ، إلا أن الرأي الأول أظهر ، لأن في الآية فرض المحال ، وهو وجود الآلهة مع الله - تعالى - ، وافتراض وجودها المحال لا يظهر منه أنها تقترب إليه - سبحانه - ، بل الذي يظهر منه أنها تنازعه لو كانت موجودة ، ولأن هذا الرأي يفاقمه - أيضا - قوله - تعالى - بعد ذلك : ، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا .

أى : تزه الله - تعالى - عما يقوله المشركون في شأنه وتباعد ، وعلوا علوا كبيرا ، فإنه - جل شأنه - لا ولد له ، فلا شريك له . . .

قال - تعالى - : قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد ،

والتعبير بقوله - سبحانه - : « إذا لا ابتغوا إلى ذى العرش سبيلا ، يشير إلى الإرتفاع والقسامى على تلك الآلهة المزعومة ، وأنهادون عرشه - تعالى - وتحتة ، وليس مع . . . ،

ثم بين - سبحانه - أن جميع الكائنات تسبح بحمده فقال - تعالى - : تسبح له السموات السبع ، والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، وليكن لا نفقهون تسبيحهم . . . ،

(١) سورة الإسراء الآية ٥٧

(٢) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٧٦

والتسبيح : مأخوذ من السبح ، وهو المر السربع في الماء أو في الهواء ، فالمسيح مسرع في تزييه الله وتبرأته من السوء ، ومن كل مالا يليق به - سبحانه - .
أى تزيه الله - تعالى - وتعبده ، السموات السبع ، والأرض ، ومن فيهن من الإنس والجن والملائكة وغير ذلك ، وما من شيء من مخلوقاته التى لا تحصى إلا ويسبح بحمد خالقه - تعالى - ، ولكن أنتم يا بنى آدم لأنفقهمون تسبيحهم ، لأن تسبيحهم بخلاف لغتكم ؛ وفوق مستوى فهمكم ، وإنما الذى يعلم تسبيحهم هو خالقهم عز وجل ، وصدق - سبحانه - إذ يقول : ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

والمتدبر فى هذه الآية السكريمه ، يراها تبعث فى النفوس الخشية والرهبة من الخالق .. عز وجل - ، لأنها تصرح بتصريحاً بليغاً بأن كل جماد ، وكل حيوان ، وكل طير ، وكل حشرة ... بل كل كائن فى هذا الوجود يسبح بحمده - تعالى - .

وهذا التصريح يحمل كل إنسان عاقل على طاعه الله ، وإخلاص العباد له ، ومداومة ذكره ... حتى لا يكون وهو الذى كرمه ربه وفصله أقل من غيره طاعة لله - تعالى - .

وقوله : إنه كان حليماً غفوراً ، تذييل قصد به بيان فضل الله - تعالى - ورحمته بعباده مع تقصيرهم فى تسبيحه وذكره .
أى : إنه كان حليماً ، لا يعاجل المقصر بالعقوبة ، بل يمهله لعله يرعوى وينزجر عن تقصيره ومعصيته ، غفوراً ، لمن تاب وآمن ونحل صالحاً واهتدى إلى صراطه المستقيم .

هذا ، ومن العلماء من يرى أن تسبيح هذه الكائنات بلسان الحال . قال بعض العلماء تسبيح هذه الكائنات لله - تعالى - هو دلالته بإمكانها وحدوثها ، وتغير شتونها ، وبديع صنعها ، على وجود مبدعها ، ووحدته ، وقدرته ، ونزهاها عن لوازم الإمكان والحدوث ، كما يدل الأثر على المؤثر .

فهي دلالة بلسان الحال ، لا يفقهها إلا ذووا البصائر . أما الكافرون فلا يفقهون هذا التسبيح ، انفرط جهلهم ، وانطماس بصيرتهم ... ،^(١)

ومنهم من يرى أن تسبيحها بلسان المقال ، أى أن التسبيح بمعناه الحقيقي . فالكل يسبح بحمد الله ؛ ولكن بلغته الخاصة التي لا يفهمها الناس .

قال الإمام ابن كثير مامفخصة : وقوله : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، أى : وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله » ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، أى : لا تفقهون تسبيحهم - أيها الناس - لأنها بخلاف لغتكم . وهذا عام في الحيوانات والنبات والجماد .

وهذا أشهر القولين كما ثبت في صحيح البخارى وغيره ، عن ابن مسعود أنه قال : « كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل »

وفى حديث أبى ذر : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أخذ فى يده حصيات ، فسمع لمن تسبيح كحنين النحل . وكذا فى يد أبى بكر وعمر وعثمان - رضى الله عنهم - وهو حديث مشهور فى المسانيد

ثم قال وبشهد لهذا القول آية السجدة فى أول سورة الحج - وهى قوله - تعالى - : ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض ، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب ،^(٢)

وقال القرطبى : قوله - تعالى - : « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فىهن » أعاد على السموات والأرض ضمير من يعقل ، لما أسند اليه فعل

(١) صفوة البيان لمعانى القرآن ج ١ ص ٥٧ ؛ لفضيلة الشيخ حنين مخلوف

(٢) الآية ١٨ من - سورة الحج وراجع تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٧٦

العاقل وهو التسييح . وقوله : ومن فيهن ، يريد الملائكة والإنس والجن ، ثم
عمم بعد ذلك الأشياء كلها في قوله : : وإن من شيء ، إلا يسبح بحمده ، .
وإختلف في هذا العموم هل هو مخصص أولا . فقالت فرقة : ليس
مخصوصا ، والمراد به تسييح الدلالة ، كل محدث يشهد على نفسه بأن الله
- عز وجل - خالق قادر .

وقالت طائفة : هذا التسييح - حقيقة ، وكل شيء على العموم يسبح تسييحا
لا يسمعه البشر : ولا يفقهه ، ولو كان ما قاله الأولون من أنه أثر الصفة
والدلالة ، لكان أمرا مفهوما ، والآية تنطق بأن هذا التسييح لا يفقه . . .
ويستدل لهذا القول من الكتاب بقوله - تعالى - : ولقد آتينا داود منا
فضلا يا جبال أوبي معه والطير . . .

وقوله - تعالى - . وأذكر عبدنا داود ذا الأيد أنه أواب . إنا سخرنا
الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ، . . .

ثم قال : فالصحيح أن الكل يسبح الأخبار الدالة على ذلك ، ولو كان
ذلك التسييح تسييح دلالة ، فأى تخصيص لداود ، وإنما ذلك تسييح المقال ،
يخلق الحياء والإنطاق بالتسييح . وقد نصت السنة على ما دل عليه ظاهر
القرآن من تسييح كل شيء فالقول به أولى (١)

والذى نطمئن اليه النفس أن التسييح حقيقى ولبسان المقال ، لأن هذا
هو الظاهر من الآية الكريمة ، ولأن الآيات القرآنية والاحاديث النبوية
تؤيد ذلك .

وبعد أن أقام - سبحانه - الأدلة على وحدانيته ، وأثبت أن كل شيء
يسبح بحمده ، أتبع ذلك ببيان أحوال المشركين عند سماعهم للقرآن الكريم،

وبيان ما جعله الله - تعالى - على حواسهم بسبب جحودهم وعنادهم ، فقال
- تعالى - :

« إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
حِجَابًا مَسْتُورًا (٤٥) وجعلنا على قلوبهم أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ
وَقْرًا ، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ ، وَلَوْ أَعْلَى أَدْبَارِهِمْ
نُفُورًا (٤٦) نحن أعلم بما يستمعُونَ به ، إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ
نَجْوَى ، إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَبْعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٤٧) انظر
كيفَ ضربوا الأمثالَ فضلوا فلا يستطيعون سبيلًا (٤٨) » .

والخطاب في قوله - تعالى - : « وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ » للرسول - صلى
الله عليه وسلم - وقوله « حِجَابًا » من الحجب بمعنى المنع .

قال صاحب المصباح : حِجْبُهُ حِجَابٌ - من باب قتل - منعه . ومنه قيل
لستر حِجَابٍ ، لأنه يمنع المشاهدة . وقيل للبواب : حاجب ، لأنه يمنع من
الدخول . والأصل في الحِجَاب : جسم حائل بين جسدين ، وقد استعمل في
المعاني ف قيل : العجز حاجب ، أى : بين الإنسان ومراده (١)

وقوله « مَسْتُورًا ، أى : ساترًا ، فهو من إطلاق لاسم المفعول وإرادة
ل اسم الفاعل . كيمون بمعنى يامن . ومشتوم بمعنى شاتم .

ولاختصار بعضهم أن مستورا على معناه الظاهر ، من كونه لاسم مفعول ،
لأن ذلك الحِجَاب مستور عن أعين الناس فلا يرونه ، أو مستورا به القارىء
فلا يراه غيره ويجوز أن يكون مستورا ، أى : ذا ستر فهو للنسب كما كان

محول : ذو هول . . وللمفسرين في تفسير هذه الآية أقوال ، أشهرها قولان :

أولها يرى أصحابه ، أن المراد بالحجاب المستور ، ما حجب الله به قلوب هؤلاء الكافرين عن الإنتفاع بهدى القرآن الكريم ، بسبب جحودهم وجهلهم وإصرارهم على كفرهم . فهو حجاب معنوى خفى ، حال بينهم وبين الإنتفاع بالقرآن .

فهم يستمعون اليه ، ولكنهم يجاهدون قلوبهم ألا ترق له ، ويمانعون فطرتهم عن التأثر به ، فكان إستماعهم له كعدمه ، وعاقبهم الله على ذلك بأن طمس بصائرهم عن فهمه .

والمعنى : وإذا قرأت - أيها الرسول الكريم - القرآن الهادى إلى الطريق التى هى أقوم ، جعلنا - بقدرتنا - ومشيتنا - بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة ، حجابا يحجبهم ويمنعهم عن إدراك أمراده وهداياته ، وساترا بينك وبينهم ، بحيث لا يصل القرآن إلى قلوبهم وصول لإنتفاع وهداية .

ويشهد لهذا المعنى قوله - تعالى - : وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا جاملون ، (١)

ومن المفسرين الذين إكتفوا بهذا القول ، فلم يذكروا غيره ، الإمام البيضاوى ، فقد قال - رحمه الله : قوله : وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا يحجبهم عن فهم ما تقرؤه عليهم « مستورا ، ذا ستر » كقوله - تعالى - « وعنده مأتيا » أو مستورا عن الحس . . . » (٢)

أما القول الثانى فىرى أصحابه : أن المراد بالحجاب المستور ، أن الله - تعالى - يحجب نبيه - صلى الله عليه وسلم - عن أعين المشركين ، بحيث لا يرونه فى أوقات معينة ، لحكم منها النجاة من شرورهم .

(١) سورة فصلت الآية ٥

(٢) تفسير البيضاوى ج ١ ص ٥٨٧

فيكرين المعنى : وإذا قرأت القرآن - أي الرسول الكريم - جعلنا بينك وبين هؤلاء الكافرين ، حجابا ساترا لك عنهم بحيث لا يروك ، عندما تكون المصلحة في ذلك .

وقد استشهد أصحاب هذا القول بما أخرجه الحافظ أبو يعلى عن أسماء بنت أبي بكر قالت : لما نزلت سورة ، ثبت يد أبي لُهب ، جاءت العوراء أم جميل ولها ولولة ، وفي يدها فهر - أي حجر - وهي تقول : مدعما أتينا ، وأمره عصينا ، ودينه قلينا : ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - جالس ، وأبو بكر إلى جنبه .

فقال أبو بكر : يا رسول الله ، لقد أقبلت هذه وأخاف أن تراك ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : إنما لي تراني ، وقرأ قرآنا لمعتصم به منها ، - ربما قرأه - : . وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا .

فجاءت حتى قامت على أبي بكر ، فلم تر النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فقالت : يا أبا بكر ، بلغني أن صاحبك هجاني : فقال أبو بكر : لا ورب هذا البيت ما هجاك .

فأنصرفت وهي تقول : لقد علمت قریش أني بنت سيدها ، (١)

ومن المفسرين الذين استظهروا هذا القول ، الإمام القرطبي ، فقد قال بعد أن ذكر ما روى عن أسماء بنت أبي بكر - رضی الله عنهما - : وقال سعيد بن جبیر : لما نزلت سورة ، ثبت يد أبي لُهب وتب ، جاءت امرأة أبي لُهب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ومعه أبو بكر ، فقال أبو بكر لو تمنحيت عنها لثلاث سمعك ما يؤذيك فإنها امرأة بذية .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : والله سيحال بيني وبينها ، فلم تره .
فقلت لأبي بكر : يا أبا بكر هجانا صاحبك .

فقال أبو بكر : والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله . فاندفعت راجعة .
فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أما رأيتك ؟

قال : لا . ما زال ملك بيني وبينها يسترني حتى ذهبت ،

ثم قال القرطبي : وقيل : الحجاب المستور ، طبع الله على قلوبهم حتى لا يفقهوه ؛ ولا يدركوا ما فيه من الحكمة . قال قتادة . وقال الحسن : أي أنهم لإعراضهم عن قراءتك ، وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجاب في عدم رؤيته لك ، حتى كان على قلوبهم أغطية . . .

ثم قال : والقول الأول أظهر في الآية ، (١)

ويبدو لنا أن كلا القولين صحيح في ذاته ، وأن كل واحد منهما يحكي حالات معينة ، ويشهد لذلك ما نقله الجمل في حاشيته على الجلالين عن شيخه فقد قال - رحمه الله - . قوله : حجابا مستورا ، أي : سائر لك عنهم فلا يروئك وهذا بالنسبة لبعضهم ، كان يحجب بصره عن رؤية النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا أراد ، بمكره وهو يقرأ القرآن ؛ وبعضهم كان يحجب قلبه عن إدراك معاني القرآن . . . وبعضهم كان ينفر عند قراءة القرآن .. (٢)

وقوله - تعالى - : : وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولولن على أذبارهم نفورا ، يؤكد أن المشركين كانوا طوائف متعددة بالنسبة لموقفهم من القرآن الكريم ، ومن النبي - صلى الله عليه وسلم -

أي : وجعلنا على قلوب هؤلاء الذين يؤمنون بالآخرة دأكنة أن يفقهوه .
أي : أغطيه تسترها وتمنعها من فقه القرآن الكريم ، وفهمه فهما سليما .

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٦٩

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢٦٨ - بتصريف وتلخيص -

وجعلنا - أيضا - : « في آذانهم وقرا ، أى : صمما وثقلا عظيمًا يمنهم من سماعه سمعا يفقههم .

وقوله - سبحانه - : « وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولما على أدبارهم نفورا ، بيان لرديلة أخرى من رذائلهم المتعددة .

أى : « وإذا ذكرت أيها الرسول الكريم - ربك في القرآن وحده . دون أن تذكر معه آلهتهم المزعومة المفضو من حولك ورجعوا على أعقابهم نافرين شاردين ، كأنهم حرم مستنفرة . فرت من قسورة » .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد صبرا قبايح المشركين المتنوعة أبلغ تصوير ، لتزيد في فضيحتهم وجهلهم ، واتجاه المؤمنين يزدادون إيمانا على إيمانهم .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال علمه ، وأنه - تعالى - سيجازى هؤلاء الكافرين بما يستحقون من عقوبات ، فقال - عز وجل - نحن أعلم بما يستمعون به . إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى ، إذ يقول الظالمون إن تتبععون إلا رجلا مسحورا .

والياء فى قوله - سبحانه - « بما يستمعون » متعلقة بأعلم . ومفعول « يستمعون » محذوف ، تقديره ، القرآن .

قال الألوسى : قوله : « نحن أعلم بما يستمعون به » أى : متلبسين به من اللغو والاستخفاف ، والاستهزاء بك وبالقرآن . يروى أنه - صلى الله عليه وسلم - كان يقوم عن يمينه رجلا من بنى عبد الدار ، وعن يساره رجلا منهن ، فيصفقون ويصفرون ويحيطون عليه بالأشعار - إذا قرأ القرآن - .

ويجوز أن تكون الباء للسببية أو بمعنى اللام . أى : نحن أعلم بما يستمعون بسببه أو لأجله من الهزء ، وهم متعلقة يستمعون ... وأفعلة تفضيل فى العلم والجهل يتعدى بالباء ، وفى سوى ذلك يتعدى باللام ، فيقال : هو أكسى

للفقراء ، والمراد من كونه - سبحانه - أعلم بذلك : الوعيد لهم ... (١) .

وإذ في قوله : إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى ، ظرف لأعلم .

ولفظ : نجوى ، مصدر بمعنى التجاوى والمسارة في الحديث . وقد جعلوا عين النجوى على سبيل المبالغة ، كما في قولهم : قوم عدل .

ويجوز أن يكون جمع نجى ، كقمتلى جمع قتيل ، أى : وإذا هم متناجون في أمرك .

والمعنى : نحن - أيها الرسول الكريم - على علم تام بأحوال المشركين عند استماعهم للقرآن الكريم . حين تملوه عليهم ، وبالطريقة التي يستمعون إليك . وعلى علم تام بأحوالهم حين يستمعون إليك فرادى ، وحين يستمعون إليك ثم يتناجون فيما بينهم بالإثم والعدوان ، والتواصي بمصيتك .

فأجلة الكريمة وعيد شديد للمشركين على استماعهم المصحوب بالاستهزاء والسخرية من الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن القرآن ، وتسليته - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم ، وبيان لشمول علم الله - تعالى - لكل أحوالهم الظاهرة والخفية .

وقوله - تعالى - : إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ، بدل من قوله - تعالى - : وإذ هم نجوى ، .

والمسحور . هو الذي سحر فاختلط عقله ، وزالت عنه الهيئة السوية .

أى : ونحن أعلم بهؤلاء الأشقياء - أيضا - عندما يقول بعضهم لبعض : لا تتبعوا محمدا - صلى الله عليه وسلم - فيما يدعو إليه ، فإنكم إن اتبعتموه تكونون قد اتبعتم رجلا مسحورا ، أصابة السحر فأخرجه عن وعيه وعقله .

وقال - سبحانه - « إذ يقول الظالمون ، بالإظهار دون الإضمار ، لتسجيل
الظلم عليهم فيما تفوهوا به ، وأنهم سيستحقون عقوبة الظالم .

وقوله - تعالى - « انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون
سبيلا ، تسلية عظيمة - للرسول - صلى الله عليه وسلم ، وتثبيت له والمؤمنين
على الطريق الحق الذي هداهم الله - تعالى - إليه .

أى : انظر وتأمل - أيها الرسول الكريم - كيف أن هؤلاء المشركين ،
قد بلغ بهم الجحود والفجور ، أنهم مثلوا لك الأمثال ، فوصفوك قارة بأفك
مسحور ، وقارة بأنك شاعر .

وهم في وصفهم هذا ، قد ضلوا عن الحق ضلالا بعيدا ، وصاروا كالخيران
الذي التبست عليه الطرق ، فأمسى لا يعرف السبيل الذي يسلكه .

هذا ، وقد ذكر الإمام ابن كثير رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآيات ،
ما يدل على أن المشركين كانوا يستمعون إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم -
عند قراءته للقرآن ، فقال :

قال محمد بن إسحاق في السيرة : حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ،
أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والآخر بن
شريق ... خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
وهو يصلي بالليل في بيته ، فأخذ كل واحد منهم مجلسا يستمع إليه ، وكل لا يعلم
بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . حتى إذا
تفرقوا . حتى إذا جمعهم الطريق ، قتلوا وموا ، وقال بعضهم لبعض :
لا تعودوا ، فلو رأيكم بعض سفهائكم لا وقعتم في نفسه شيئا ، ثم انصرفوا ،

حتى إذا كانت الليلة القابلة ، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا
يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . حتى إذا جمعهم الطريق ، فقال
بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة ، أخذ كل رجل منهم مجلسه . فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : حتى نتعاهد لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأحنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان ابن حرب في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد - صلى الله عليه وسلم - ؟ فقال أبو سفيان : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها . ولا ما يراد بها .

فقال الأحنس : وأنا والذي حملت به . قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل . فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد - صلى الله عليه وسلم - ؟ قال : ماذا سمعت ؟ اتنازعت وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا وأعطينا ، حتى إذا نتجائنا على الركب ، وكنا كفارس رهان قالوا : منا بنى يأتيه الوحي من السماء ، فنتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدق به . قال : فقام عنه الأحنس وتركة (١) .

ثم حكى - سبحانه - أقوالهم الباطلة ، في شأن البعث والحساب يوم القيامة ورد عليها بما يزهق باطلهم ، فقال - تعالى - :

« وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرِفَاقًا ، أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ، فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ، قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ

رءوسهم ويقولون متى هو ، قل عسى أن يكون قريباً (٥١) يوم
يدعوكم فتستجيبون بحمده ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً (٥٢) .

قال الإمام الرازي : اعلم أنه - تعلم لما تكلم أولاً في الإلهيات ، ثم أتبعه
بذكر شهراتهم في النبوات ، ذكر في هذه الآية شهادة القوم في إنكار المعاد
والبعث والقيامة ... (١) .

والرفات : ما تكسر وبلى من كل شيء كالفتات . يقال : رفت فلان الشيء
يرفته - بكسر الفاء وضحا - ، إذا كسره وجعله يشبه التراب .
والاستفهام في قوله - تعالى : - «أئذا كنا...» وفي قوله «أئنا لمبعوثون...»
للاستبعاد والإنكار .

أى : وقال الكافرون المنكرون لوحدانية الله - تعالى - ، ولنبيوة النبي -
صلى الله عليه وسلم - ، ولبعث والحساب ، قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم -
على سبيل الإنكار والاستبعاد ، أئذا كنا يا محمد ، عظاماً بالية ، ورفاتاً يشبه
التراب في تفتته ودقته ، أئنا لمعادون إلى الحياة مرة أخرى ، بحيث تعود إلينا
أرواحنا ، وتدب الحياة فينا ثانية ، فبعث على هيئة خلق جديد ، غير الذي
كنا عليه في الدنيا ؟

وقولهم هذا ، يدل على جهلهم المطبق ، بقدره الله - تعالى - التي لا يعجزها
شيء . وكرر - سبحانه - الاستفهام في الآية الكريمة ، الإشعار بإيغالهم في
الجهود والإنكار .

والعامل في «إذا» ، مخذوف ، والتقدير : أنبعث أو أنحشر إذا كنا عظاماً
ورفاتاً ، وقد دل على هذا المخذوف قوله - تعالى - : «مبعوثون» .

وقوله - سبحانه - : «قل كفوا حجارة أو حديد أو خلقاً بما يكبر في

صدوركم ، أمر من الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - بالرد عليهم فيما استبعده وأذكروه من إعادتهم إلى الحياة بعد موتهم .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل الرد على استبعادهم ، والتحقير من شأنهم ، والتعجيز لهم : « كوفوا » - إن استطعتم - « حجارة ، كالتي تعبدونها من دون الله ، أو حديدًا ، كالذي تستعملونه في شئون حياتكم ، أو ، كوفوا ، خلقًا ، أى : مخلوقًا سوى الحجارة والحديد مما يكبر ، أى : يعظم ويستبعد ، في صدوركم ، المظلمة قبوله للحياة ، قل لهم : كوفوا أى شيء من ذلك أو غيره إن استطعتم - ، فإن الله - تعالى - لا يعجزه أن يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى ، لكي يناسبكم على أعمالكم ، ويجازيكم عليها بما تستحقون من عقاب .

فالمنصود من الجملة الكريمة ، ببيان أن قدرة الله - تعالى - لا يعجزها شيء ..

قال الجمل : أجاهم الله - تعالى - بما معناه : تحولوا بعد الموت إلى صفة نزعون أنها أشد دناقة للحياة ، وأبعد عن قبولها ، كصفة الحجرية والحديدية ونحوهما . فليس المراد الأمر ، بل المراد أنكم لو كنتم كذلك لما أعجز ثم الله - تعالى - عن الإعادة ، (١) .

وقوله - تعالى - : « فسيقولون من يعيدنا ، أى : فسيقولون لك - أيها الرسول الكريم - من يعيدنا إلى الحياة مرة أخرى بعد أن نكون حجارة أو حديدًا أو غيرهما ؟

وقوله - سبحانه - : « قل الذى فطركم أول مرة ، رد على جهالاتهم وإنكارهم للبعث والحساب .

أى : قل لهم : الله - تعالى - الذى فطركم وخلقكم ، أول مرة ، على غير

مثال سابق ، قادر على أن يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى . كما قال - تعالى - :
 ، وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى
 السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، (١) .

ثم بين - سبحانه - ما يكون منهم من استهزاء وسوء أدب عندما يسمعون
 من الرسول - صلى الله عليه وسلم - هذه الإجابات السديدة ، فقال : ، فينفضون
 لآبائكم رؤوسهم ويقولون متى هو ، .

أى : فسيحرجون لآبائكم رؤوسهم عندما يسمعون ردك عليهم ، ويقولون
 على سبيل الاستهزاء والسخرية والتكذيب ، متى هو ذلك اليوم الذى سنعود
 فيه إلى الحياة بعد أن نصير عظاما ورقا .

فأجملته السكرية تصور تصويرا بليغا ما جلبوا عليه من تكذيب بيوم القيامة
 ومن استهزاء بمن يدكرهم بأحوال ذلك اليوم العصيب ، ومن استبعاد الحصول
 كما قال - تعالى - : حكاية عنهم فى آية أخرى . ويقولون متى هذا الوعد إن
 كنتم صادقين ، .

وقوله - تعالى - : دقل عسى أن يكون قريبا ، تذييل قصد به التهديد
 والوعيد لهم .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل التأنيب والوعيد : عسى
 هذا اليوم الذى تستبعدون حصوله ، يكون قريبا جدا وقوعه .

ولاشك فى أنه قريب ، لأن عسى فى كلام الله - تعالى - لما هو محقق
 الوقوع ، وكل ما هو محقق الوقوع فهو قريب ، ولأن الرسول
 - صلى الله عليه وسلم - قال : بعثت أنا والساعة كهاتين - وأشار بالسبابة
 والوسطى - .

ثم بين - سبحانه - أحوالهم عندما يدعون فى هذا اليوم المائل الشديد
 فقال : د يوم يدعونكم فتستجيبون بحمده

(١) سورة الروم الآية ٢٧ .

والظرف « يوم » منصوب بفعل مضمر أى : اذكروا يوم يدعوكم... ، ويجوز أن يكون منصوبا على البدلية من « قريبا » .

والداعى لهم هو « لإسرائيل » - عليه السلام - عندما يأذن الله - تعالى - له بالنفخ فى الصور ، كما قال - تعالى - : « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله » ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ،^(١) . وكما قال - سبحانه - : فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شىء أنكر . خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . مطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر ،^(٢) .

وقوله « بحمده » ، حال من ضمير المخاطبين وهم الكفار ، والباء للملابسة .

أى : اذكروا - أيها المكذبون - يوم يدعوكم الداعى إلى البعث والنشور فتلبون نداه بسرعة وانقياد ، حال كونهم حامدين لله - تعالى - على كمال قدرته ، وناسين ما كنتم تزعمون فى الدنيا من أنه لا بعث ولا حساب ...

قال صاحب الكشف : وقوله « بحمده » ، حال منهم . أى : حامدين وهى مباغة فى انتقادهم للبعث ، كقولك لمن تأمره بركوب ما يشق عليه فيتأني ويتمنع ، ستركه وأنت حامد شاكر ، يعنى : أنك تحمل عليه وتفسر قسرا ، حتى أنك تلين لين فأسمح - أى الذليل - الراغب فيه ، الحامد عليه .

وعن سعيد بن جبیر : ينفذون القراب عن رموسهم ويقولون : سبحانه اللهم وبحمدك ،^(٣) .

وقوله « فستنجييون بمعنى نجيبون ، إلا أن الاستجابة تقتضى طلب الموافقة ، فهى أؤكد من الإجابة ، وأمرع فى التلبية .

(١) سورة الزمر . الآية ٦٨

(٢) سورة القمر . الآيات ٦ ، ٧ ، ٨

(٣) تفسير الكشف ج ٢ ص ٦٧٢

وجملة ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلا ، حالية ، أى : والحال أنكم تظنون عند بعثكم أنكم مالبثتم في الدنيا أو في قيوركم إلا زمنا قليلا .

قال قتادة : إن الدنيا تحقرت في أعينهم وفككت ، حين رأوا يوم القيامة ، هول ما يرون فقالوا هذه المقالة .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين (١) .

وقوله - تعالى - : ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون .

قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا؟ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون (٢) .

وقوله - تعالى - : كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها (٣) .

ثم ترك القرآن الكريم أولئك الذين كفروا بالبعث والنشور في طغيانهم يعمهون ، ووجه خطابه إلى المؤمنين ، أمرا إياهم بأن يقولوا الكلمة الطيبة ، ومبيناً لهم ولغيرهم ، أن مصائرهم بيد الله - تعالى - وحده ، فقال - تعالى - :

« وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَزْغِي بِهِمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا (٥٣) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ، إِنَّ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ، وَإِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ، وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (٥٥) » .

قال القرطبي : قوله - تعالى - : « وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » الآية

(١) سورة المؤمنون الآية ١١٢ ، ١١٣

(٢) سورة يس الآيات ٥١ ، ٥٢

(٣) سورة النازعات الآية ٤٦

نزلت في عمر بن الخطاب . وذلك أن رجلاً من العرب شتمه ، وسبه عمر وهم بقتله ، فكادت تثير فتنة ، فأنزل الله فيه : « وقل أعبادى يقولوا التي هي أحسن » . وقيل : نزلت لما قال المسلمون : لإيذن لنا يا رسول الله في قتال المشركين ، فقد طال إيذاؤهم لنا فقال : « لم أؤمر بعد بالقتال » (١) .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لعبادى المؤمنين ، أن يقولوا عند محاورتهم لغيرهم ، الكلمة التي هي أحسن ، والعبارة التي هي أرق وألطف . وذلك لأن الكلمة الطيبة ، تزيد في المودة التي بين المؤمنين ، وتكسر حدة العداوة التي بينهم وبين أعدائهم .

قال - تعالى - : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، أدفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » (١) .

قال الألوسى : ومقول فعل الأمر محذوف ، أى : قل لهم قولوا التي هي أحسن يقولوا ذلك . فجزم يقولوا لأنه جواب الأمر . وإلى هذا ذهب الأخفش .

وقال الزجاج : إن قوله « يقولوا » هو المقول ، وجزمه بلام الأمر محذوفة ، أى : قل لهم ليقولوا ... (١) .

وقوله - سبحانه - : « إن الشيطان ينزغ بينهم » ، تعليل الأمر السابق .

أى : إن الشيطان يتربص بكم ، ويتلمس السقطات التي تقع من أفواهكم ، والعثرات التي تنطق بها ألسنتكم ، لكي يسمع الشر بينكم ، ويبذر بذور السوء والبغضاء في صفوفكم ، ويهيج أعداءكم عليكم .

وينزغ بمعنى يفسد . يقال : نزغ - كنزعه - ينزغه ، إذا طعن فيه وأغتابه .

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٧٦

(٢) سورة فصلت الآية ٣٤

(٣) تفسير الألوسى ج ١٥ ص ٩٤

وقوله : « إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً ، تعليل الحرص الشيطان على الإفساد بينهم .

أى إن الشيطان حريص على الإفساد بين الناس ، لأنه ظاهر العداوة لهم منذ القدم ولقد حذرنا الله - سبحانه - من الشيطان وكيدته في كثير من آيات القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه ليسكوفوا من أصحاب السعير » (١) .

وقوله - تعالى - : « يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءتهما ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » (٢) .

قال الإمام ابن كثير مامليخصه : يأمر الله - تبارك وتعالى - عبده ورسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يأمر عباد الله المؤمنين ، أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاوراتهم الكلام الآسن ، والكلمة الطيبة ، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزع الشيطان بينهم ، وأخرج الكلام إلى الفحال ، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة ، فإنه عدو لآدم وذريته ... وعداوته ظاهرة بينه ، ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة ، فإن الشيطان ينزع في يده . أى : فربما أصابه بها .

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدرى أحدكم ، لعل الشيطان أن ينزع في يده ، فيقع في حفرة من النار » (٣) .

ثم بين - سبحانه - أن مصير جميع الخلائق إليه ، وأنه محبط بأحوالهم فقال . ربكم أعلم بكم ، إن يشأ يرحمكم ، وإن يشأ يعذبكم ،

(١) سورة فاطر . الآية ٦

(٢) سورة الأعراف . الآية ٢٧

(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٥

أى : ربكم - أيها الناس - أعلم بكم من أنفسكم ، وهو - سبحانه -
 لأن يشاء بفضله يرحمكم ، أن يوفقكم لطاعته وتقواه ، وإن يشأ بعدله يعذبكم ،
 بسبب معاصيكم وفسوقكم عن أمره ، لا يسأل - عز وجل - عما يفعل ،
 إلا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

وقوله - تعالى - : وما أرسلناك عليهم وكيلًا ، بيان لو خليفة الرسول
 - صلى الله عليه وسلم -

أى : وما أرسلناك - أيها الرسول الكريم - إلى الناس ، لتكون
 حفيظًا ورقياً ، وهو كولا إليك أمرهم في إجبارهم وإكراههم على الدخول
 في الإسلام ، وإنما أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله يأذنه
 وسراجاً منيراً .

ثم لا نقول - سبحانه - من بيان كل علمه بأحوال الناس ، إلى بيان كل
 علمه بجميع من في السموات والأرض ؛ فقال - تعالى - : وربك أعلم
 بمن في السموات والأرض ، .

أى : وربك - أيها الرسول الكريم - أعلم بأحوال من في السموات
 والأرض من إنس وجن وملاك ، وغير ذلك ، ولا يخفى عليه شيء من خواهرم
 أو بواطنهم ، ولا يعزب عن علمه - تعالى - شيء من طاعتهم أو معصيتهم ،
 ولا يعلم أحد سواه من هو أهل منهم للتشرف بحمل رسالته ، وتبليغ وحيه
 كما قال - تعالى - : د الله أعلم حيث يجعل رسالته .

وقوله - سبحانه - : ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتيناهم
 ذبوا ، بيان لمظاهر من مظاهر علمه المطلق ، وفضله العميم . وعظاته الواسع
 والذبور : هو الكتاب الذي أنزله الله - تعالى - على داود - عليه السلام
 أى : ولقد فضلنا - على علم وحكمة منا - بعض النبيين على بعض ، بأن
 جعلنا منهم من كلم الله ، ومنهم من اتخذناه خليلاً لنا ، ومنهم من آتيناهم
 البينات وأيدناه بروح القدس ، ومنهم من آتيناهم الذبور وهو داود - عليه السلام -

قال الإمام ابن كثير : وقوله - تعالى - : « ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ، وقوله - تعالى - « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، لا ينافي ما ثبت من الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا تفضلوا بين الأنبياء » ، فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشبه والعصبية ، لا بمقتضى الدليل ، فإذا دل الدليل على شيء وجب إتباعه ، ولا خلاف أن الرسل أفضل عن بقية الأنبياء ، وأن أولى العزم منهم أفضلهم ، وهم الخمسة المذكورون نصاً في قوله - تعالى - : « وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ، . . . »

ولا خلاف في أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - أفضلهم . . . (١) وإنما خص كتاب داود بالذكر ، لأن اليهود زعموا أنه لاني بعد موسى ، ولا كتاب بعد التوراة ، فكذبهم الله - تعالى - في ذلك ، ولأن في هذا الإيتاء إشارة إلى أن تفضيل داود لم يكن بسبب ما أعطاه الله من ملك ، بل بسبب ما أعطاه من كتاب فيه إشارة إلى تفضيل الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأمه ، قال - تعالى - : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ، (٢)

والمراد بالعباد الصالحين : محمد - صلى الله عليه وسلم - وأمه . قال صاحب الكشف : فإن قلت : هل أعرف الزبور ، كما عرف في قوله : « ولقد كتبنا في الزبور ، . . . » ؟

قلت : يجوز أن يكون الزبور وزبور ، كالعباس وعباس ، والفضل وفضل . ويجوز أن يريد : وآتيناه داود بعض الزبور - وهي المكتب ، وأن يريد ما ذكر فيه - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الزبور ، فعمى ذلك زبوراً ، لأنه بعضها كما سمى بعض القرآن قرآناً ، (٣)

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٦

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٥

(٣) تفسير الكشف ج ٢ ص ٧٢

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يتحدى المشركين، بأن يبين لهم : أن آلهتهم المزعومة لا تملك دفع الضر عنهم ، أو جلب الخير لهم ، بل إن هذه الآلهة لتخاف عذاب الله ، وترجو رحمته ، فقال - سبحانه - :

« قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ ، فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ، وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) » .

أورد المفسرون في سبب نزول هاتين الآيتين روايات منها :
قال ابن كثير : قال العوفي عن ابن عباس في قوله : « قل أدعوا الذين زعمتم من دونه » .

قال : كان أهل الشرك يقولون نعبد الملائكة والمسيح وعزيرا .

وروى البخاري وغيره عن ابن مسعود في قوله : « أولئك الذين يدعون ، قال : كان ناس من الإنس يعبدون ناسا من الجن ، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء - أي الإنس - بدينهم فنزلت هذه الآية » (١) .

وقال القرطبي : لما ابتليت قريش بالقحط ، وشكوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، أنزل الله هذه الآية : « قل أدعوا الذين زعمتم من دونه » (٢) .

والمراد بالزعم هنا : الظن الكاذب الذي لا أساس له من الحقيقة والواقع . قال الألوسي ماملخصه : والزعم قريب من الظن ، ويقال إنه القول

(١) تفسير ابن كثير > ٣ ص ٤٦

(٢) تفسير القرطبي > ١٠ ص ٢٧٩

المشكوك فيه ، ويستعمل بمعنى الكذب ، حتى قال ابن عباس : كل ماورد في القرآن زعم فهو كذب .

وقد يطلق على القول اغحقي ، والصدق الذي لا شك فيه . . . فقد ورد عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : زعم جبريل كذا

وهو مما يتعدى إلى مفعولين ، وقد حذفنا ، أى : زعمتموه آلهة . .
والظاهر أن المراد من الموصول - الذين - كل من عبد من دون الله من العقلاء ، (١)

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين الذين أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى في العبادة . قل لهم على سبيل الإرشاد والتجدي : هذه الآلهة التي تعبدونها ، اطلبوا منها أن تدفع عنكم ما تزن بكم من ضر كمرض أو فقر أو قحط ، أو أن تحوله منكم إلى غيركم . . .

فإذا لم تستطع ذلك - وهي بكل تأكيد لا تستطيع وإن استطيع - فاتركوا عبادتها ، وأخلصوا العبادة والطاعة لمن هو على كل شيء قدير ، وهو الله - عز وجل - .

وأكتفي - سبحانه - بذكر كشف الضر ، لأنه هو الذي تتطلع إليه النفوس عند نزول المصائب ، أكثر من تطلعها إلى جلب النفع ، إذ عند نزول الضر ، لا تشغل الألسنة والقلوب إلا برجاء كشفه .

ثم بين - سبحانه - أن كل معبود - سوى الله - عز وجل - يفتقر إلى عونيه - سبحانه - ، وإلى رجاء الثواب منه ، وإلى دفع العذاب عنه ، فقال - تعالى - :
« أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه . . . ، واسم الإشارة « أولئك » يعود على المعبودين من دون الله ، وهو مبتدأ ، وخبره .

قوله : « يبتغون وما عطف عليه من قوله : « ويرجون رحمته ويخافون عذابه » .

والضمير في « يدعون » يعود إلى المشركين ، وفي « يبتغون » يعود إلى المعبودين و « إيهيم » بدل مراد الفعل في « يبتغون » و « أقرب » خير لمبتدأ محذوف ، تقديره : هو أي : يبتغيها الذي هو أقرب ، والجملة صلة أي .
والوسيلة : ما يتقرب به الإنسان إلى خالقه من الأعمال الصالحة .

والمعنى : أو تلك المعبودون الذين يزعم المشركون أنهم آلهة . ويسمونهم أربابا ، وينادونهم لكشف الضر عنهم ، هؤلاء المعبودون « يبتغون إلى ربهم الوسيلة إيهيم أقرب » .

أي : يتقربون إلى خالقهم وما لك أسرهم بصالح الأعمال ، ويبتغى أكثرهم صلاحا وطاعة لله - تعالى - الرضا منه - عز وجل -

وإذا كان هذا شأن أكثرهم قربا فكيف يكون حال من هو أقل منه ؟
لا شك أنه يكون أشد طلبا لرضا الله تعالى - وعفوه ، وأشد حرصا على طاعته

وقوله - تعالى - « ويرجون رحمته ويخافون عذابه » زيادة بيان لشدة حرص هؤلاء المعبودين على طاعة الله - تعالى -

أي : وهم فوق ذلك يرجون رحمة الله - تعالى - وفضله ، بأن يحشرهم مع الأبرار ، ويخشون عذابه ونقمته ؛ ويتضرعون إليه أن ينجيهم عذاب النار ، وبالرجاء والخشية يحثي الصالحون الأخيار ، إذ الرجاء يدفع المؤمن إلى الإكثار من العمل الصالح ، والخشية تمنعه من الوقوع في المعاصي .

وقوله - تعالى - : « إن عذاب ربك كان محذورا ، تذييل قصد به التعليل لما قبله وهو خوف العذاب .

أى : إن عذاب ربك كان جديرا وقينا بأن يحذر ، ويحترق منه كل عاقل .
 وقدم - سبحانه - الرجاء على الخوف ، لأن متعلقه أسبق ، ولأنه
 يخاف الله - تعالى - أظهر ، ففي الحديث القدسي : « إن رحمتي سبقت غضبي » .
 هذا ، وشبه هذه الآية قوله - تعالى - : « قل ادعوا الذين زعمتم من دون
 الله ، لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، وما لهم فيهما من
 شرك ، وما له منهم من ظهير » (١) .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد قررنا بأسلوب منطقي بليغ ، أن الله
 - تعالى - هو الخالق لكل شيء ، وأنه وحده هو المتصرف في شؤون عباده ،
 وأن كل مخلوق سواء - سبحانه - محتاج إلى عونه وعفوه ورضاه ، وأن الذين
 زعمهم المشركون آلهة كهيسي وعزير والملائكة ... ما هم إلا من عباد الله
 الذين يبتغون إليه الوسيلة ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه .

ثم مذاق - سبحانه - سنة من صفاته التي لا تتخلف ، وبين جانبا من
 مظاهر فضله على هذه الأمة ونبيها - صلى الله عليه وسلم - . فقال - تعالى - :

« وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، أَوْ مُعَذِّبُوهَا
 عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) وَمَا مَنَعَنَا أَنْ
 نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ، وَآتَيْنَا نُوحًا الْبَاقَةَ مُبْشِرَةً
 فَظَلَمُوا بِهَا ، وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ
 أَحَاطَ بِالنَّاسِ ، وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ
 الْمُلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠) » .

والمقصود بالقرية في قوله - تعالى - : « وإن من قرية إلا نحن مهلكوها

قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً : قرى الكفار والظالمين ، كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين ، فيكون المعنى :

وما من قرية من قرى الظالمين ، إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة بالموت أو الخراب ، أو معذبوها عذاباً شديداً ، يستأصل شأفتها ، ويقطع دابرها ، كما فعلنا مع قوم فوح وعاد ونمود وغيرهم .

ومن المفسرين الذين ساروا على ذلك ، الإمام ابن كثير ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : هذا إخبار من الله - عز وجل - ، بأنه قد حتم وقضى ، بما كتب ، عنده في اللوح المحفوظ ، أنه ما من قرية إلا سيهلكها ، بأن يبيد أهلها جميعهم ، أو يعذبهم عذاباً شديداً ، إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء ، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم ، كما قال - تعالى - عن الأمم الماضية : وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخذهم أليم شديد ، (١) .

ويرى آخرون ، أن المقصود بالقرية هنا : القرى كلها سواء أكانت للمؤمنين أم للكافرين .

ومن المفسرين الذين ذهبوا إلى ذلك الألوسي - رحمه الله - فقد قال : قوله - تعالى - : « وإن من قرية ، الظاهر العموم ، لأن ، إن ، نافية ، ومن ، زائدة لاستغراق الجنس . أي : وما من قرية من القرى ، إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة ، بإماتة أهلها حتف أنوفهم أو معذبوها عذاباً شديداً ، بالقتل وأنواع البلاء ... وروى عن مقاتل أنه قال : الهلاك للصالحة والعداب للظالمة ... » (٢) .

ويبدو لنا أن الرأي الأول أقرب إلى الصواب ، لأن هناك آيات كثيرة تؤيده ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون » (٣) . وقوله - سبحانه - : « ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٧ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١٥ ص ١٠٠ .

(٣) سورة القصص الآية ٥٩ .

وأهلها غافلون،^(١) . وقوله - عز وجل - : وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون،^(٢) ، ولأن الله - تعالى - قيد الإهلاك بكونه قبل يوم القيامة ، وكونه كذلك يقتضى أنه للقرى الظالمة . إذ الإهلاك يوم القيامة يشمل جميع القرى ، سواء أكان أهلها مؤمنين أم كافرين ، بسبب انقضاء عمر الدنيا .

وقوله - سبحانه - : ما كان ذلك في الكتاب مسطورا ، يؤكد لقضاء الله النافذ ، وحكمه الثابت .

أى : ما كان ذلك ، الإهلاك والتعذيب ، في الكتاب ، وهو اللوح المحفوظ مسطورا ، أى : مكتوبا وثابتا .

قال القرطبي : مسطورا ، أى : مكتوبا . والسطر : الخط والكتابة ، وهو فى الأصل مصدر . والسطر - بالتجريك - مثله ، وهو جمع أسطر ، مثل سيب . وجمع السطر - بسكون الطاء - أسطر وسطور مثل أفلس وفلوس . والكتاب هنا يراد به اللوح المحفوظ ،^(٣) .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على الأمة الإسلامية ، ورحمته بها ، فقال - تعالى - : وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ... ، وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية آثارا منها ما أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : سأل أهل مكة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يجعل لهم الصفا ذهابا ، وأن ينحى الجبال عنهم فيزعموا . فقيل له : إن شئت أن تستأنى بهم ، وإن شئت أن يأثمهم الذى سألوا . فإن كفروا ، هللكوا كما هلكت من كان قبلهم من الأمم .

(١) سورة الأنعام الآية ١٣١ .

(٢) سورة هود الآية ١١٧ .

(٣) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٨٠ .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : « لا بل استأني بهم ، ، وأنزل الله قوله :
« وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » (١)

قال الألوسي : والمنع لغة : كلف الغير وقصره عن فعل يريد أن يفعله ،
ولاستحالة ذلك في حقه - تعالى - لاستئذنه العجز المحال المنافي للربوبية قالوا :
لأنه مستعار هذا للصرف والترك . . . » (٢)

وقوله : « أن نرسل ، في محل نصب لأنه مفعول ثانٍ لمنعنا ، أو في محل جر ،
على حذف الجار ، أي : من أن نرسل . وقوله . . . « إلا أن كذب بها ، في محل
رفع لأنه فاعل منعنا ، والتقدير : وما منعنا من إرسال الآيات إلا تكذيب
الأولين .

والمراد بالآيات : ما اقترحه المشركون على النبي - صلى الله عليه وسلم -
من قلب الصفا ذهباً ، ومن إزاحة أجبان عن مكة ليزرعوا مكانها . . .

والمعنى : وما كان سبب تركنا لإجابة المقترحات التي طلبها المشركون منك
- أيها الرسول الكريم - إلا علمنا بأنهم سيكذبون بها إذا جاءتهم ، كما كذب
بأمثالها أشباههم الأولون ، وفي هذه الحالة فإنهم سيستحقون مثلهم عذاب
الاستئصال كما جرت بذلك سنتاً .

وقد اقتضت حكمتنا ورحمتنا - بأمك أيها الرسول الكريم - ، ألا نعذبهم
عذاب الاستئصال والمحو ، بل نؤخر عذاب الضالين منهم إلى يوم القيامة .

قالوا : ومن الحكم في هذا التأخير : الإظهار لمزيد شرف النبي - صلى الله
عليه وسلم - ، كما قال - تعالى - : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، ، والرعاية
لشأن من - يولد من بعضهم من المؤمنين ، ولمن - يؤمن من هؤلاء المقترحين ،
إلى غير ذلك من الحكم التي لا يعلمها إلا هو - سبحانه - .

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٧ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١٥ ص ١٠٣ .

قال صاحب المكشاف : استعير المنع اترك لإرسال الآيات من أجل صارف الحكمة والمراد الآيات التي اقترحتها قریش من قلب الصفا ذهبا ، ومن إحياء الموتى وغير ذلك .

وعادة الله في الأمم ، أن من اقترح منهم آية فأجيب لإيها . ثم لم يؤمن ، أن يعاجل بعذاب الاستئصال . فالمعنى : وما صرفنا عن إرسال ما يقترحوه من الآيات إلا أن كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم ، كعاد ونمود ، وأنها لو أرسلت لسكذبوا بها تمكذيب أو لشك ، وقالوا : هذا سحر مبين كما يقولون في غيرها . واستوجبوا العذاب المستأصل . وقد عزمنا أن نؤخر أمر من بعثت إليهم إلى يوم القيامة ، (١) .

ثم ساق - سبحانه - مثالا للسابقين الذين أجيبوا إلى ما اقترحوه ، ولكنهم لم يؤمنوا ، فأخذهم عذاب الاستئصال ، فقال - تعالى : : وآتينا نمرود الناقة مبصرة فظلموا بها ، .

ونمود : هم قوم صالح - عليه السلام - ، وخصهم بالذكر ، لأنهم معروفون لأهل مكة أكثر من غيرهم ، لمرورهم على ديارهم عند أسفارهم إلى بلاد السلام . والناقة المراد بها : ناقة صالح - عليه السلام - التي طلبها قومه منه ، فأخرجها الله - تعالى - لهم لتكون معجزة له ، ولتكن لهم يؤمنوا به ، بل عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، فأهلكهم الله - تعالى - بالصيحة التي جعلتهم في دارهم جائعين .

وقوله ، مبصرة ، أى : معجزة واعجبة ، يراها الناس بأعينهم بدون خفاء أو لبس ، قال الجمل : مبصرة ، بكسر الصاد - باتفاق السبعة ، والإسناد مجازى . أى : يبصرونها خارجة من الصخرة . وقرئ : شاذاً بفتح الصاد . ثم قال : وفي السمين : مبصرة حال ، وهو إسناد مجازى ، إذ المراد الإبصار

المعنون ، وهو الاهتداء بها ، والتوصل بها ، إلى تصديق نبيهم ، وعلى هذا تظهر السببية ، فإن وجودها سبب في هذا المعنى ... (١)

وقال الآلوسی : وقوله : مبصرة ، على صبغة اسم الفاعل حال من الناقاة ، والمراد : ذات لبصار ، أو ذات بصيرة يبصرها الغير ويتبصر بها ، فالصبغة للنسب ... (٢)

والمعنى : لقد تركنا لإجابة المطالب التي اقترحها قومك - يا محمد - ، رحمة بهم ، لأننا لو أعطيناكم إياها ثم استمر وافي تكذيبهم لك لأهلكناهم كأهلكنا السابقين . فقد أجبنا قوم صالح - عليه السلام - إلى ما طلبوه من نبيهم ، بأن أخرجنا لهم الناقة ، وجعلناها معجزة واضحة نيرة في الدلالة على صدقه ، فقابلوها بالكذب والجحود ، وظلموا أنفسهم وعرضوها للهلاك بسبب عقرها .

قال - تعالى - : فاعقروا الناقة - أي ذبحوها - ، وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ، (٣) .

وقال - سبحانه - : كذبت ثمود بطغواها . إذ انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها . فكذبوه فاعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها . ولا يخاف عقباها .

وقوله - سبحانه - : وما نرسل بالآيات إلا تخويفا ، تذييل قصد به الزجر عن تكذيب ما يأتي به الأنبياء من هدايات ومعجزات تدل على صدقهم .

(١) حاشية الجمل على الجلالين > ٢ ص ٦٣٢ .

(٢) تفسير الآلوسی > ١٥ ص ١٠٤ .

(٣) سورة الأعراف الآيتان ٧٧ ، ٧٧ .

والباء في قوله : بالآيات ، الملبسة ، ومفعول و نرسل ، محذوف ،
ود تخويفاً ، مفعول لأجله .

والمعنى : وما نرسل رسلنا ملتبسين بالآيات والمعجزات الدالة على صدقهم ،
إلا تخويفاً لا قوامهم من سوء عاقبة تكذيبهم لها ، فإنهم إن كذبوها يصيبهم
من العذاب ما يصيبهم .

قال القرطبي قوله : وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ، فيه خمسة أقوال :
الأول : العبر والمعجزات التي جعلها الله على أيدي الرسل ، من دلائل الإنذار
تخويفاً للمكذبين . الثاني : أنها آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي . الثالث :
أنها تقلب الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى تكمل ثم إلى مشيب ، لتعتبر
بتقلب أحوالكم فتخاف عاقبة أمركم . الرابع : القرآن . الخامس : الموت
الذريع ، (١) .

ثم ذكر - سبحانه - ما يزيد النبي - صلى الله عليه وسلم - ثباتاً على ثباته ،
ويقينا على يقينه ، وما يدل على شمول علمه - تعالى - ونفاذ قدرته ، وبلغ
حكيمته فقال : وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس . . .

أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن قلنا لك على لسان وحيانا :
إن ربك - عز وجل - قد أحاط بالناس علماً وقدره ، فهم في قبضته ، وتحت
تصرفه ، وقد عصمك منهم ، فامض في طريقك ، وبلغ رسالة ربك ، دون
أن تخشى من كفار مكة أو من غيرهم ، عدواناً على حيائك ، فقد عصمك
- سبحانه - منهم .

وفي هذه الجملة ما فيها من التسليية للنبي - صلى الله عليه وسلم - ، ومن التبشير له
بلا مصيابه ، بأن العاقبة ستكون لهم ، ومن الحض لهم على انقضى في طريقهم
دون أن يخشوا أحداً إلا الله .

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٨١ .

والمراد بالرؤيا في قوله - تعالى - : ، وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ، : ما رآه النبي - صلى الله عليه وسلم - وعابته بعينيه من عجائب ، ليلة الإسراء والمعراج .

أى : وما جعلنا ما رآه وعابته ليلة إسراءنا بك من غرائب ، إلا فتنة للناس . ليطمئن قوى الإيمان من ضعفه ، وسلم القلب من مريضه .

وأطلق - سبحانه - على ما رآه لنبيه ليلة الإسراء لفظ الرؤيا مع أنه كان يقظة ، لأن هذا اللفظ يطلق حقيقة على رؤيا المنام ، وعلى رؤية اليقظة ليلا فإنه قد يقال لرؤية العين رؤيا ، كما في قول الشاعر يصف صائدا : وكبر للرؤيا وهش فواده . . . أى : وسر لرؤيته للصيد الذي سيصيده . أو أطلق عليه لفظ الرؤيا على سبيل التشبيه بالرؤيا المنامية ، نظرا لما رآه في تلك الليلة من عجائب سماوية وأرضية ، أو أطلق عليه ذلك بسبب أن ما رآه قد كان ليلا . وقد كان في سرعته كأنه رؤيا منامية .

وكان ما رآه - صلى الله عليه وسلم - في تلك الليلة فتنة للناس ، لأنه لما قص عليهم ما رآه ، أرتد بعضهم عن الإسلام ، وتردد البعض الآخر في قبوله ، وضائق عقولهم عن تصديقه ، زاعمة أنه لا يمكن أن يذهب - صلى الله عليه وسلم - من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم يعرج إلى السموات العلا ثم يعود إلى مكة . كل ذلك في ليلة واحدة .

وبعضهم يرى أن المراد بالرؤيا هنا : ما رآه النبي - صلى الله عليه وسلم - من أنه سيدخل مكة هو وأصحابه

وبعضهم يرى أن المراد بها هنا : ما رآه الله - تعالى - لنبيه في منامه ، من مصارع المشركين قبل غزوة بدر ؛ فقد قال - صلى الله عليه وسلم - قبل بدء المعركة : والله ليكأني أنظر إلى مصارع القوم . ثم أوما إلى الأرض وقال : هذا مصرع فلان . وهذا مصرع فلان .

والذى ترجحه هو الرأى الأول ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة ،
ولأنه على الرايين الثانى والثالث يترجح أن الآية مدنية ، لأن غزوة بدر وفتح
مكة كانا بعد الهجرة ، والتحقيق أن هذه الآية مكية .

قال القرطبي ما ملخصه : قوله - تعالى - : : وما جعلنا الرؤيا التى أرىناك
إلا فتنة للناس . . . لما بين أن إنزال آيات القوآن تتضمن التخويف ، ضم
إليه ذكر آية الإسراء ، وهى المذكورة فى صدر السورة . وفى البخارى
والترمذى عن ابن عباس فى قوله - تعالى - : : وما جعلنا الرؤيا التى أرىناك إلا
فتنة للناس ، قال : هى رؤيا عين أرىها النبى - صلى الله عليه وسلم - ليلة أُسرى به
إلى بيت المقدس

وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلوا حين أُخبرهم النبى - صلى الله عليه وسلم -
أنه أُسرى به .

وقيل : كانت رؤيا قوم . وهذه الآية تقضى بفساده ، وذلك أن رؤيا
المنام لا فتنة فيها ، وما كان أحد ليهكرها .

وعن ابن عباس قال : الرؤيا التى فى هذه الآية ، هى رؤيا رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - أنه يدخل مكة فى سنة الحديبية - فرده المشركون عن
دخولها فى تلك السنة - ، فافتن بعض المسلمين لذلك ، فنزلت هذه الآية
وفى هذا التأويل ضعف . لأن السورة مكية ، وتلك الرؤيا كانت
بالمدينة^(١)

وقوله - سبحانه - : : والشجرة الملعونة فى القرآن ، معطوف على الرؤيا .
أى : وما جعلنا الرؤيا التى أرىناك والشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنة
للناس .

والمراد بالشجرة الملعونة هنا : شجرة الزقوم ، المذكورة فى قوله - تعالى - :

أذلك خير نزل أم شجرة الزقوم . إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم . ظلمها كأنه رءوس الشياطين ، (١)

والمراد بظلمها : لعن الآكلين منها وهم المشركون ، أو هي ملعونة لأنها تخرج في أصل الجحيم . أو هي ملعونة لأن طعامها مؤذ وضار ، والعرب تقول لكل طعام ضار : إنه ملعون .

قال الآلوسی : وروى في جعلها فتنة لهم : أنه لما نزل في شأنها في سورة الصافات وغيرها مازل ، قال أبو جهل وغيره : هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة ، ثم يقول ينبت فيها الشجر ، وما نعرف الزقوم إلا بالتمر والزبد ، ثم أمر جارية له فأحضت تمرًا وزبدًا ، وقال لأصحابه : تزقوا .

وافتنى بهذه الآية أيضا بعض الضعفاء ، ولقد ضلوا في ذلك ضلالا بعيدا . . . (٢)

وقوله - تعالى - : « ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا » ، تذييل قصدي به بيان ما جبل عليه هؤلاء المشركون من جحود ، وقسوة قلب . . .

أي : ونخوف هؤلاء المشركين بعذاب الدنيا ، وبعذاب الآخرة . وبشجرة الزقوم التي ظلمها كأنه رءوس الشياطين . . . فما يزيدهم هذا التخويف والتهديد إلا طغيانا متجاوزا في ضخامته وكبره كل حد ، وكل عقل سليم .

وعبر - سبحانه - بصيغة المضارع الدالة على الاستقبال . مع أن تخويفهم ولإزدیاد طغيانهم قد وقعا ، للإشعار بالتجدد والاستمرار .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد سافت من سبق الله - تعالى - في خلقه ، ومن فضله على هذه الأمة ، ومن تبشير وإذاره ، ووعده ووعيده ، ما يزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم ، وما يصرف الطاغين عن طغيانهم لو كانوا يعقلون .

(١) سورة الصافات الآيات ٦١ - ٦٥ .

(٢) تفسير الآلوسی ١٥ ص ١٠٦ .

ثم ساق - سبحانه - جانباً من قصة آدم وإبليس ، لزيادة التسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - والإشعار بأن الحسد والغرور ، كما منع إبليس من السجود لآدم ، فقد منعاً مشرئاً مكة من الإيمان بالغيب - صلى الله عليه وسلم - فقال - تعالى - :

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ، لَنْ أُوخِرَ نِيَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً (٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَزَاءُكُمْ جَزَاءُ مَنْ تَبِعَكَ وَاسْتَفْزِزْ مِنْ أَسْطَظَمَتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ، وَأَجَابَ عَلَيْهِمْ بِحِيلِكَ وَرَجَلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِذَّهُمْ ، وَمَا يَمْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لِبَشَرٍ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً (٦٥) » .

وقوله - سبحانه - : « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ » ، تذكير لبني آدم بما جرى بين أبيهم وبين إبليس ، ليعتبروا ويتعظوا ، ويستمروا على عبادتهم لإبليس وجنده .

أى : واذا كروا - يا بني آدم - وقت أن قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم ، سجود تحية وتمكريم ، فسجدوا ، امتثالاً لأمر الله - تعالى - ، بدون تردد أو نلغم ، إلا إبليس ، فإنه أبى السجود لآدم - عليه السلام - ، وقال ، بتكبر وعصيان لأمر ربه - عز وجل - : « أَسْجُدْ ، وَأَنَا الْخَلْقُ مِنْ نَارٍ لَمَّا خُلِقْتُ طِيناً ، أَى : أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ، مع أنى أفضل منه .

والتعجب بقوله ، فسجدوا ، بفاء التثنية ، يفيد أن سجودهم - عليهم السلام - كان فى أعقاب أمر الله - تعالى - لهم مباشرة ، بدون تأخير أو تسويف .

وقوله - تعالى - : « قال أسجد ... » استئناف بياني ، فكأنه قيل : فإذا كان موقف إبليس من هذا الأمر ؟ فكان الجواب أن إبليس فسق عن أمر ربه وقال ما قال .

والاستفهام في « أسجد » ، للإنكار والتعجب : لأنه يرى - لعنه الله - أنه أفضل من آدم .

وقوله : « طينا ، منصوب بنزع الخافض أي : من طين .

وفد جاء التصريح بإياء إبليس عن السجود لآدم ، بأساليب متنوعة ، وفي آيات متعددة ، منها قوله - تعالى - : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » (١) .

وقوله - تعالى - : « فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين » (٢) .

ثم فصل - سبحانه - ما قاله إبليس في اعتراضه على السجود لآدم فقال : « قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي ، لئن أخرتن إلى يوم القيامة ، لأحتسبنك ذريته إلا قليلا » .

ورأى هنا عليه فتتعدى إلى مفعولين ، أولهما « هذا » ، والثاني محذوف لدلالة الصلة عليه ، والكاف حرف خطاب مؤكد للمعنى التام قبله ، والاسم الموصول « الذي » بدل من « هذا » أو صفة له ، والمراد من التكريم في قوله « كرمت علي » : التفضيل .

والمعنى : قال إبليس في الرد على خالفه - عز وجل - : أخبرني عن هذا الإنسان المخلوق من الطين ، والذي فضلتني على ، لما فضلتني على وأمرتني بالسجود له مع أنني أفضل منه ، لأنه مخلوق من طين ، وأنا مخلوق من نار !!

(١) سورة البقرة الآية ٣٤ .

(٢) سورة الحجر الآية ٣٠ ، ٣١ .

وجملة لماذا كرمته على ، واقعة موقع المفعول الثاني .

وهقصود إبليس من هذا الاستفهام ، التهور من شأن آدم - عليه السلام -
والتقليل من منزلته . ولم يجبه - سبحانه - على سؤاله ، تحقيرا له . وإهمالا
لشخصه ، بسبب إعتراضه على أمر خالقه - عز وجل .

ثم أكد إبليس كلاله فقال : ولئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتسبن
ذريته إلا قليلا . - إذ أن اللام في قوله ولئن ، موطئة للقسم ،
وجوابه لأحتسبن .

وأصل الاحتناك : الاستيلاء على الشيء ، أو الإستئصال له . يقال :
حنك فلان الدابة يحنكها . بكسر النون ورفعها - إذا وضع في حنكها - أي
في ذقنها - الرسن ليقودها به . ويقال : لحنك الجراد الأرض ، إذا أكل
نباتها وأتى عليه .

والمعنى : قال إبليس - متوعدا ومهددا - : لئن أخرتن - يا إلهي - إلى
يوم القيامة ، لأستولين على ذرية آدم ، ولأقودنهم إلى ما أشاء من المعاصي
والشهوات ، إلا عددا قليلا منهم فأني لا أستطيع ذلك بالنسبة لهم ، لقوة
لمبائنهم ، وشدة إخلاصهم .

وهذا الذي ذكره - سبحانه - عن إبليس في هذه الآية من قوله : ولأحتسبن
ذريته إلا قليلا ، شبهه به قوله - تعالى - : ثم لا نفهم من بين أيديهم ، ومن
خلفهم ، وعن أيامهم ، وعن شمائهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين ، (١) .
وقوله - تعالى - : قال فبمزتلك لأغوينهم أجمعين . - إلا على عبادك منهم
المخلصين ، (٢) .

قال بعض العلماء : وقول إبليس في هذه الآية : ولأحتسبن ذريته . ،

(١) سورة الأعراف الآية ١٧

(٢) سورة ص الآية ٨٢ ، ٨٣

قاله ظنا منه أنه سيقع . وقد تحقق له هذا الظن - في كثير من بنى آدم - كما قال - تعالى - « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين »^(١) .

وقوله - تعالى - « قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا » ، بيان لما توعد الله - سبحانه - به لإبليس وأتباعه .

والأمر في قوله « اذهب » ، للإهانة والتحقير ، أى : « قال » الله - تعالى - لإبليس « اذهب » ، مطرودا ملعونا ، وقد أخرجك إلى يوم القيامة ، فافعل ما بك مع بنى آدم ، فمن أطاعك منهم ، فإن جهنم جزاؤك وجزاؤهم ، جزاء مكمل متصفا لا نقص فيه .

وقال - سبحانه - « فإن جهنم جزاؤكم » ، مع أنه قد تقدم غائب ومخاطب في قوله « فمن تبعك منهم » ، تغليبا لجانب المخاطب - وهو إبليس - على جانب الغائب وهم أتباعه ، لأنه هو السبب في إغراء هؤلاء الاتباع .
وقوله : « جزاء » ، مفعول مطلق ، منصوب بالمصدر قبله .

وقوله « موفورا » اسم مفعول ، من قولهم وفروا وفروا ، وهو موفور أى : مكمل متمم . وهو صفة لقوله : « جزاء » .

وهذا الرعيد الذى توعد الله - تعالى - به لإبليس وأتباعه ، جاء ما يشبهه في آيات كثيرة ، منها قوله - سبحانه - : « قال فالحق والحق أقول . لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين » .

ثم أضاف - سبحانه - إلى إهائته وتحقيره لإبليس أوامر أخرى ، فقال - تعالى - : « واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركتهم فى الأموال والأولاد ، وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » .

قال الجمل : أمر الله - تعالى - إبليس بأوامر خمسة ، القصد بها : التهديد والاستدراج ، لا التكليف ، لأنها كلها معاص ، والله لا يأمر بها ،^(٢) .

(١) سورة سبأ الآية ٢٠ (٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٦٣٤

وهذه الأوامر الخمسة هي : اذهب ، واستفزز . . . وأجلب . . .
وشاركهم وعدمهم .

وقوله : واستفزز ، من الاستفزاز ، بمعنى الاستخفاف والإزعاج . يقال :
استفزز فلان فلانا إذا استخف به ، وخدعه ، وأوقعه فيما أراد منه . ويقال :
فلان استفززه الخوف ، إذا أزعجه .

وقوله : وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، أصل الإجلاب : الصياح
بصوت مسموع . يقال : أجلب فلان على فرسه وجلب عليه ، إذا صاح به
ليستحثه على السرعة في المشي .

قال الألوسي : قوله : وأجلب عليهم ، أى : صح عليهم من الجلبة وهي
الصياح . قاله الفراء وأبو عبيده . وقال الزجاج : أجلب على العدو ، جمع عليه
الخيل . وقال ابن السكيت : جلب عليه : أعن عليه . وقال ابن الأعرابي :
أجلب على الرجل ، إذا نوعه المر ، وجمع عليه الجمع .
والخيل : يطلق على الأفراس ولا واحد له من لفظه ، وعلى الفرسان
مجازا ، وهو المراد هنا .

ومنه قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - في بعض غزواته لأصحابه :
' يا خيل الله أركبى ' . والرجل - بكسر الجيم - بمعنى راجل - كحذر بمعنى
حافر - هو الذى يمشى رجلا ، أى غير راكب . . . ، (١) .

والمعنى . قال الله - تعالى - لإبليس : اذهب أيها اللعين مذموما مدحورا ،
فإن جهنم هي الجزاء المعد لك ولأتباعك من ذرية آدم ، وافعل ما شئت معهم
من الاستفزاز والخذاع والإزعاج ولبو الحديث وأجلب عليهم ما تستطيع
جلبه من مكائد ، وما تقدر عليه من وسائل ، كأن تنادهم بصوتك ووسوتك
إلى المعاصي ، وكأن تحشد جنودك على اختلاف أنواعهم لحربهم ولإغوائهم
وعدمهم عن الطريق المستقيم .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : ما معنى استفزاز إبليس بصوته ، ولجلاله بحيلة ورجله ؟

قلت : هو كلام وارد مورد التمثيل . مثلث حاله في تسلطه على من يفويه ، بمغوار أوقع على قوم ، فصوت بهم صوتا يستفزهم من أماكدهم ، ويقال لهم عن مراكمهم ، وأجلب عليهم بجنده ، من خيالة ورجالة حتى استأصلهم ، وقيل : بصوته ، أى : بدعائه إلى الشر ، وبخيلة ورجله : أى كل راكب ومانس من أهل العيث وقيل : يجوز أن يكون لإبليس خيل ورجال ، (١) .

وعلى أية حال ، فالجملة الكريمة تصوير بديع ، لهداوة إبليس لأدم وذريته ، وأنه معهم في معركة دائمة ، يستعمل فيها كل وسائل شروره ، لبشغافهم عن طاعة ربهم ، وليصرفهم عن الصراط المستقيم ، ولسكنه أن يستطيع أن يصل إلى شيء من أغراضه الفاسدة ، ماداموا معتصمين بدين ربهم - عز وجل - . وقوله - سبحانه - : وشاركهم في الأموال والأولاد وعدمهم ، معطوف على ما قبله .

أى : وشاركهم في الأموال ، بأن تحضهم على جمعها من الطرق الحرام ، وعلى إنفاقها في غير الوجه التي شرعها الله ، كأن يستعملوها في الربا والرشوة وغير ذلك من المعاملات المحرمة .

وشاركهم في الأولاد بأن تحضهم على أن ينشئوهم تنشئة تخالف تعاليم دينهم الخفيف ربان تيسر لهم الوقوع في الزنا الذي يترتب عليه ضياع الأنساب . وبأن تظاهروهم على أن يسموا أولادهم بأسماء يبغيضها الله - عز وجل - ، إلى غير ذلك من وساوسك التي تعرى الآباء بأن يربوا أبناءهم تربية بالقرن معها الشرور والآثام ، والفسوق والعصيان :

قال الإمام ابن جرير بعد أن ساق عددا من الأقوال في ذلك : وأولى

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٦٧٨ .

الآقوال بالصواب أن يقال : كل مولود ولدته أنثى ، عصى الله فيه ، بتسميته بما يكرهه الله ، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله ، أو بالزنا بأمه ، أو بقتله أو وأده ، أو غير ذلك من الأمور التي يعصى الله بفعله به أو فيه ، فقد دخل في مشاركة إبليس فيه ، من ولد ذلك الولد له أو منه ، لأن الله لم يخصص بقوله : « وشاركهم في الأموال والأولاد » معنى الشركة فيه ، بمعنى دون معنى ، فشكل ما عصى الله فيه أو به ، وأطيع الشيطان فيه ، أو به فهو مشاركة ... ، (١) .

وقد علق الإمام ابن كثير على كلام ابن جرير بقوله : وهذا الذي قاله - ابن جرير - متجه ، فقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال : « يقول الله - عز وجل - إني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتاتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، .

وفي الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال : بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان مارزقنا ، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً . » (٢) .

وقوله : « وعدم ، أي : وعدم ما شئت من المواعيد الباطلة الكاذبة . كأن تعدهم بأن الدنيا هي منتهى آمالهم . فعليهم أن يتمتعوا بها كيف شاؤوا بدون تقيد بشرع أو دين أو خلق . وكان تعدهم بأنه ليس بعد الموت حساب أو عقاب ، أو جنة أو نار ...

وقوله - سبحانه - « وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » ، تحذير من الله تعالى - لعباده من اتباع الشيطان ، ومن السير وراء خضواته .

وأصل الغرور : تزوين الباطل بما يؤم بأنه حق ، يقال : غر فلان فلانا ، إذا أصاب غرته - أي غفلته - ونال منه ما يريد : غر فلان فلانا فهو يغره

(١) تفسير ابن جرير ج ١٥ ص ٨٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٠ .

غرورا ، إذا خدعه ، وأصله من الغر ، وهو الأثر الظاهر من الشيء . ومنه غرة الفرس لأنها أبرز ما فيه . وانظر ، غرورا ، صفة لموصوف محذوف .
والتقدير : وعدم - أيها الشيطان - بما شئت من الوعود الكاذبة ، وما يعد الشيطان بني آدم إلا وعدا غرورا .

ويحوز أن يكون دفعنا لأجله فيكون المعنى : وما يخدم الشيطان إلا من أحل الغرور والمخادعة .

وفي الجملة السكينة التفات من الخطاب إلى الغيبة ، إهمالا لشأن الشيطان ، وبياننا لحاله مع بني آدم ، حتى يحترسوا منه ويحذروه .

ثم ختم - سبحانه - الآيات بغرس الطمأنينة في قلوب المؤمنين الصادقين ، فقال - تعالى - : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلًا » .
أي : إن عبادي الصالحين الذين أحلصوا دينهم لي ، ليس لك - يا إبليس - تسلط واقتدار على لغواتهم وإغوايهم ، وصرفهم عن السبيل الحق إلى السبيل الباطل .

قال - تعالى - : « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » (١) .

وقال - سبحانه - : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ، إلا من أتبعك من الغاوين » (٢) ، بالإضافة في قوله ، « إن عبادي ... » ، للتشريف والتكريم حيث خصهم - سبحانه - بهذا اللون من الرعاية والحماية .

وقوله ، « وكفى بربك وكيلًا ، أي : وكفى بربك وكيلًا يتوكلون عليه ، ويفوضون إليه أمورهم ، ويمتصمون به لكي يقيمهم وسواس الشيطان ونزغاته قال الإمام ابن كثير : قوله ، « وكفى بربك وكيلًا ، أي : حافظًا ومؤيدًا ونصيرًا .

(١) سورة النحل الآيتان ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) سورة الحجر الآية ٤٣ .

رأى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :
« إن المؤمن ينضى شيطانه - أى ليقهره - كما ينضى أحدكم بعيره في
السفر » (١).

وقال الجمل في حاشيته : وهذه الآية تدل على أن المعصوم من عصية الله ،
وأن الإنسان لا يمكنه أن يحتجز بنفسه عن مواقع الضلال ، لأنه لو كان
الإقدام على الحق ، والإحجام عن الباطل - إنما يحصل الإنسان من نفسه ،
لوجب أن يقال : وكفى بالإنسان نفسه في الاحتراز عن الشيطان . فلما لم يقل
ذلك ، بل قال : وكفى بربك وكيلًا . علمنا أن الكل من الله . ولهذا قال
المحققون : لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ، ولا قوة على طاعته إلا
بقوته » (٢).

وبعد أن بين - سبحانه - لبنى آدم ما يدينه إبليس من عداوة وبغضاء ، أتبع
ذلك ببيان جانب من نعمه - تعالى - عليهم في البر والبحر وفي السراء والضراء
فقال - عز وجل - :

« رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ
كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا
إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (٦٧)
أَفَأَمِنْتُمْ ، أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ، ثُمَّ لَا تَجِدُوا
لَكُمْ وكيلاً (٦٨) أَمْ أُمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى ، فَيُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ، ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ
عَليْنَا بِهِ تَبِعًا (٦٩) » .

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٠

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٦٠٥

وقوله - تعالى - : « ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله ... » بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله - تعالى - بعباده ، وفضله عليهم .
و « يزجى » من الإزجاء ، وهو السوق شيئا فشيئا . يقال أزجى فلان الإيل ، إذا ساقها برفق ، وأزجت الريح السحاب ، أى : ساقته سوقا رفيقا ، ومنه قوله - تعالى - : « ألم تر أن الله يزجى سحابا ... » .

و « الفلك » ما عظم من السفن . قال الجمل مالم يخصصه : ويستعمل لفظ الفلك للواحد والجمع ، ويذكر ويؤنث . قال - تعالى - : « وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون ، فأفرد وذكر . » وقال - سبحانه - : « والفلك التى تجرى فى البحر ، فأنث ، ويحتمل الإفراد والجمع . » قال - تعالى - : « حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم ... فجمع ... » (١) .

و « البحر » ، يطلق على الماء الكثير عذبا كان أو ملحا . وأكثر ما يكون إطلافا على الماء المالح .

أى : أذكروا - أيها الناس - لتعبدوا وتشكروا ربكم الذى من مظاهر نعمته عليكم ، أن يسوق لكم - بطلفه وقدرته - السفن التى تركبونها فى البحر لى تطلبوا من وراء ركوبها الرزق الذى يصلح معاشكم ، والذى هو لون من ألوان فضل الله عليكم .

وقوله : لتبتغوا من فضله ، تعليل لإزجاء الفلك ، وتصرفح بوجوه النفع التى تفضل الله - تعالى - بها عليهم .

وقوله : « إنه كان بكم رحيبا » ، تعليل ثان لهذا الإزجاء .

أى : يزجى لكم الفلك فى البحر ، لتطلبوا من وراء ذلك ما ينفعكم ، ولأنه - سبحانه - كان أزلا وأبدا ، بكم دائم الرحمة والرأفة .

ثم أتقل - سبحانه - من الحديث عن مظاهر نعمه عليهم ، في حال سوق السفن ودفعها بهم في البحر برفق وأناة ، إلى بيان رعايته لهم في حال اضطرابها وقهرضا للفرق ، بسبب هيجان البحر وأرتفاع أمواجه ، فقال - تعالى - :
« وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه » .

والمس : اتصال أحد الشيتين بآخر على وجه الإحساس والاصابة والمراد به هنا : ما يعترضهم من خوف وفرع ، وهم برون سفينتهم توشك على الفرق .
والمراد بالضر هنا : اضطراب الفلك ، وارتفاع الأمواج ، واشتداد العواصف ، وتعريضهم للموت من كل مكان .

المعنى : وإذا أحاطت بكم الأمواج من كل جانب وأنتم على ظهور سفنكم وأوشكتكم على الفرق ... ذهب وغاب عن خواطركم وأذهابكم ، كل معبود سوى الله - عز وجل - لكي ينفذكم مما أنتم فيه من بلاء ، بل إياه وحده - سبحانه - تدعون ليكشف عنكم ما نزل بكم من سوء .

فالجملة الكريمة تصوير مؤثر بديع لبيان أن الانسان عند الشدائد والنحن لا يتجه بدعائه وضراعه الا الى الله - تعالى - وحده .

قال القرطبي : « ضل ، معناه : تلف وفقد وهي عبارة تحقير لمن يدعى لها من دون الله . والمعنى في هذه الآية : أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم أنها شافعة ، وأن لها فضلا ، وكل واحد منهم بالفترة يعلم علما لا يقدر على مدافعة أن الأصنام لا فعل لها في الشدائد ، فوقفهم الله من ذلك على حالة البحر حيث تنقطع الخيل ، (١)

وقال الإمام ابن كثير : يخبر تبارك وتعالى أن الناس إذا أمسهم ضر دعوه منيبين إليه مخلصين له الدين ، ولهذا قال ، تعالى - : « وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ، أي : ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير

الله - تعالى - كما إتفق لعكرمه بن أبي جريل ، لما ذهب فارا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين فتح مكة ، فذهب هاربا ، فركب في البحر ليدخل الحبشة ، فوجأتهم ريح عاصف ، فقال القوم بعضهم لبعض : إنه لا ينقذ عنكم إلا أن تدعو الله وحده .

فقال عكرمة في نفسه : والله إن كان لا ينفع في البحر غيره ، فإنه لا ينفع في البر غيره ، اللهم لك على عهد لئن أخرتني منه ، لأذهبين فلاضعن يدي في يد محمد - صلى الله عليه وسلم - فلا جدنه روفار حيا . فخرجوا من البحر ، فرجع إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - فأسلم وحسن إسلامه - رضى الله عنه ، (١) .

وقوله - تعالى - : د فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا ، بيان لطبيعة الإنسان إلا من عصم الله .

أى : فلما نجاكم الله - تعالى - بلطفه وإحسانه : من الغرق ، وأوصلكم سالمين إلى البر ، أعرضتم عن طاعته ، تركتم دعاءه والضراعة إليه ، وكان الإنسان الفاسق عن أمر ربه ، د كفورا ، أى : كثير الكفران والجحود لنعم ربه - عز وجل ..

قال الألوسى ما ملخصه : وقوله : د وكان الإنسان كفورا ، كالتعليل للإعراض ، ويعلم منه حكم أولئك المخاطبين ، وفيه لطافة حيث أعرض - سبحانه - عن خطابهم بخصوصهم ، وذكر أن جنس الإنسان مجبول على الكفران ، فلما أعرضوا أعرض الله - تعالى - عنهم ، (٢) .

وفى معنى هذه الآية جاءت آيات كثيرة . منها قوله - تعالى - ، فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاكم إلى البر إذا هم يشركون ، (٣) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٠

(٢) تفسير الألوسى ج ١٥ ص ١١٦

(٣) سورة العنكبوت الآية ٢٢

وقوله - سبحانه - : « وإذا غشيهم موجة كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين . فلبأبصارهم إلى البر فنفهم مقتصد ، وما يحد بأياتنا إلا كل ختار كفور ، »^(١)
ثم بين - سبحانه - أن قدرته لا يعجزها شيء ، « لا في البحر ولا في البر ولا في غيرهما فقال : « أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ، ثم لا تجدوا لكم وكيلا ، والهمزة في قوله « أفأمنتم » للاستفهام الإنكاري ، والفاء عطفة على محذوف ، والتقدير : أنجوتم فأمنتم .

وقوله « يخسف » من الخسف وهو انهيار الأرض بالشيء ، وتغييبه في باطنها « وجانب البر » فاحية الأرض ، وسما - سبحانه - جانبا ، لأن البحر يمثل جانبا من الأرض ، والبر يمثل جانبا آخر .

والحاصب : الريح الشديدة ، التي ترمى بالحصباء ، وهي الحجارة الصغيرة .
يقال . حصب فلان فلانا ، إذا رماه بالحصباء .

والمعنى : أنجوتم من الغرق - أيها الناس - ففرحتم وأمنتم ونسيتم أن الله - تعالى - إذا كان قد أنجاكم من الغرق ، فهو قادر على أن يخسف بكم جانب الأرض ، وقادر كذلك على أن يرسل عليكم ريحا شديدة ترميكم بالحصباء التي تهلككم ؛ ثم لا تجدوا لكم وكيلا تنكرون إليه أموركم ، ونصيرا ينصركم ويحفظكم من عذاب الله - تعالى - .

إن كنتم قد أمنتم عذاب الله بعد نجاتكم من الغرق ، فأنتم جاهلون ، لأن قدرة الله - تعالى - لا يعجزها أن تأخذكم أخذ عزيز مقتدر سواء أ كنتم في البحر أو في البر أو في غيرهما ، إذ جميع جوانب هذا الكون في قبضة الله - تعالى - ونحت سيطرته .

قال صاحب الكشف : فإن قلت فما معنى ذكر الجانب ؟ قلت : معناه . أن الجوانب والجهات كلها في قدرته سواء . وله في كل جانب برا كان أو بحرا سبب مرصد من أسباب الهلكة ، ليس جانب البحر وحده مختصا بذلك ،

(١) سورة لقمان الآية ٣٢ .

بل إن كان العرق في جانب البحر ، ففي جانب البر ما هو مثله وهو الخسف ، لأنه تغيب تحت التراب ، كما أن العرق تغيب تحت الماء . فالبر والبحر عنده سمان . يقدر في البر على نحو ما يقدر عليه في البحر ، فعلى العاقل أن يستوى خوفه من الله في جميع الجوانب وحيث كان ، (١) .

ثم ساق - سبحانه - مثالا آخر للدلالة على شمول قدرته ، فقال - تعالى - :
 « أم أمنت أن يعيدكم فيه تارة أخرى ، فیرسل عليكم قاصفا من الريح ، فيغرقكم بما كفرتم ، ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا » .

ودأم ، هنا يجوز أن تكون متصلة ؛ بمعنى : أى الأمرين حاصل . ويجوز أن تكون منقطعة بمعنى بل .

والقاصف ، من الريح : هو الريح العاتية الشديدة التى تقصف وتحطم كل مامرت به من أشجار وغيرها . يقال : قصف فلان الشيء ، إذا كسره .

والتبيح : فعيل بمعنى فاعل ، وهو المطالب غيره بحق سواء أ كان هذا الحق دينيا أو تاريا أو غيرهما ، مع مداومته على هذا الطلب .

والمعنى : بل أ أمنت - أيما الناس - أن يعيدكم ، الله - تعالى - د فیه ، أى : فى البحر ، لسبب من الأسباب التى تحملكم على العودة لإيه أخرى ، فیرسل عليكم ، - سبحانه - وأتم فى البحر د قاصفا من الريح ، العاتية الشديدة التى تحطم سفنكم د فيغرقكم . بسبب كفركم وجحودكم لنعمة ، د ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ، أى : لا فئا من السهل علينا أن نفعل معكم ذلك وأكثر منه ، ثم لا تجدوا لكم أحدا ينصركم علينا ، أو يطالبنا بحق لكم علينا ، فنحن لانسال عما نفعل ، وأتم المسئولون .

فلاستفهام هنا - أيضا - للانكار والتوبيخ .

وقال - سبحانه - : أن يعيدكم فيه ، ولم يقل أن يعيدكم إليه ، للإشارة باستقرارهم فيه ، وأنه - تعالى - لا يعجزه أن يفعل ذلك .

والتهجير بقوله : قاصفا من الريح ، فيه من التهريب والإنذار ما فيه لأن لفظ القسف يدل بمضاه اللغوي على التخطيم والتكسير .

وقال - سبحانه - : بما كفرتم ، ليبيان أن الله - تعالى - ما ظلمهم بإهلاكمهم ، وإنما هم الذين عرضوا أنفسهم لذلك بسبب كفرهم وإعراضهم عن طاعته - سبحانه - .

والضمير في : به ، يعود إلى الإهلاك بالإغراق المفهوم من قوله : فيغرقكم بما كفرتم ، أي : لا يجدون تبيعا يتبعنا بشاركم بسبب ذلك الإغراق الذي أوقعناه بكم . وبذلك نرى أن الآيات المذكورة قد سافت ألوانا من نعم الله - تعالى - على الناس ، وحذرتهم من جحود هذه النعم ، حتى لا يترضوا لعذاب الله ، الذي قد ينزل بهم وهم في البحر أو في البر أو في غيرهما .
ثم ذكر - سبحانه - تكريمه لبني آدم ، وتفضيلهم على كثير من مخلوقاته ، وأحوالهم في الآخرة ، فقال - تعالى - :

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ، وَخَلَقْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٦٩) يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ ، فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ، فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ ، وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٠) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أُنْعمَى ، فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أُنْعمَى وَأَصْلًا سَبِيلًا (٧١) .

قال الألوسي : قوله : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ، ... » أي : جعلناهم قاطبة برهم وفاجرهم ، ذوي كرم ، أي : شرف ومحاسن جملة لا يحيط بها نطاق المحصر ... (١)

ومن مظاهر تكريم الله - تعالى - لبني آدم ، أنه خلقهم في أحسن تقويم .
كما قال - تعالى - : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » ،

وأنه ميزهم بالعقل والنطق والاستعدادات المتعددة ، التي جعلها لهم أهلاً للخلق
الآمنة ، كما قال - سبحانه - : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض
والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ... » (١)

وأنه سخر الكثير من مخلوقاته لمنفعتهم ومصالحهم ، قال - تعالى - : الله
الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات
رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار .
وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من
كل ما سألتوه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار . (٢)

وأنه سجل هذا التكريم في القرآن الكريم : الذي لا يأتيه الباطل من بين
يديه ولا من خلفه ، وكما هم بذلك شرفاً ونفراً .

وقوله - تعالى - : « وحملناها في البر والبحر » ، بيان لنوع من أنواع هذا
التكريم . أي : « حملناهم بقدرتنا ورعايتنا في البر على الدواب وغير ذلك من
وسائل الانتقال كالقطارات والسيارات وغيرها » وحملناهم في البحر على السفن
وعبارات البحار التي تنقلهم من مكان إلى آخر .

وقوله : « ورزقناهم من الطيبات » ، بيان لنوع آخر من أنواع التكريم .
أي : « ورزقناهم بفضلنا وإحساننا من طيبات الطعام والمشارب والملابس ،
التي يستلذونها ، ولا يستغنون عنها في حياتهم » .

وقوله : « وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلاً » ، بيان لنوع ثالث من
أنواع التكريم ، أي : « وبسبب هذا التكريم فضلناهم على كثير من مخلوقاتنا
التي لا تخصي ، تفضيلاً عظيماً » .

وعلى هذا التفسير يكون التفضيل لونا من ألوان التكريم الذي منحه الله - تعالى - لبني آدم .

وبعضهم يرى أن هناك فرقا بين التكريم والتفضيل ، ومن هذا البعض الإمام الفخر الرازي ، فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه : لقد قال الله - تعالى - في أول الآية ، ولقد كرمتنا بني آدم ، وقال في آخرها ، وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلا . ولا بد من الفرق بين هذا التكريم والتفضيل وللازم التكرار .

والأقرب أن يقال : إنه - تعالى - فضل الإنسان على سائر الحيوانات بأمور خلقية طبيعية ذاتية ، مثل : العقل ، والنطق ، والصورة الحسنة ... ثم إنه - تعالى - عرضه بواسطة ذلك لاكتساب العقائد الحقة ، والأخلاق الفاضلة . فالأول : هو التكريم ، والثاني : هو التفضيل ^(١) .

وكان الفخر الرازي يرى أن التكريم يرجع إلى الصفات الخلقية التي امتاز بها بنو آدم ، أما التفضيل فيرجع إلى ما اكتسبوه من عقائد سليمة ، وأخلاق قويمية .

هذا ، وقد أخذ صاحب الكشف من هذه الجملة وهي قوله - تعالى - : « وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلا » أن الملائكة أفضل من البشر ، لأنهم - أي الملائكة - هم المقصودون بالقليل الذي لم يفضل عليه بنو آدم . قال - رحمه الله - : قوله : « وفضلناهم على كثير من خلقنا ... » هو ما سوى الملائكة . وحسب بني آدم تفضيلا ، أن ترفع عليهم الملائكة - وهم هم - ومنزلتهم عند الله منزلتهم ... ^(٢)

ويرى كثير من المفسرين أن المراد بالتفضيل هنا : تفضيل الجنس ، ولا يلزم منه تفضيل كل فرد على كل فرد .

(١) تفسير الفخر الرازي - ج ٥ ص ٤٢١ .

(٢) تفسير الكشف - ج ٢ ص ٦٨١ .

قال الجبل ماملخصه : « وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلا » المراد تفضيل جنس البشر على أجناس غيره كالملائكة ، ولا يلزم من تفضيل جنس البشر على جنس الملك تفضيل الأفراد ، إذ الملائكة في جملتهم أفضل من بشر غير الأنبياء ، وصلاح البشر — كالصديق — أفضل من عوام الملائكة ، أي : غير الرؤساء منهم ، على المعتمد من طريقة التفضيل ، (١) .

والذي تظمن إليه النفس في هذه المسألة — والله أعلم — : أن الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — أفضل من الملائكة جميعا ، لأن الله — تعالى — قد أمر الملائكة بالسجود لآدم الذي جعله خليفة له في أرضه ، دون غيره من الملائكة ...

وأن الرسل من الملائكة — كإبراهيم وإسماعيل وعزرائيل وميكائيل — أفضل من عموم البشر — سوى الأنبياء — ، لأن هؤلاء الرسل قد اصطفاهم الله — تعالى — واختارهم لوظائف معينة ، قال — تعالى — والله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ...

وأن صلاح البشر — كالعشرة المبشرين بالجنة — أفضل من عامة الملائكة ، لأن الملائكة ليست فيهم شهوة تدفعهم إلى مخالفة ما أمر الله به ... أما بنو آدم فقد ركب الله — تعالى — فيهم شهوة داعية إلى ارتكاب المعصية ، ومقاومة هذه الشهوات جهاد يؤدي إلى رفع الدرجات ...

ومن العلماء الذين بسطوا القول في هذه المسألة الإمام الفخر الرازي ، فليرجع إليه من شاء (٢) .

وقوله — سبحانه — : « يوم ندعو كل أناس بإمامهم » ، شروع في بيان تفاوت أحوال بني آدم في الآخرة ، بعد بيان حالهم في الدنيا .

(١) حاشية الجبل على الجلالين > ٢ ص ٦٣٨ .

(٢) تفسير الفخر الرازي > ٥ ص ٢١٠ .

ونقطة « يوم » منصوب بفعل محذوف ، أى : واذا كر يوم ندعو كل أناس بإمامهم . والمراد بإمامهم هنا : كتاب أعمالهم .

وقد اختار هذا القول الإمام ابن كثير ورجحه فقال : يخبر الله - تعالى - عن يوم القيامة ، أنه يحاسب كل أمة بإمامهم ، وقد اختلفوا في ذلك . فقال مجاهد وقتادة أى : ينبئهم ؛ وهذا كقوله - تعالى - : « وليكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط » ...

وقال ابن زيد : بإمامهم أى بكتابهم الذى أنزل على نبيهم من التشريع ، وأخبره ابن جرير ...

وروى العوفي عن ابن عباس فى قوله : « يوم ندعو كل أناس بإمامهم ، أى : بكتاب أعمالهم ...

وهذا القول هو الأرجح لقوله - تعالى - : « وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين ، وقال - تعالى - : « وروضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ..

ويحتمل أن المراد بإمامهم : أى كل قوم بمن يأتون به ، فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء - عليهم السلام - ، وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم فى الكفر ...

وفى الصحيحين : « لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فيتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ... الحديث ، ...

ثم قال - رحمه الله - « ولكن المراد هنا بالإمام ، هو كتاب الأعمال » (١) .

والمعنى : واذا كر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ - يوم ندعو كل أناس من بنى آدم الذين كرمناهم وفضلناهم على كثير من خلقنا ، بكتاب أعمالهم الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة الذين أخلصوا دينهم لله فقال - تعالى - : « فمن أتى كتابه يومئذ فاولئك يقرءون كتابهم ، ولا يظلمون شيئاً » .

أى : فن أوتى من بنى آدم يوم القيامة ، كتابه بيمينه ، بأن ثقلت موازين حسناته على سيئاته ، فأولئك السعداء يقرءون كتابهم بسرور وابتهاج ، ولا يتقصون من أجورهم قدر فتيل ، وهو الخيط المستطيل فى شق الزرارة ، وبه يضرب المثل فى الشيء القليل و د من ، فى قوله د فن أوتى ، يجوز أن تكون شرطية ، وأن تكون موصولة ، ودخلت الفاء فى الخبر وهو د فأولئك ، لشبهه بالشرط .

وجاء التعبير فى قوله د أوتى كتابه بيمينه ، بالإفراد د حملا على لفظ من ، وجاء التعبير بالجمع فى د أولئك ، حملا على معناها .

وفى قوله - سبحانه - د بيمينه ، تشرىف وتبشير لصاحب هذا الكتاب الملى - بالإيمان والعمل الصالح وقال - سبحانه - : د فأولئك يقرءون كتابهم ، بالإظهار ، ولم يقل : يقرءونه ، لمزيد العناية بهؤلاء السعداء ، وليبان أن هذا الكتاب تبهج النفوس بتكرار أسمه .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من أوتى كتابه بشياله فقال : د ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، .

والمراد بالعمى هنا : عمى القلب لاعمى العين ، بدليل قوله - تعالى - ب فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ، .

والمعنى : ومن كان من بنى آدم فى هذه الدنيا أعمى القلب ، مطموس البصيرة ، بسبب إثارة الكفر على الإيمان ، فهو فى الدار الآخرة أشد عمى ، وأضل سبيلا منه فى الدنيا ، لأنه فى الدنيا كان فى إمكانه أن يتدارك ما فاتته أما فى الآخرة فلا تدارك لما فاتته .

وعبر - سبحانه - عن النسي أوتى كتابه بشياله بقوله - د ومن كان فى هذه أعمى ، للإرشاد إلى العلة التى بسببها أصابه الشقاء فى الآخرة ، وهى - فقدان النظر السليم ، وإثارة الفى على الرشد ، والباطل على الحق ..

وعما يدل على أن المراد به من أوتي كتابه بشماله، متقابلته لمن أوتي كتابه يمينه، كما جاء في آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : فأما من أوتي كتابه يمينه فيقول : هاؤم افرءوا كتابيه . إلى ظننت أني ملاق حسابه . فهو في عيشة راضية . في جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية . وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول : ياليتني لم أوت كتابيه، (١) . وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقَت لبني آدم من التكريم والتفضيل ما من شأنه أن يحملهم على إخلاص العبادة لخالقهم ، وعلى امتثال أمره ، واجتناب نهيه ، لكي يسكنوا من السعداء في دنياهم وآخرتهم .

ثم حكى - سبحانه - جانباً من المسالك الخبيثة ، التي سلكها المشركون مع النبي - صلى الله عليه وسلم - لرحزحته عن التمسك بدعوته ، وكيف أن الله - تعالى - قد عصمه من كيدهم ، فقال - سبحانه - :

« وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِي أُوحِينَا إِلَيْكَ ، لَتَفْتَرِي هَلْئِنَّا غَيْرُهُ ، وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَالِئاً (٧٢) وَلَوْ لَا أَنْ تُبَيِّنَاكَ ، لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَبْثًا قَلِيلاً (٧٣) إِذَا لَاذُقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً (٧٤) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ، وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلاً (٧٥) سُنَّةٌ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً (٧٦) » .

ذكر المفسرون في سبب نزول الآية الأولى من هذه الآيات روايات منها ما جاء عن سعيد بن جبير أنه قال : كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يستسلم الحجر الأسود في طوافه ، فتمتته قريش وقالوا : لا ندعك تستلم حتى تلم بأهلكنا ... فأبى الله - تعالى - ذلك ، وأنزل عليه هذه الآية .

وروى عطاء عن ابن عباس قال : نزلت في وفد تقيف ، أتوا النبي - صلى الله عليه وسلم - فسألوه شططا : وقالوا : منعنا بآلهتنا سنة حتى نأخذ ما يهدى لها . وحرم وادينا كما حرمت مكة ، حتى تعرف العرب فضلنا عليهم ... فنزلت هذه الآية (١) .

و د إن ، في قوله : وإن كادوا ليفتنوك ... مخففة من الثقيلة ، وأسمها ضمير الشأن .

و د كاد ، من أفعال المقاربة . و د يفتنونك ، من الفتنة ، وأصلها الاختبار والامتحان . يقال : فتن الصائغ الذهب ، أى : اختبره ليعرف جوده من خبيثه ، ويقال : فتن الرجل عن رأيه ، إذا أزلته عما كان عليه ، وهو المراد هنا .

والمعنى : وإن شأن هؤلاء المشركين ، أنهم قاربوا في ظنهم الباطل ، وزعمهم الكاذب ، أن يخذعوك ويفتنوك - أيها الرسول الكريم - عما أوحينا إليك من هذا القرآن ، لكي تفتري علينا غيره ، وتقول علينا أقوالا ما أنزل الله بها من سلطان .

وقوله : : وإذا لا تخذوك خليلا ، بيان لحالهم مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - لو أنه أطاعهم فيما اقترحوه عليه .

قال الجمل مالم يخلصه : : وإذا حرف جواب وجزاء يقدر بـ أو الشرطية . وقوله : : لا تخذوك ، جواب قسم محذوف تقديره : والله لا تخذوك . وهو مستقبل في المعنى ، لأن إذا تقتضى الاستقبال ، إذ معناها المجازاة ، وهذا كقوله - تعالى - : ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون ، أى : يظلوا ، (٢) .

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٩٩

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٦٣٩

والمعنى : لو أنك - أيها الرسول الكريم - وافقتهم على مقترحاتهم الفاسدة لأحبوا ذلك منك ، وأصاروا أصدقاء لك في مستقبل أيامك .

وقد بين القرآن الكريم في كثير من آياته ، أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أعرض عن مقترحاتهم ورفضها ، ولم يلتفت إليها ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « إذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاء ما أتت به قرآن غير هذا أو بدله ، قل ما يسكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ، إن أتبع إلا ما يوحى إلي ، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم - قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبث فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون » (١) .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال : « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا ،

أي : ولولا تثبيتنا إليك - أيها الرسول الكريم - على ما أتت عليه من الحق والصدق ، بأن عصمتك من كيدهم لقاربت أن تميل إليهم ميلا قليلا ، بسبب شدة إحتياهم وخداهم .

قال بعض العلماء : وهذه الآية أوضحت غاية الإيضاح ، براءة نبينا - صلى الله عليه وسلم - من مقارنة الركون إلى الكفار ، فضلا عن نفس الركون لأن دولا ، حرف إمتناع لوجود ، فمقاربة الركون منعتها دولا ، الإمتناعية لوجود التثبيت من الله - تعالى - ، لا كرم خلقه - صلى الله عليه وسلم - فأنضح يقينا إلتفاء مقارنة الركون - أي الميل - ، فضلا عن الركون نفسه .

وهذه الآية تبين ما قبلها ، وأنه - صلى الله عليه وسلم - لم يقارب الركون إليهم مطلقا . لأن قوله : « لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا » : أي قاربت تركن إليهم ، هو عين المنوع بلولا الإمتناعية ، (٢)

(١) سورة يونس ، الآيتان ١٥ ، ١٨

(٢) تفسير أضواء البيان ٣٥ - ٣٦ للشهيد محمد الأمين الشنقيطى .

وما يشهد بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يقارب الركون من مقترحات الكافرين ، قول ابن عباس - رضى الله عنهما : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معصوما ، ولا يمكن هذا تعريف للأمة ، لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الله - تعالى - وشرائعه .

وعن قتادة أنه قال : لما نزلت هذه الآية ، قال النبي - صلى الله عليه وسلم - اللهم لا تكني إلى نفسي طرفة عين ،

ثم بين - سبحانه - ما كان سيقرب على الركون اليهم - على سبيل الغرض من عقاب فقال - تعالى - : إذا لأذقناك ضعف الحياة وضمف الممات ، ثم لا تجد لك علينا نصيرا ،

والضعف : عبارة عن أن يضم إلى شيء مثله .

أى : لو قاربت - أيها الرسول الكريم - أن تركن اليهم أقل ركون ، أو تميل اليهم أدنى ميل ، لأنزلنا بك عذابا مضاعفا في الدنيا وعذابا مضاعفا في الآخرة ، ثم لا تجد لك بعد ذلك نصيرا ينصرك علينا ، أو ظهيرا يدفع عنك عذابنا ، أو يحميك منه ، كما قال - تعالى - : ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين .

والسبب في تضعيف العذاب ، أن الخطأ يعظم بمقدار عظم صاحبه ، ويصغر بمقدار صغره ، ورحم الله القائل :

وكبائر الرجل الصغير مغائر وصغائر الرجل الكبير كبائر

والرسول - صلى الله عليه وسلم - هو أعظم الخلق على الإطلاق ، لذا توعد الله - تعالى - بمضاعفة العذاب ، لو ركن إلى المشركين أدنى ركون .

وقريب من هذا المعنى قوله - تعالى - يا أيها النبي من يأت منك بغاشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ، وكان ذلك على الله يسيرا ، (١)

قال صاحب الكشف : وفي ذكر الكيدودة وتقليلها ، مع إتيانها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين ، دليل على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وإرتفاع منزلته ، وفيه دليل على أن أدنى مداخلته للغواية ، مضادة لله وخروج عن ولايته ، وسبب موجب لغضبه ونكاله . فعلى المؤمن إذا تلا هذه الآيات أن يجشوعندها ويتدبرها فهي جديرة بالتدبر وبأن يستشعر الناظر فيها الحشمة ولإزدياد التصلب في دين الله ، (١)

ثم ذكر - سبحانه - مكيدة أخرى من مكائد المشركين ، وهي إخراج النبي - صلى الله عليه وسلم - من بلده ، لكي يعكفوا على عبادة آلهتهم الباطلة دون أن ينهزموا عن ذلك أحد ، فقال - تعالى - : « وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ... »

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما يخصه : قيل نزلت في اليهود إذ أشاروا على النبي - صلى الله عليه وسلم - بسكنى الشام ، بلاد الأنبياء وترك سكنى المدينة وهذا القول ضعيف لأن هذه الآية مكية وسكنى المدينة كان بعد ذلك ...

ثم قال : وقيل نزلت في كفار قريش ، حين هموا بإخراج الرسول - صلى الله عليه وسلم - من بين أظهرهم ، فتوعدهم الله - تعالى - بهذه الآية ، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة الا زمنا يسيرا ... (٢) .

وما ذهب إليه ابن كثير - رحمه الله - من أن الآية مكية ، هو الذي تسكن إليه النفس فيكون المعنى : « وإن كادوا ، أى : كفار مكة ، يستفزونك من الأرض ، أى : ليخرجوك ويحملوك على الخروج من الأرض التي على ترابها ولدت وفيها نشأت ، وهي أرض مكة . »

(١) تفسير الكشف ٢ - ٦٨٥

(٢) تفسير ابن كثير ٣ - ٥٢

وقوله : « وإذا لا يلبثون خلافاك إلا قليلا » ، بيان لسوء مصيرهم إذا ما أخرجوه - صلى الله عليه وسلم - من مكة .

أى : ولو أنهم استغزوك وأجبروك على الخروج لإجبارا ، لما لبثوا د خلافاك ، أى : بعد خروجك الا زمنا قليلا ، ثم يصيبهم ما يصيبهم من الهلاك والنقم .

ومع أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد خرج من مكة مهاجرا بآمر ربه إلا أنه - سبحانه - قد مكن نبيه - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه من مشركى مكة فى غزوة بدر ، فقتلوا منهم سبعين ، وأسروا نحو ذلك ، وكانت المدة بين هجرته - صلى الله عليه وسلم - وبين غزوة بدر ثقل عن سنتين . وهكذا حقق الله - تعالى - وعده لنبيه - صلى الله عليه وسلم - وأنزل وعيده بأعدائه .

ثم بين - سبحانه - أن تحصرة رساله سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : « سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ، ولا تجد لسنةنا تحويلا .

ولفظ « سنة » منصوب على أنه مصدر مؤكد . أى : سن الله ما قصه عليك سنة ، وهذه السنة هى أننا لا نترك بدون عقاب أمة أخرجت رسولها من أرضه ، وقد فعلنا ذلك مع الأقوام السابقين الذين أخرجوا أنبياءهم من ديارهم ولا تجد - أيها الرسول الكريم - لسنةنا طريقتنا تحويلا أو تبديلا ، ولو أننا قد منمنا عن قومك عذاب الاستئصال لوجدك فيهم ، لأهلكناهم بسبب إيذاهم لك ، وتطاولهم عليك .

قال - تعالى - : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ... »

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكمت لنا جانبا من المسائل الخبيثة التى لم تبعها المشركون مع النبى - صلى الله عليه وسلم - كما حكمت لنا ألوانا من فضل الله - تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - حيث عصمه عن أى ركون إليهم ووعده بالنصر عليهم .

ثم أرشد الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - إلى ما يعينه على التغلب على كيد المشركين ، وإلى ما يزيده رفعة في الدرجة ، وبشره بأن ما معه من حق ، سيزهق ما مع أعدائه من باطل فتعالى - تعالى -

« أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ، وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ، إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً » (٧٨) ومن الليل فتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ ، عَمَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُوداً (٧٩) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) .

قال الإمام الرازي ما ملخصه : وفي نظم هذه الآيات مع ما قبلها وجوه الأول : أنه - تعالى - لما قرر الإلهيات والمعاد والنبوات ، أردفها بذكر الأمر بالطاعات . وأشرف الطاعات . بعد الإيمان الصلاة ؛ فلماذا أمر بها .

الثاني : أنه - تعالى - لما قال : « وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْزَنُواكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا . » أمره - تعالى - بالإقبال على عبادته لكي ينصره عليهم .. كما قال - تعالى - : « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ . وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ... » (١)

وقوله - سبحانه - : « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ، أَيْ : دَاوِمِ .. أَيُّهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ .. عَلَى إِقَامَةِ الصَّلَاةِ ، مِنْ وَقْتِ زَوَالِهَا وَمِيزَانِهَا عَنْ وَسْطِ السَّمَاءِ لِهَيْئَةِ الْغُرُبِ . يُقَالُ : دَلَّكَ الشَّمْسُ نَدْلَكَ .. بِضَمِّ اللَّامِ .. إِذَا مَالَتِ وَانْتَقَلَتْ مِنْ وَسْطِ السَّمَاءِ إِلَى مَا يَلِيهِ . وَمَادَّةٌ دَلَّكَ ، تَدُلُّ عَلَى التَّحَوُّلِ وَالِاتِّقَالِ

ولذلك سمي الدلاك بهذا الاسم . لأن يده لا تكاد تستقر على مكان معين من الجسم .

وتفسير دلوك الشمس هنا بمعنى ميلها وزوالها عن كبد السماء ، مروى عن جمع من الصحابة والتابعين منهم عمر بن الخطاب ، وابنه عبد الله ، وأفس ، وابن عباس ، والحسن ، ومجاهد .

وقيل المراد بدلوك الشمس هنا غروبها . وقد روى ذلك عن علي ، وابن مسعود ، وابن زيد .

قال بعض العلماء : والقول الأول عليه الجمهور ، وقالوا : الصلاة التي أمر بها ابتداء من هذا الوقت . هي صلاة الظهر ، وقد أبدوا هذا القول بوجوده منها : ماروي عن جابر أنه قال ، طعم عندى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، ثم خرجوا حين زالت الشمس ، فقال - صلى الله عليه وسلم - هذا حين دلكت الشمس .

ومن الوجوه - أيضا - النقل عن أهل اللغة ، فقد قالوا : إن الدلوك في كلام العرب : الزوال ، ولذا قيل للشمس إذا زالت . ^(١) .

وقوله : إلى غسق الليل ، أى : إلى شدة ظلمته .

قال القرطبي : يقال : غسق الليل غسوقا . وأصل الكلمة من السيلان . يقال : غسقت العين إذ سالت تغسق . وغسق الجرح عسقانا ، أى : سأل منه ماء أصفر . . . وغسق الليل : اجتماع الليل وظلمته .

وقال : أبو عبيدة : الغسق : سواد الليل . . . ^(٢) .

والمراد من الصلاة التي تقام من بعد دلوك الشمس إلى غسق الليل : صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء .

(١) تفسير آيات الأحكام ج ٣ ص ٦٠ للرحوم الشيخ محمد علي السائس .

(٢) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٣٠٤ .

وقوله - تعالى - : « وقرآن الفجر ، مطوف على مفعول ، أقم ، وهو الصلاة .

والمراد بقرآن الفجر : صلاة الفجر . وسميت قرآنا ، لأن القراءة ركن من أركانها ، من تسمية الشيء باسم جزئه ، كتسمية الصلاة ركوعا وسجودا وقتوتنا .

وقوله « إن قرآن الفجر كان مشهودا » ، تنويه بشأن صلاة الفجر ، وإعلاء من شأنها .

أى : داوم - أيها الرسول الكريم - على أداء صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وداوم على صلاة الفجر - أيضا - فإن صلاتها مشهودة من الملائكة ومن الصالحين من عباد الله - عز وجل - .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وقد ثبتت السنة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قوا ترا من أفعاله وأقواله بتفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم ، مما تلقوه خلفا عن سلف ، وقرنا بعد قرن .

روى البخارى عن أبى هريرة أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد ، خمس وعشرون درجة ، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر ، .

يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم : « وقرآن الفجر لإنا قرآن الفجر كان مشهودا » (١) .

وقال الإمام الفخر الرازى : وفى الآية احتمال ، وهو أن يكون المراد من قوله - تعالى - : « إن قرآن الفجر كان مشهودا » ، الترغيب فى أن تؤدى هذه الصلاة بالجماعة . ويكون المعنى : إن صلاة الفجر مشهودة بالجماعة الكثيرة ، (٢) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٤ ،

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٥ ص ٤٣٩ .

وقوله - سبحانه - « ومن الليل ، قتهجد به مافلة لك ، إرشاد إلى عبادة أخرى من العبادات تطهر القلب ، وتسمو بالنفس إلى مراقب الفلاح ، وتعينها على التغلب على الهموم والآلام .

والجار والمجرور « ومن الليل ، متعلق بقوله « قتهجد » أى . تهجد بالقرآن بعض الليل . أو متعلق بمحذوف تقديره : وقم قومة من الليل قتهجد و « من ، للتبيين .

قال الجمل : والمعروف فى كلام العرب أن الهجود عبارة عن النوم بالليل . يقال : هجد فلان ، إذا نام بالليل .

ثم لما رأينا فى عرف الشرع أنه يقال لمن اتقه بالليل من نومه وقام إلى الصلاة أنه مهجد ، وجب أن يقال : سى ذلك مهجدا من حيث أنه الذى الهجود . فالتجد ترك الهجود وهو النوم ... ، (١) .

والضمير فى « به » ، يعود إلى القرآن الكريم ، المذكور فى قوله - تعالى - « وقرآن الفجر » ، إلا أنه ذكر فى الآية السابقة بمعنى الصلاة ، وذكر هنا بمعناه المشهور ، نى الكلام ما يسمى فى البلاغة بالاستخدام .

والنافلة : الزيادة على الفريضة ، والجمع نوافل . يقال : تنفل فلان على أصحابه ، إذا أخذ زيادة عنهم .

أى : واجعل - أيها الرسول الكريم - جافبا من الليل ، تقوم فيه ، لتصل صلاة زائدة على الصلوات الخمس التى فرضها الله - تعالى - عليك وعلى أمتك .

قال - تعالى - : فأبها المزمع قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا .

قلوا : وقيام الليل كان واجبا فى حقه - صلى الله عليه وسلم - بصفة خاصة ، زيادة على الصلاة المفروضة .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٦٤٢ .

أخرج السيوطي في مسنده عن عائشة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : ثلاث هن على فرائض ، وهن لكم سنة : الوتر ، والنسواك وقيام الليل .

ومن العلماء من يرى أن قيام الليل كان مندوبا في حقه - صلى الله عليه وسلم - كما هو الشأن في أمته ، ومعنى « نافلة لك » أي : زيادة في رفع درجاتك ، فإن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، أما غيرك فقد شرعنا النافلة تكفيرا لخطاياك .

وقوله - عز وجل - : « دعى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » ، بيان لما يترتب على أدائه للصلاة بخشوع وخضوع ، من سمو في المسكاة ، ورفعة في الدرجة .

وكلمة عسى في كلام العرب تفيد التوقع ، أما في كلام الله - تعالى - فتفيد الوجوب والقطع .

قال الجمل : اتفق المفسرون على أن كلمة « عسى » ، من الله - تعالى - تدخل فيما هو قطعي الوقوع ، لأن لفظ عسى يفيد الإطماع ، ومن أطمع لإنسان في شيء ، ثم حرمه ، كان عارا عليه والله - تعالى - أكرم من أن يطمع أحدا ثم لا يعطيه ما أطمعه فيه ، .

أي : ذاوم أيها الرسول الكريم على عبادة الله وطاعته لتبشرك يوم القيامة وتقيمك مقاما محمودا ، ومكانا عاليا ، يحمدك فيه الخلاق كلهم .

والمراد بالمقام المحمود هنا ، هو مقام الشفاعة العظمى يوم القيامة . ليريح الناس من الكرب الشديد ، في موقف الحساب .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث في هذا منها : ما أخرجه البخاري عن ابن عمر قال : إن الناس يصيرون يوم القيامة جثا - جمع جثوة كخطرة وخطا - أي جماعات - كل أمة تتبع نبيها يقولون : يا فلان اشفع ، يا فلان اشفع ، حتى تنهى الشفاعة إلى محمد

- صلى الله عليه وسلم - ، فذلك يوم يبعثه الله مقاما محمودا .
وروى الإمام أحمد والترمذي عن أبي بن كعب عن النبي - صلى الله عليه
وسلم - قال : إذا كان يوم القيامة ، كنت إمام الأنبياء - وخطيبهم . وصاحب
شفاعتهم غير غير .
وروى ابن جرير عن أبي هريرة أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - سئل
عن قوله - تعالى - : « عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » فقال : « هو المقام
الذي أشفع لأمتي فيه » (١) .

وقال الآلوسی : والمراد بذلك المقام ، مقام الشفاعة العظمى في فصل القضاء
حيث لا أحد إلا وهو تحت لوائه - صلى الله عليه وسلم - ، فقد أخرج البخاري
وغيره عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول :
إن الشمس لتدنو حتى يلمع العرق نصف الأذن ، فينبأهم كذلك ، استغاثوا
بآدم ، فيقول : لست بصاحب ذلك ، ثم موسى فيقول كذلك ، ثم محمد فيشفع
فيقضى الله - تعالى - بين الخلق ، فيمشي - صلى الله عليه وسلم - حتى يأخذ
بحلقة باب الجنة ، فيومئذ يبعثه الله - تعالى - مقاما محمودا ، يحمد به أهل الجمع
كلهم ، (١) .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن يكثّر من اللجوء
إليه عن طريق الدعاء ، بعد أن أمره بذلك عن طريق المداومة على الصلاة ، فقال
- تعالى - : « وقل رب أدخلني مدخل صدق ، وأخرجني مخرج صدق ، واجعل
لي من لدنك سلطانا نصيرا » .

والمدخل والمخرج - بضم الميم فيهما - مصدران بمعنى الإدخال والإخراج ،
فهما كالجري والمرعى وإضافتهما إلى الصدق من إضافة الموصوف لصفته .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٥

(٢) راجع تفسير الآلوسی ج ١٥ ص ١٤٠

قال الألوسی : واختلف في تعيين المراد من ذلك ، فأخرج الزبير بن بكار عن زيد بن أسلم ، أن المراد : بالإدخال : دخول المدينة ، وبالإخراج : الخروج من مكة ، ويدل عليه ما أخرجه أحمد ، والطبراني ، والترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه ، وجماعة ، عن ابن عباس قال : كان النبي - صلى الله عليه وسلم - بمكة ، ثم أمر بالهجرة ، فأنزل الله - تعالى - عليه هذه الآية . وبدأ بالإدخال لأنه الأهم ...

ثم قال : والأظهر أن المراد إدخاله عليه الصلاة والسلام - إدخالاً مرضياً في كل ما يدخل فيه ويلبسه من مكان أو أمر ، وإخراجه - من كل ما يخرج منه خروجا مرضياً - كذلك - ، فيكون الآية عامة في جميع الموارد والمصادر (١)

ويبدون أن المعنى الذي أشار إليه الألوسی - رحمة الله - بأنه الأظهر ، هو الذي تسكن إليه النفس ، ويدخل فيه غيره دخولا أوامياً ، ويكون المعنى : وقل - أيها الرسول الكريم - متضرعاً إلى ربك : يا رب أدخلني إدخالاً مرضياً صادقاً في كل ما أدخل فيه من أمر أو مكان ، وأخرجني كذلك إخراجاً طيباً صادقاً من كل أمر أو مكان .

والمراد بالسلطان في قوله - تعالى - : « واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً » الحجة البينة الواضحة التي تقنع العقول ، والقوة الغالبة التي ترهب المبطلين . أي : واجعل لي - يا إلهي - من عندك حجة تنصرتي بها على من خالفني ، وقوة تعينني بها على إقامة دينك ، وإزالة الشرك والكفر .

وقد وضع صاحب الكشف هذا المعنى فقال : قوله : « واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً » ، أي : حجة تنصرتي على من خالفني ، أو ملسكا وعزاً قوياً ناصراً للإسلام على الكفر ، مظهر له عليه ، فأجبت دعوته بقوله :

« والله يصعدك من الناس » فإن حزب الله هم الغالبون ، ليظهره على الدين كله ، ليستخلفهم في الأرض ، ووعد لينزع ملك فارس والروم فيجعله له .

وعنه صلى الله عليه وسلم - أنه استعمل ، عتاب بن أسيد ، على أهل مكة وقال : انطلق فقد استعملتك على أهل الله ، فكان شديداً على المريب . ليأمن على المؤمن ، وقال : لا والله لا أعلم متخلفاً يتخلف عن الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه ، فإنه لا يتخلف عن الصلاة إلا منافق .

فقال أهل مكة : يا رسول الله لقد استعملت على أهل الله عتاب بن أسيد ، أعرابياً جافياً .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : « لئن رأيت فيما يرى النائم كأن عتاب بن أسيد أتى باب الجنة ، فأخذ بحلقة الباب فقلقلها قلقلًا شديداً ، حتى فتح له فدخلها ، فأعز الله به الإسلام لنصرته المسلمين على من يريد ظلمهم ، فذلك سلطان النصير » (١) .

وقال ابن كثير - بعد أن ساق بعض الأقوال في معنى الآية الكريمة - قوله : « وواجب لي من لدنك سلطاناً نصيراً » ، قال الحسن البصري في تفسيرها : « وعده ربه لينزع ملك فارس والروم وليجعلنه له » .

وقال قتادة فيها : « إن نبي الله علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان . فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله . ولحدود الله ، ولفرأض الله ، ولإقامة دين الله ، فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده ، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكمل شديد ضعيفهم ... »

ثم قال ابن كثير : واختار ابن جرير قول الحسن و قتادة ، وهو الأرجح ، لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه ، ولهذا يقول - تعالى - : « ولقد أرسلنا رسلاً بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ... »

وفي الحديث : « إن الله يزرع بالسلطان ما لا يزرع بالقرآن ، أى : ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ، ما لا يمتنع كثير من الناس عن ارتكابه بالقرآن وما فيه من الوعيد الأكيد ، والتهديد الشديد ، وهذا هو الواقع » (١) .

وفي قوله - تعالى - : « واجعل لى من لدنك ، تصوير بديع لشدة القرب والاتصال بالله - تعالى - ، واستمداد العون منه - سبحانه - مباشرة ، واللجوء إلى حماد وبدون وساطة من أحد .

ثم بشره - سبحانه - بأن النصر له آت لا ريب فيه فقال - تعالى - « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، .

والحق فى لغة العرب : الشيء الثابت الذى ليس يزائل ولا مضمحل . والباطل على النقيض منه .

والمراد بالحق هنا : حقائق الإسلام وتعاليمه التى جاء بها النبي - صلى الله عليه وسلم - من عنده - عز وجل -

والمراد بالباطل : الشرك والمعاصى التى ما أنزل الله بها من سلطان والمراد بزهوته : ذهابه وزواله . يقال : فلان زهقت روحه ، إذا خرجت من جسده وفارق الحياة .

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - على سبيل الشكر لربك ، والاعتراف له بالنعمة ، والاستبشار بنصره . قل : جاء الحق الذى أرسلنى به الله - تعالى - وظهر على كل ما يخالفه من شرك وكفر ، وزهق الباطل ، واضمحل وجوده وزالت دولته ، إن الباطل كان زهوقا ، أى : كان غير مستقر وغير ثابت فى كل وقت . كما قال - تعالى - : « قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب . قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد » (٢) .

وكما قال - سبحانه - : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق... » (١) .

وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآية أحاديث منها : ما أخرجه الشيخان عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : دخل النبي - صلى الله عليه وسلم - مكة - عند فتحها - وحول البيت ستون وثلاثمائة صنم . فجعل يطعنهما بعود في يده ويقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، ، جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ، .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو يعلى وابن المنذر عن جابر قال : دخلنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة ، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما ، فأمر بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأكبت على وجهها . وقال : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، (٢) .

وقال القرطبي : في هذه الآية دليل على كسر نصب المشركين ، وجميع الأوثان إذا غلب عليهم ، ويدخل بالمعنى كسر آلة لباطل كاه ، وما لا يصلح إلا لمصيبة الله كالطاير والعيدان والمزامير التي لا معنى لها إلا لله وبها عن ذكر الله تعالى : (٣)

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد أمرت المسلمين في شخص فيهم - صلى الله عليه وسلم - بالمداومة على كل ما يقرهم من الله - تعالى - ، ولا سيما الصلاة التي هي صلة بين العبد وربّه ، وبشرت النبي - صلى الله عليه وسلم - بمفجحه المقام المحمود من ربّه - عز وجل ، وبأن مأموره من حق وصدق ، سيزهق مامع أعدائه من باطل وكذب ، فإن سنة الله - تعالى - قد اقتضت أن تكون العاقبة للمتقين .

(١) سورة الأنبياء الآية ١٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٩ .

(٣) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٣١٤ .

ثم مدح - سبحانه - القرآن الكريم الذي أنزله على قلب نبيه محمد صلى الله عليه وسلم - وبين أحوال الإنسان في حالتي اليسر والعسر ، والرخاء والشدة ، وأن كل إنسان يعمل في هذه الدنيا على حسب طبيعته ونزته ومبوله ، فقال - تعالى - :

« وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَرْيَدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ، فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (٨٤) .

قال الفخر الرازي - رحمه الله - : اعلم أنه - تعالى - لما أُنْزِلَ في شرح الإلهيات والنبوات ، والحشر والمعاد والبعث ، وإثبات القضاء والقدر ، ثم أتبعه بالأمور بالصلاة ، ونبه على ما فيها من الأسرار ، وإنما ذكر كل ذلك في القرآن ، أتبعه ببيان كون القرآن شفاء ورحمة . فقال - تعالى - : . ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين . .

ثم قال : ولغظة « من » ، هما ، ليست للتبعيض ، بل هي للجنس كقوله : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان » .

والمعنى : ونزل من هذا الجنس الذي هو قرآن ما هو شفاء ، لجميع القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين ، (١) .

وبما لاشك فيه ، أن قراءة القرآن ، والعمل بأحكامه وآدابه وتوجيهاته . . شفاء للنفوس من الوسوسة ، والقلق ، والحيرة ، والغفاق ، والذائل المختلفة ، ورحمة للمؤمنين من العذاب الذي يحزنهم ويشقيهم ،

إنه شفاء ورحمة لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان ، فأشرقت بنور ربها ،
وتفتحت لتلقى ما في القرآن من هدايات وإرشادات .

إنه شفاء للنفس من الأمراض القلبية كالخسد والطمع والانحراف عن
طريق الحق ، وشفاء لها من الأمراض الجسدية .

قال القرطبي عند تفسيره لهذه الآية : اختلاف العلماء في كوفة - أي القرآن -
شفاء على قولين :

أحدهما : أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وإزالة الريب ، وليكشف
غطاء القلب من مرض الجهل .

الثاني : أنه شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوذ ونحوه وقد روى الأئمة
واللفظ للدارقطني - عن أبي سعيد الخدري قال : بعثنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
في سرية ثلاثين راكب قال : فنزلنا على قوم من العرب فسألناهم أن يضيئوا
فأبوا . قال : فلدغ سيد الحى ، فأقرونا فقالوا : أفيكم أحد يرقى من العقرب ؟
قال : قلت أنا نعم ، ولكن لا أفعل حتى تعطونا فقالوا : فيما نعطيكم ثلاثين
شاة . قال : فقرأت عليه د الحمد لله رب العالمين ، سبع مرات فبرأ . فبعثوا
إلينا بالنزل وبعثوا إلينا بالشاة . فأكلنا الطعام أنا وأصحابي ، وأبوا أن يأكلوا
من الغنم . حتى أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم - فأخبرته الخبر ، فقال
د ما يدريك أنها رقية ، ؟ قلت : يا رسول الله ، شىء أبقى في روعى . قال :
د كلوا وأطعمونا من الغنم ، (١)

والذى تطمئن إليه النفس أن قراءة القرآن الكريم ، والعمل بما فيه ، من
هدايات وإرشادات وتشريعات ... كل ذلك يؤدي - بإذن الله تعالى - إلى
الشفاء من أمراض القلوب ومن أمراض الأجسام .

قال بعض العلماء : وقوله - تعالى - في هذه الآية د ما هو شفاء ، يشمل
كونه شفاء للقلب من أمراضه ، كالكسل والنفاق وغير ذلك . وكونه شفاء

للأجسام إذا رقى عليها به ، كما نذل له قصة الذي رقى الرجل اللديغ بالفاتحة ،
وهي صحيحة مشهورة ، (١)

وبعد أن بين - سبحانه - أثر القرآن بالنسبة للمؤمنين ، أتبع ذلك ببيان
أثره بالنسبة للظالمين ، فقال : ، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ،

أى : ولا يزيد ما نزل من قرآن الظالمين إلا خسارا وهلاكاً . بسبب عنادهم
وجحورهم لالحق بعد إذ قبين .

قال الألوسى : وإسناد الزيادة المذكورة إلى القرآن ، من أنهم المزدادون
فى ذلك لسوء صنيعهم ، باعتباره سبباً لذلك ، وفيه تعجيب من أمردهن حيث
كونه مداراً للشقاء والشقاء .

كما صار فى الأصداف درا وفى نعر الأفاعى صار سما (٢)

وشبيه هذه الآية قوله - تعالى - : وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول
يقول أياكم زادته هذه إيمان ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون .
وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم
كافرون (٣)

وقوله - تعالى - : قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون
فى آذانهم قر وهو عليهم عصى أولئك ينادون من مكان بعيد ، (٤)

ثم صور - سبحانه - حال الإنسان عند البسر والعسر ، وعند الرخاء
والشدّة فقال - تعالى - : ، وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ،
وإذا مسه الشركان يشوسا ،

(١) أضواء البيان - ٣ ص ٦٢٤ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

(٢) تفسير الألوسى - ١٥ ص ١٢٦

(٣) سورة التوبة ١٢٤ ، ١٢٥

(٤) سورة فصلت الآية ٤٤

أى : « إذا أنعمنا على الإنسان ، بنعمة الصحة والغنى وما يشبههما مما يسهره وييسره ، أعرض ، عن طاعتنا وشكرنا ونأى بجانبه ، أى : « لم يتعد عنا ، وولانا ظهره والنأى : البعد ، يقال : مكان ذاه ، أى بعيد ، ونأى فلان عن الشيء : نأى ، وإذا لم يتعد عنه .

وقوله - تعالى - : « نأى بجانبه » تأكيد للإعراض ، لأن الإعراض عن الشيء أن يولى عرض وجهه ، والنأى بالجانب : أن يولى عنه عطفه ، ويولى ظهره ، ويظهر الاستكبار والغرور . وقوله - تعالى - : « وإذا همسه الشركان يتوسا ، أى : وإذا همس الشكر هذا الإنسان من فقر أو مرض ، كان يتوسا وقنوطا من رحمة الله - تعالى - .

فهم في حالة الصحة والغنى يبطر ويتمكبر ويظفئ . وفي حالة الفقر والمرض يئس ويقنط ويستولى عليه الحزن والهم .

والمراد بالإنسان هنا جنسه ، إذ ليس جميع الناس على هذه الحالة ، وإنما منهم المؤمنون الصادقون الذين يشكرون الله - تعالى - على نعمه ، ويذكرونه ويطيعونه في السراء والضراء .

قال - تعالى - : « ولئن أذقنا الإنسان منا نعمة ثم نزعناها منه إنه ليكفور كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح غفور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » (١) .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد استثنى الذين صبروا وعملوا الصالحات ، من رذيلة الجحود عند اليسر ، واليأس عند العسر .

قال الآلوسى مالمجسه : والمراد بالإنسان في قوله - تعالى - « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ... » ، جنسه ، إذ يكفي في صحة الحكم

وجوده في بعض الأفراد ، ولا يضر وجود نقيض في البعض الآخر . وقيل : المراد به الوليد بن المغيرة .

وفي إسناد المساس إلى الشر بعد إسناد الإهام إلى ضميره - تعالى - ، لإبدان بأن الخير مراد بالذات ، والشر ليس كذلك لأن ذلك هو الذي يقتضيه السكرم المطلق ، والرحمة الواسعة ، وإلى ذلك الإشارة بقوله - صلى الله عليه وسلم - : « اللهم إن الخير بيدك والشر ليس إليك » (١) .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : « لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط » (٢) .

وقوله - سبحانه - : « وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون » (٣) .

ثم بين - سبحانه - أنه لا يخفى عليه شيء من أحوال الناس وأعمالهم فقال : « قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا » .

والتنوين في قوله « كل » عوض عن المضاف إليه - أي : كل فرد .

وقوله : « شاكلته » : أي : طريقته ومذهبه الذي يشاكل ويناسب حاله في الهداية أو الضلالة .

مأخوذ من قولهم : طريق ذو شواكل ، وهي الطرق التي تشعب منه وتشابه معه في الشكل ، فسميت عادة المرء بها ، لأنها تشاكل حاله .

قال القرطبي قوله « قل كل يعمل على شاكلته » ، قال ابن عباس : على ناحيته . وقال مجاهد : على طبيعته .

وقال قتادة : نيته . وقال ابن زيد : على دينه . وقال الفراء : على طريقته ومذهبه الذي جبل عليه ...

(١) تفسير الألوسي ١٥ ص ١٤٧ ،

(٢) سورة فصلت الآية ٤٩ . (٣) سورة الروم الآية ٣٦ .

وقبل : هو مأخوذ من الشكل . يقال : اسد على شكل ولا شاكلى . فالشكل : هو المثل والنظير ، كذوله - تعالى - : « وآخر من شكله أزواج » .

والشكل - بكسر الشين - الهيئة . يقال : جارية حسنة الشكل . أى الهيئة . وهذه الأقوال كلها متقاربة ، (١) .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس : كل واحد منكم - أي الناس - يعمل على شاكلته وطريقته التى تشاكل حاله ، وتناسب اتجاهه ، وقتلاهم مع سلوكه وعقيدته ، فربكم الذى خلقكم وتمهّدكم بالرعاية ، أعلم بن هو أهدي سبيلا . وأقرم طريقا ، وسيجازى - سبحانه - الذين أساءوا بما عملوا ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

فآية الكريمة تبشر أصحاب النفوس الطاهرة والأعمال الصالحة ، بالعاقبة الحميدة ، وتهدد المنحرفين عن طريق الحق ، المتبعين لخطوات الشيطان ، بسوء المصير ، لأن الله - تعالى - لا تخفى عليه خافية ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه . فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره .

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك جانباً من الأسئلة التى كانت توجه إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، كما ذكر الإجابة عليها - كما يجابه النبي - صلى الله عليه وسلم - بها السائلين ، فقال - تعالى - :

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥) وَلَئِنْ سَأَلْتُمْ لَنَنْذَرَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنْ فَضَّلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧) قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَلَقَدْ

صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ
إِلَّا كُفُورًا (٨٩) .

ذكر المفسرون في سبب نزول قوله - تعالى - : «ويسألونك عن الروح »
روايات منها : ما أخرجه الشيخان عن عبد الله بن مسعود قال : بينما أنا أمشي
مع النبي - صلى الله عليه وسلم - في حرت وهو متوكئ على عسيب - أي على
عصا - إذ مر اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، فقالوا : يا محمد
ما الروح ؟ فأعسك النبي - صلى الله عليه وسلم - فلم يرد عليهم شيئاً ، ففعلت
أنه يوحى إليه ، فقامت قنمى ، فلما نزل الوحي قال : « ويسألونك عن
الروح قل الروح من أمر ربي . . . » .

قال الإمام ابن كثير بعد أن ذكر هذه الرواية وغيرها : وهذا السياق
يقتضى فيما يظهر بادى الرأى ، أن هذه الآية مدنية ، وأنها نزلت حين سأل
اليهود عن ذلك بالمدينة ، مع أن السورة كلها مكية .

وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية ، كما نزلت
عليه بمكة قبل ذلك .

أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم لإزالتها عليه ،
وهي هذه الآية : « ويسألونك عن الروح . . . » .

وما يدل على نزول هذه الآية بمكة ما أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس
قال : قلت قريش يهود ، أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل ؟ فقالوا : سلوه
عن الروح ، فسألوه فنزلت : « ويسألونك عن الروح . . . الآية » (١) .

وكلمة الروح تطلق في القرآن الكريم على أمور منها :

الوحى ، كما فى قوله - تعالى - : « يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ... » (١) .

ومنها : القوة والثبات كما فى قوله - تعالى - : « أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ... » (٢) .

ومنها : جبريل ، كما فى قوله - تعالى - : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ... » (٣) .

ومنها : القرآن كما فى قوله - سبحانه - : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ... » (٤) .

ومنها : عيسى ابن مريم ، كما فى قوله - تعالى - : « إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكتبته ألقاها إلى مريم وروح منه ... » (٥) .

وجمهور العلماء على أن المراد بالروح فى قوله - تعالى - : « ويسألونك عن الروح ... » : ما يحيا به بدن الإنسان ، وبه تكون حياته ، وبمفارقة للجسد يموت الإنسان ، وأن السؤال إنما هو عن حقيقة الروح ، إذ معرفة حقيقة الشيء . تسبق معرفة أحواله .

وقيل المراد بالروح هنا : القرآن الكريم ، وقيل : جبريل ، وقيل : عيسى إلى غير ذلك من الأقوال التى أوصلها بعضهم إلى أكثر من عشرة أقوال .

ويبدو لنا أن ماذهب إليه جمهور المفسرين ، أولى بالاتباع ، لأن قوله - تعالى - بعد ذلك : « قل الروح من أمرى » ، يؤيد هذا الاتجاه .

قال الألوسى : الظاهر عند المنصف ، أن السؤال كان عن حقيقة الروح الذى هو مدار البدن الإنسانى ، ومبدأ حياته . لأن ذلك من أدق الأمور التى

(١) سورة غافر الآية ١٥ (٢) سورة المجادلة الآية ٢٢

(٣) سورة الشعراء الآية ١٩٢ ، ١٩٣

(٤) سورة الشورى الآية ٥٣ (٥) سورة النساء الآية ١٧١

لا يسمع أحدا لإنكارها ، ويشترئب الجميع إلى معرفتها ، وتتوفر دواعى العقلاء إليها ، وتشكل الأذهان عنها ، ولا تكاد تعلم إلا بوحى ... ، (١) .

و د من ، فى قوله : « قل الروح من أمر ربى ، بىافية . والمراد بالامر هنا الشان .

والمعنى : ويسألك بعض الناس - أيها الرسول - عن حقيقة الروح ، قل لهم على سبيل الإرشاد والزرز : الروح شىء من جنس الأشياء التى استأثر الله - تعالى - وحده بعلم حقيقتها وجودها .

وقال - سبحانه - « قل الروح ، بالإظهار ، لكالم العناية بشأن المسئول عنه .

وإضافة كلمة « أمر » ، إلى لفظ الرب - عز وجل - ، من باب الاختصاص العلمى ، إذ الرب وحده هو العلم بشأنها ، وليس من باب الاختصاص الوجودى ، لأن الروح وغيرها من مخلوقات الله - تعالى - .

وفى هذه الإضافة ما فيها من تشرىف المضاف ، حيث أضيف هذا الأمر إلى الله - تعالى - وحده .

قال القرطبى : وقوله - تعالى - « قل الروح من أمر ربى » دليل على خلق الروح ، أى : هو أمر عظيم ، وشان كبير من أمر الله - تعالى - ، مبهم له وتاركا تفصيله ، ليعرف الإنسان على القطع عجزه عن علم حقيقة نفسه مع العلم بوجودها . وإذا كان الإنسان فى معرفة نفسه هكذا ، كان عجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى . وحكمة ذلك تعجز العقل عن إدراك معرفة مخلوق بجاور له ، دلالة على أنه عن إدراك خالقه أعجز ، (٢) .

(١) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ١٥١

(٢) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٣٢٤

وقد أطالوا المقال في هذا البحث ، بما لا يتسع له المقام ، وغالبه بل كله من الفضول الذي لا يأتي بنفع في دين أو دنيا ...

فقد استأثر الله - تعالى - بعلم الروح ، ولم يطلع عليه أنبياءه ، ولم يأذن لهم بالسؤال عنه ، ولا البحث عن حقيقته ، فضلا عن أهمهم المقتدين بهم ... (١)
ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر قدرته ، بعد أن بين أن الروح من أمره ، فقال - تعالى - : « ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا » .

واللام في قوله « ولئن شئنا ... » موطئة لقسم محذوف ، جوابه « لنذهبن به » .
أي : « والله لئن شئنا لنذهبن بهذا القرآن الذي أوحيناه إليك - أيها الرسول الكريم - ، بحيث نزله من صدرك ، ومن صدور أتباعك ، ونحوه من الصحف حتى لا يبقى له أثر إذ أن قدرتنا لا يجرها ، ولا يحول دين تنفيذه مآثره حائل .. »

ثم لا تجد لك بعد ذلك من يكون وكيلا عنا . في رد القرآن إليك بهدوها به ونحوه ، ومن يتمهد بإعادته بعد رفعه وإزالته .

قال الألوسي : « وعبر عن القرآن بالموصول في قوله « بالذي أوحينا إليك » ، تفخيلا لشأنه ، ووصفا له بما في حين الصلة ابتداء ، لإعلاما بحاله من أول الأمر ، وبأنه ليس من قبيل كلام المخلوق ... » (٢)

وقوله : « إلا رحمة من ربك » استثناء واستدراك على قوله : « لنذهبن بالذي أوحينا إليك » .

أي : « والله إن شئنا لإذهاب القرآن من صدرك لأذهبناه ، دون أن تجد أحدا يرده عليك ، لكننا لم نفع ذلك بل أبقيناه في صدرك رحمة من ربك . »

(١) تفسير فتح البيان للشيخ صدوق حسن خان . ج ٥ ص ٤٠١ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١٥ ص ٦٤ .

قال الجمل : وفي هذا الاستثناء قولان : أحدهما : أنه استثناء متصل : لأن الرحمة تندرج في قوله « وكيلا » .

أى : إلا رحمة منا فإنها إن نالتك فلعمري تسترده عليك والثاني : أنه منقطع . فيقدر بلسكس أو بيل ، ود من ربك ، يجوز أن يتعلق بمحذوف صفة لرحمة - أى لكن رحمة ربك تركته غير مذهب به - ، (١) .

وقوله ، إن فضله كان عليك كبيرا ، بيان لما امتن الله به على نبيه - صلى الله عليه وسلم - .

أى : إن فضله كان عليك كبيرا ، حيث أنزل القرآن عليك ، وأبقاه في صدرك دون أن يزيله منه ، وجعلك سيد ولد آدم ، وخاتم رسله ، وأعطاك المقام المحمود يوم القيامة .

قال صاحب الكشف : وهذا امتنان عظيم من الله - تعالى - ببقاء القرآن محفوظا ، بعد المنة العظيمة في تنزيله وتحفيظه . فعلى كل ذى علم أن لا يغفل عن هاتين المنتين والقيام بشكرهما . وهما منة الله عليه بحفظه العلم ، ورسوخه في صدره ، ومنته عليه في بقاء المحفوظ ، (٢) .

ثم أمر الله - تعالى - فيه أن يتحدى المشركين بهذا القرآن فقال - تعالى - : « قل لمن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - طؤلاء المشركين الذين قالوا - كما حكى الله عنهم - « لو نشاء لقلنا مثل هذا » ، قل لهم على سبيل التحدى والتعجيز : والله لمن اجتمعت الإنس والجن ، واففقوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، الذى أنزله الله - تعالى - من عنده على قلبى ... لا يستطيعون ذلك . ولو كان بعضهم لبعض مظاهرا ومعيئا ومناصرا ، فى تحقيق ما يمتنون به من الإتيان بمثله .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٦٤٦ .

(٢) تفسير الكشف ج ٢ ص ٦٩١ .

وخص - سبحانه - ، الإنس والجن ، بالذكر ، لأن المنكر كون القرآن من عند الله ، من جنسهما لاهن جنس غيرهما كالملائكة - مثلا - ، فإنهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ولأن التحدى إنما هو هو للإنس والجن الذين أرسل الرسول - صلى الله عليه وسلم - لإيهم ، لهدايتهم إلى الصراط المستقيم .

وقال - سبحانه - : « لا يأتون بمثله » ، فأظهر في مقام الإضمار ، ولم يكتف بأن يقول : لا يأتون به ، لدفع توهم أن يتبادر إلى الذهن أن له مثلا معينا ، وللإشعار بأن المقصود نفي المثل على أى صفة كانت هذه المثلثة ، سواء أ كانت في بلاغته ، أم في حسن نظمه ، أم في إخباره عن المغيبات ، أم في غير ذلك من وجوه إعجازه .

وقوله : « ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » ، معطوف على مقدر ، أى : لا يستطيعون الإتيان بمثله لولم يكن بعضهم ظهيرا ونصيرا لبعض ، ولو كان بعضهم ظهيرا ونصيرا لبعض لما استطاعوا أيضا .

والمقصود أنهم لا يستطيعون الإتيان بمثله على أية حال من الأحوال ؛ وبأية صورة من الصور ، لأنه متى اتفق إتيانهم بمثله مع المظاهرة والمعاونة . اتفق من باب الأولى الإتيان بمثله مع عدمهما . وقوله : « لبعض » ، متعلق بقوله « ظهيرا » .

ولقد بين - سبحانه - في آيات أخرى أنهم لن يستطيعوا الإتيان بعشر سور من مثله ، بل بسورة واحدة من مثله .

قال - تعالى - : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » (١) .

وقال - سبحانه - : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين » (١) .

ومع عجز المشركين عن الإتيان بسورة من مثل القرآن الكريم ، إلا أنهم استمروا فى ضغائنهم يعمدون ، وأبوا التذكر والتدبر ، ولقد صور - سبحانه - أحوالهم أكمل تصوير فقال : « ولقد صرفنا فى هذا القرآن من كل مثل ، فأبى أكثر الناس إلا كفورا ، » .

أى : ولقد صرفنا وكررنا وتوعنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ، أى : من كل معنى يذيع ، هو كالمثل فى بلاغته ، وإقناعه للنفوس ، وشرحه للصدور ، واشتماله على الفوائد الجملة ...

ومفعول : « صرفنا ، محذوف ، والتقدير : ولقد صرفنا الهدايات والعبر بوجوه متعددة ...

وقوله - تعالى - : « فأبى أكثر الناس إلا كفورا ، بيان لموقف الفاسقين عن أمر ربهم من هدايات القرآن الكريم وتوجيهاته ، وأوامره ونواهيه . أى : فأبى أكثر الناس الاستجابة لهديه ، وامتنعوا عن الإيمان بأنه من عند الله - تعالى - ، وجحدوا آياته وإرشاداته ، وعموا وصموا عن الحق الذى جاءهم به من نزل عليه القرآن ، وهو رسوله الله - صلى الله عليه وسلم - .

وقال - سبحانه - : « فأبى أكثر الناس ، بالإظهار فى مقام الإضمار ، للتأكيد والتوضيح .

والمراد بأكثر الناس : أولئك الذين بلغهم القرآن الكريم ، واستمعوا إلى آياته وتوجيهاته وتشريعاته وآدابه ، ولكنهم استحبوا الكفر على الإيمان ، وآثروا الضلالة على الهداية .

وعبر - سبحانه - بالأكثر ، إنصافاً للقلة المزمنة التي فتحت صدورهما للقرآن ، فأمنت به ، وعملت بما فيه من أوامر ونواه ...

قال الجمل : فإن قيل : كيف جاز قرله ، فأبى أكثر الناس إلا كفورا ، حيث وقع الاستثناء المفرغ في الإثبات ، مع أنه لا يصح ، إذ لا يصح أن تقول : ضربت إلا زبدا .

فالجواب : أن لفظة « أبى » تفيد النفي ، فكأنه قيل : فلم يرضوا إلا كفورا ، (٥) .

وبذلك نرى الآيات المكرمة قد ساقمت ما يدل على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وعلوه ، وفضله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - وعلى الناس ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ، .

ثم حكى - سبحانه - بعض المطالب المتعنتة التي طلمها المشركون من النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فقال - تعالى - :

« وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرُ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا فَتَجِيْرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا ، أَوْ تَأْتِي بَالُثًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ ، وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفُيقِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه ، قل سبحانه ربِّي هل كنتُ إلا بشرًا رسولًا (٩٣) » .

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات رواية طويلة ملخصها : أن نفرا من زعماء قريش اجتمعوا عند الكعبة ، وطلبوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجاءهم ، فقالوا له يا محمد : إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك ، وإنا والله

مانعهم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخات على قومك ١١ لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين . وسفهمت الأحلام ، وشتمت الآلهة ...

فإن كنت جئت بهذا الحديث تطلب مالا ، جمعة لك من أموالنا حتى تسكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تطلب شرفا فينا ، سودناك علينا ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ...

فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما بي شيء مما تقولون . ولكن الله بعثني إليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرني أن أكون بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني فهو حظكم من الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله - تعالى - حتى يحكم بيني وبينكم .

فقالوا له يا محمد : فإن كنت صادقا فيما تقول ، فسل لنا ربك الذي بعثك ، فليسير عنا هذا الجبل الذي قد ضيق علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، ويفجر فيها الأنهار ، ويبعث من معنى من آباءنا ، فنسألكم عما تقول أحق هو أم باطل ... وسله أن يبعث معك ملكا يصدقك ، وأسأله أن يجعل لنا جنانا وقصورا أو كنوزا من ذهب وفضة .

فقال - صلى الله عليه وسلم - ما بعث بهذا . فقالوا : فاسقط السماء - كازعمت - علينا كسفا ... وقال أحدهم : لا أو من بك أبدا ، حتى تتخذ لك سلما إلى السماء ترقى فيه ، ونحن ننظر إليك . .

فانصرف - صلى الله عليه وسلم - عنهم حزينا ، لما رأى من قباةهم عن الهدى ، فانزل الله عليه هذه الآيات تسلية له ... ، (١)

(١) راجع تفسير ابن جرير ج ١٥ ص ١١٠ وتفسير ابن كثير ج ٥ ص ١١٥

وتفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٢٨ .

والمعنى : وقال المشركون الذين لا يرجون لقاءنا الرسولنا - صلى الله عليه وسلم - يا محمد : : لن تؤمن لك ، وتتبعك فيما تدعونا إليه .

و حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أى : حتى نخرج لنا من أرض مكة القليلة المياه ، ينبوعا ، أى : عينا لا ينضب ماؤها ولا يفور .

يقال : نبع الماء من العين ينبع - بتثنية الباء فهما - إذا خرج وظهر وكثر .

وقرأ بعض السبعة : تفجر ، بالتخفيف - من باب نصر - وقرأ البعض الآخر : تفجر ، بتشديد الجيم ، من جفر بالتشديد ، والتضعيف للتكثير .

والتعريف فى لفظ : الأرض ، العهد ، لأن المراد بها أرض مكة .

وعبر بكلمة : ينبوعا ، للإشعار بانهم لا يريدون من الماء ما يكفيهم شربا ، وإنما هم يريدون ماء كثيرا لا ينقوص فى وقت من الأوقات ، إذ الياء زائدة للبالغة .

وقوله - سبحانه - : : أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، بيان لافتراح آخر من مقترحاتهم السخيفة .

والمعنى : أو تكون لك بصفة خاصة يا محمد ، : جنة ، أى : حديقة ملتفة الأغصان ، مشتملة على الكثير من أشجار النخيل والأعشاب : تجرى الأنهار فى وسطها جريا عظيما هائلا ..

وخصوا النخيل والأعشاب بالذكر - كما حكى القرآن عنهم - ، لأن هذين الصنفين يعتبران من أهم الثمار عندهم ، ولأنهما على رأس الزروع المنتشرة فى أراضيهم ، والتي لها الكثير من الفوائد .

وقوله : : خلالها ، منصوب على الظرفية ، لأنه بمعنى وسطها وبين ثناياها . والتنوين فى قوله : تفجيرا ، للتكثير ، أى : تفجيرا كثيرا زائرا ، بحيث تكون تلك الجنة الخاصة بك ، غنية بالمياه التى تدفعها وتروىها .

وقوله - عز وجل - : « أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ... »
اقتراح ثالث من مقترحاتهم الفاسدة .

وقوله « كسفا » أى : قطعاً جمع كسفه - بكسر الكاف وسكون السين ،
يقال : كسفت الثوب أى : قطاعته وهو حال من السماء ، والكاف فى قوله :
« كما » صفة لموصوف محذوف .

والمعنى : « أو تسقط أنت علينا السماء إسقاطاً مماثلاً لما هددتنا به ، من أن
فى قدرة ربك - عز وجل - أن ينزل علينا عذاباً متقطعاً من السماء .

ولعلمهم يعنون بذلك قوله - تعالى - : « أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم
من السماء والأرض ، إن يشأ نخسف بهم الأرض ، أو يسقط عليهم كسفا
من السماء ... » (١) .

وقيل يعنون بذلك ، أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء ، فمجل
لنا ذلك فى الدنيا ، وأسقطها علينا ، كما حكى عنهم القرآن ذلك فى قوله - تعالى -
« وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهطر علينا حجارة من السماء
أو ائتنا بعذاب أليم ... » (٢) .

فهم يتعجلون العذاب . والرسول - صلى الله عليه وسلم - ، يرجو من الله
- تعالى - الرحمة والهداية وتأخير العذاب عنهم ، لهله - سبحانه - أن يخرج
من أصلابهم من يخلص له العبادة والطاعة .

وقوله - تعالى - « أو تأتى بآلهم والملائكة قبلاً » تسجيل لمطلب رابع من
مطالبهم القبيحة .

قال الآلوسى : « قبلاً ، أى : مقابلاً ، كالعشير والمهاشر ، وأرادوا - كل
جاء عن ابن عباس - عياناً .

(١) سورة ساء الآية ٩

(٢) سورة الأنفال من ٣٢ .

وهذا كقولهم : « لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا » ، وفي رواية أخرى عنه وعن الضحاك تفسير القبيل بالكفيل ، أى : كفيلا بما تدعيه .
يعنون : شاهدا يشهد لك بصحة ما قلته .

وهو على الوجهين حال من لفظ الجلالة . . . وعن مجاهد : القبيل الجماعة كالقبيلة ، فيكون حالا من الملائكة - أى : أو تأتي بالله وبالملائكة قبيلة قبيلة - (١) .

ثم حكى - سبحانه - بقية مطالبهم التي لا يقرها عقل سليم فقال : « أويكون لك بيت من زخرف ،

أى : من ذهب ، والزخرف يطلق في الأصل على الزينة ، وأطلق هنا على الذهب لأن آمن ما يزين به في العادة .

« أو ترقى في السماء » ، أى : تصعد إليها . يقال : رقى فلان في السلم يرقى رقياً ورقياً أى صعد ، « ولن تؤمن لرقيك » ، وصعودك إليها مع مشاهدتنا لذلك « حتى تنزل علينا » منها « كتاباً تفرقه » ، ونفهم ما فيه ، « أى : يكون هذا الكتاب بلغتنا التي نفهمها » وبأسلوب مخاطباتنا ، وفيه ما يدل دلالة قاطعة على أنك رسول من عند الله - تعالى - ، وما يدعونا إلى الإيمان بك .

ثم ختم - سبحانه هذه الآيات ، بأن أمر نبيه محمداً - صلى الله عليه وسلم - بأن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم ، فقال : « قل سبحانه ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً » .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - على سبيل التعجب من سوء تفكير هؤلاء الجاحدين : يا سبحانه الله هل أنا إلا بشر كسائر البشر ، ورسول كسائر الرسل ، وليس من شأن من كان كذلك أن يأتي بتلك المطالب المتعنتة التي

طلبتموها ، وإنما من شأنه أن يبلغ ما أمره الله بتبليغه من هدايات . تخرج
الناس من ظلمات الكفر والجهل . إلى نور الإيمان والعلم .

فالاستغفار في قوله « هل كنت ... » ، للنفى ، أى : ما كنت إلا رسولا
كسائر الرسل ، وبشرا مثاهم .

وقوله « سبحان ربى » يفيد التعجب من فرط حماقتهم ، ومن بالغ جهلهم ،
حيث طلبوا تلك المطالب ، التى تضمنت ما يعتبر من أعظم المستحيلات ،
كطلبهم لإتيان الله - عز وجل - والملائكة إليهم ، ورقبتهم لذاته - سبحانه - ،
على سبيل المعابنة والمقابلة .

وهذا التعنت والعناد الذى حكاه الله - تعالى - عن هؤلاء الجاحدين ، قد
جاء ما يشبهه في آيات أخرى . كما جاء ما يدل على أنهم حقوا أعظام الله - تعالى -
مطالبهم . لما آمنوا ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « ولو أننا نزلنا عليهم الملائكة
وكلهم الموتى ، وحشرنا عليهم كل شئ قبلا ، ما كافوا ليؤمنوا إلا أن يشاء
الله ، وإن كن أكثرهم يجهلون » (١) .

وقوله - سبحانه - : « إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو
جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الآليم » (٢) .

وقوله - عز وجل - : « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون
لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » (٣) .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك شبهة من شبهاتهم الفاسدة والمتعددة ، وهى
زعمهم أن الرسول لا يكون من البشر بل يكون ملكا . وقد أمر الله - تعالى -
رسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن يرد عليهم بما يبطل مدعاهم فقال :

(١) سورة الأنعام الآية ١١١ .

(٢) سورة يونس الآية ٩٦ ، ٩٧ .

(٣) سورة الحجر الآية ١٤ ، ١٥ .

« وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ، إلا أن قالوا : أبعث الله بشراً رسولا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مِلاَئِكَةٌ يَعْشُونَ مُظْمِئِينَ ، لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَى بِاللّٰهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) » .

قال الفخر الرازي : أعلم أنه - تعالى - لما حكى شبهة القوم في افتراح المعجزات الزائدة ، وأجاب عنها ، حكى عنهم شبهة أخرى ، وهي أن القوم استبعدوا أن يبعث الله إلى الخلق رسولا من البشر ، بل اعتقدوا أن الله - تعالى - لو أرسل رسولا إلى الخلق ، لوجب أن يكون ذلك الرسول من الملائكة ، فأجاب الله - تعالى - عن هذه الشبهة فقال : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا ... » (٩٤) .

والمراد بالناس هنا : المشركون منهم ، الذين استبعدوا واعتقدوا أن الرسول لا يكون من البشر ، ويدخل فيهم دخولا أوليا كفار مكة .
وجملة : « أن يؤمنوا » في محل نصب ، لأنها منقول ثان لمنع .
وقوله : « إلا أن يؤمنوا » هو الفاعل . و « إذ » ظرف للفعل منع ، أو لقوله : « أن يؤمنوا » .

والمعنى : وما صرف المشركين عن الإيمان بالدين الحق وقت أن جاءتهم به الرسل ، إلا اعتقاد هؤلاء المشركين أن الله - تعالى - لا يبعث إليهم رجلا من البشر لكي يبلغهم وحيه ، وإنما يبعث إليهم ملكا من الملائكة لكي يبلغهم ذلك .

وعبر عن اعتقادهم الباطل هذا بالقول فقال : « إلا أن قالوا ... » للاشعار بأنه مجرد قول لا كتبه أسنتهم ، دون أن يكون معهم أى دسند يستندون إليه لإثبات قبوله عند العقلاء .

وجاء التعبير عن اعتقادهم الباطل هذا بصيغة الخصر ، لبيان أنه مع بطلانه - هو من أهم الموانع والصوارف ، التي منعتهم وصرفتهم عن الدخول في الدين الحق ، الذي جاءتهم به الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ، وهذا لا يمنع أن هناك صوارف أخرى حالت بينهم وبين الإيمان كالخسد والعناد .

قال صاحب الكشف : والمعنى . وما منعهم من الإيمان بالقرآن ، وبنبوة النبي - صلى الله عليه وسلم - إلا شبهة تلجلجت في صدورهم ، وهي إنكارهم أن يرسل الله البشر . والهمزة في « أبعث الله » ، الإنكار ، وما أنكروه بخلافه هو المنكر عند الله - تعالى - لأن قضية حكمته ، أن لا يرسل ملك الوحي إلا إلى أمثاله ، أو إلى الأنبياء ، (١) .

والمتدبر في القرآن الكريم ، يرى أن هذه الشبهة - وهي إنكار المشركين كون الرسول بشرا - قد حكاهما في آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : « أكان للناس عجايب أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم » . . . (٢) .

وقوله - تعالى - : « ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهودنا ، فكفروا ونولوا ، واستغنى الله ، والله غني حميد » (٣) .

وما لاشك فيه أن هذه الشبهة تدل ، على أن هؤلاء الكافرين ، لم يدركوا قيمة بشريتهم وكرامتها عند الله - تعالى - ، وذلك بسبب انطباع بصائرهم ، وكثرة جهلهم ، وعكوفهم على موروثاتهم الفاسدة .

ولذا أمر الله - تعالى - بأن يرد عليهم بما يزهق هذه الشبهة فقال - سبحانه - « قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ، لنزلنا عليهم من السماء مطرًا رسولاً ، » .

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٩٩ .

(٢) سورة يونس الآية ٢ . (٣) سورة التغابن الآية ٦ .

والمعنى : قل - يا محمد - لهؤلاء الجاهلين : لو ثبت وجود ملائكة في الأرض ، يعيشون على أقدامهم كما يعيش الإنسان ، ويعيشون فوقها ، مطمئنين ، أى : مستقرين فيها مقيمين بها .

لو ثبت ذلك ، لاقتضت حكمتنا أن نرسل إليهم من السماء ملكا رسولا ، يكون من جنسهم ، ويتكلم بلسانهم ، وبذلك يتمكنون من مخاطبته ، ومن الأخذ عنه ، ومن التفاهم معه ، لأن الجنس إلى الجنس أميل ، والرسول يجب أن يكون من جنس المرسل إليهم ، فلو كان المرسل إليهم ملائكة ، لكان الرسول إليهم ملكا مثلهم ، ولو كان المرسل إليهم من البشر ، لكان الرسول إليهم بشرا مثلهم .

فكيف يطلبون أيها الجاهلون - أن يكون الرسول إليكم ملكا ، وتستبعدون أن يكون بشرا مع أنكم من البشر ١١٩

قال الألوسي : قوله : « أنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ، أى : إليهم ما لا تستقل عقولهم بعلمه ، وليسهل عليهم الاجتماع به ، والتلقى منه ، وأما عامة البشر فلا يسهل عليهم ذلك ، لبعد ما بين الملك وبينهم ... » (١)

وهذا المعنى الذى وضحته الآية الكريمة - وهو أن الرسول يجب أن يكون من جنس المرسل إليهم - قد جاء ما يشبهه ويؤكده في آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبعضنا عليهم ما يلبسون (٢) .

وقوله - سبحانه - : « وما أرسلنا قبلك إلا رجالا فوحى إليهم » فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، (٣) .

(١) تفسير الألوسي ج ١٥ ص ١٧٢ .

(٢) سورة الأنعام الآيتان ٨ ، ٩ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ٧ .

وقوله - عز وجل - : وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ... (١) .

ثم أمرا الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - للمرة الثانية ، أن يحسم الجدل معهم ، بتفويض أمره وأمرهم إلى الله - عز وجل - ، فهو خير الحاكمين فقال - : قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ، إنه كان بعباده خبير بصيرا .

أى : قل لهم فى هذه المرة من جنتك ، بعد أن قلت لهم فى المرة السابقة . من جنتنا : قل لهم - أيها الرسول الكريم - يكفى بيني وبينى ويسعدنى ، أن يكون الله - تعالى - هو الشهيد والحاكم بيني وبينكم يوم تلقاه جميعا فهو - سبحانه - يعلم أنى قد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، إنه - تعالى - كان ومازال خبيرا بصيرا . أى : محيطا لحاطة تامة بظواهرهم وبواطنهم ، لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء .

وفى هذه الآية الكريمة تساية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم من أذى ، وتمسديد لهم بسوء المصير ، حيث آذوا نبيهم الذى جاء لهدايتهم وسعادتهم .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد حكمت بعض الشبهات الفاسدة التى تذرع بها الكافرون فى البقاء على كفرهم ، كما حكمت ما اقتضته حكيمته - سبحانه - فى إرسال الرسل ، وهددت المصيرين على كفرهم بسوء العقاقية .

ثم ساق - سبحانه - شبهة أخرى من شبهات المشركين التى حكها عنهم كثيرا ، ورد عليها بما يبطلها ، وبين أحوالهم السيئة يوم القيامة ، بعد أن بين أن الهداية والإضلال من شأنه وحده فقال - تعالى -

« وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فهُوَ الْمُهْتَدُ ، وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ، وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عِمَادًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ، مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ كَمَا خَبَتْ زِدَانُهُمْ سَمِيرًا (٩٧) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرِفَاقًا أَأَنْتَ الْمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أَوَأَمْ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ، وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ ، فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩) قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ، إِذَا لَا مُسْتَكْتَمَ خَشْيَةِ الْإِنْفَاقِ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (١٠٠) .

وقوله - سبحانه - : « وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فهُوَ الْمُهْتَدُ ، وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ، كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ مِنْهُ --- تعالى - إيمان نفاذ قدرته ومشيئته .

أى : « وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ --- تعالى - إلى طريق الحق ، فهو الفائز بالسعادة ، المهدي إلى كل مطلوب حسن ، « وَمَنْ يُضِلِّ » أى : « وَمَنْ يَرُدُّ اللَّهُ --- تعالى - لإضلاله ، فلن تجد لهم ، أيها الرسول الكريم ، أولياء ، أى : نصراء ينصرونهم إلى طريق الحق ، من دونه ، عز وجل ، إذ أن الله - تعالى - وحده هو الخالق للهداية والضلالة ، على حسب ما تقتضيه حكيمته ومشيئته .

وجاء قوله - تعالى - « فهُوَ الْمُهْتَدُ ، بصيغة الإفراد حملا على لفظ « مَنْ » ، فى قوله « وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ ، وجاء قوله : « فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ ، بصيغة الجمع حملا على معناها فى قوله : « وَمَنْ يُضِلِّ ،

قالوا : « وَجِهَ الْمُنَاسِبَةُ فِي ذَلِكَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ لِمَا كَانَ الْهَدَى شَيْئًا غَيْرَ مُتَشَبِّهِ السَّبِيلِ ، فَاسْمُهُ الْإِنْفَاقُ ، وَلَمَّا كَانَ الضَّلَالُ لَهُ طَرَقٌ مُتَشَبِّهَةٌ ، كَافَى

قوله - تعالى - : « ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، فأسبغة الجمع ^(١) »

ثم بين - سبحانه - الصورة الشنيعة التي يحشر عليها الضالون يوم القيامة فقال : « ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ، غيبا وبكا وصما .. »

والحشر : الجمع . يقال : حشرت الجنود حشرا . أى جمعتهم . وقوله : « على وجوههم ، حال من الضمير المنصوب في نحشرهم ، . وقوله : « غيبا ، وبكا وصما ، أحوال من الضمير المستكن في قوله « على وجوههم » . أى : نجمع هؤلاء الضالين يوم القيامة ، حين يقومون من قبورهم ، ونجعلهم - بقدرتنا - يمشون على وجوههم ، أو يسحبون عليها ، إهانة لهم وتعذيبا ، ويكونون في هذه الحالة غيبا لا يبصرون ، وبكا لا ينطقون ، وصما لا يسمعون .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى - : « ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم » إما شيئا ، بأن يزحفون منكبين عليها . ويشهد له ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن أنس قال : قيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ فقال : الذى أشاهم على أرجلهم ، قادر على أن يمشيهم على وجوههم ، ...

ولما سحبا بأن تجرم الملائكة منكبين عليها ، كقوله - تعالى - : « يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر » ويشهد له ما أخرجه أحمد والنسائى والحاكم - وصححه - عن أبى ذر ، أنه فلا هذه الآية . « ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ، فقال . حدثنى الصادق المصدوق - صلى الله عليه وسلم - أن الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاثة أفواج طاعمين كاسين راكبين ، وفوج يمشون ويسعون ، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم . »

وجائز أن يكون الأمران في حالين : الأول : عند جمعهم وقبل دخولهم النار ، والثاني عند دخولهم فيها ...

ثم قال : وزعم بعضهم أن الكلام على المجاز ، وذلك كما يقال للنصرف عن أمر وهو خائب مغموم : انصرف على وجهه وإياك أن تلتفت إلى - هذا الزعم - أو إلى تأويل نطقت السنة النبوية بخلافه ، ولا تعبا يقوم يفعلون ذلك ، (١) .

فإن قيل : كيف نوفق بين هذه الآية التي تثبت طهؤلاء الضالين يوم حشرهم للعمى والبكم والصمم ، وبين آيات أخرى تثبت لهم في هذا اليوم الرؤية والكلام والسمع ، كما في قوله - تعالى - : « ورأى المجرمون النار » : « وكفى قوله - سبحانه - : « دعوا هؤلاء ثبوراً » ، وكفى قوله - عز وجل - : « سمعوا لها تغيظاً وزفيراً » ؟

فالجواب : أن المراد في الآية هنا أنهم يحشرون عمياً لا يرون ما يشعرون ، وبكياً لا ينطقون بحجة تنفعهم ، وصماً لا يسمعون ما يرصيههم أو أنهم يحشرون كذلك ، ثم تعاد لهم حواسهم بعد ذلك عند الحساب وعند دخولهم النار .

أو أنهم عندما يحشرون يوم القيامة ، ويرون ما يرون من أهوال ، تكون أحوالهم كأحوال العمى الصم البكم ، أعظم حيرتهم ، وشدة خوفهم ، وفقرط ذهولهم .

ثم بين - سبحانه - ما لهم بعد الحشر والحساب فقال : « ماواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً » .

ومعنى : « خبت » هذأت وسكن طيبها . يقال : خبت النار تخبول إذا هذأ طيبها . أى : أن هؤلاء المجرمين ما رآهم ومسكنهم ومقرهم جهنم ، كلما سكن طيب جهنم وهذأ ، بأن أكلت جلودهم ولحومهم ، زدناهم تورفاً ، بأن تبدل جلودهم ولحومهم بجلود ولحوم أخرى ، فتمود النار كما التها الأولى ملتية مستهرة .

وخبر النار وسكونها لا ينقص شيئا من عذابهم ؛ وعلى ذلك فلا تعارض بين هذه الآية وبين قوله - عز وجل - فالذين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ، (١) .

وفي هذه الآية ما فيها من عذاب للكافرين تقشعر من هوله الأبدان ، وترتجف من تصويره النفوس والقلوب ، نسال الله - تعالى - بفضله ورحمته ان يجنبنا هذا المصير المؤلم .

وقوله - عز وجل - : ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا : أنذا كنا عظاما ورفاقا أنما لمبعوثون خلقا جديدا ، بيان للأسباب التي أفضت إلى تلك العاقبة السيئة ،

أى : ذلك الذى نزل بهم من العذاب الشديد ، المتمثل فى حشرهم على وجوههم وفى اشتعال النار بهم ، سببه أنهم كفروا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وقالوا بإنكار وجهالة : أنذا كنا عظاما نخرة ، ورفاقا أى وصارت أجسادنا تشبه التراب فى تفتتها وتسكسرها ؛ أنما بعد ذلك لمعادون إلى الحياة ومبعوثون على هيئة خلق جديد ،

فآية الكريمة تحكى تصميمهم على الكفر ، وإنكارهم للبعث والحساب لإنكارهم لأمزيد عليه ، لذا كانت عقوبتهم شنيعة ، وعذابهم ألما : فقد سلط الله - تعالى - عليهم النار تاكل أجزاءهم ، وكلما سكن هيبها ، أعادها الله - تعالى - لهم مشتعلة على جلود أخرى لهم ، كما قال - تعالى - : إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليدوقوا العذاب

ثم رد - سبحانه - على ما استذكروه من شأن البعث ردا يقنع كل ذى عقل سليم ، فقال - تعالى - : أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم

والهمزة للاستفهام التوبيخي ، وهي داخلة على محذوف ، والمراد بـ «لهم» إِيَّاهُمْ ، فيكون المعنى : أعموا عن الحق ، ولم يعلموا كما يعلم العقلاء ، أن الله - تعالى - الذي خلق السموات والأرض بقدرته ، وهما أعظم من خلق الناس ، قادر على إعادتهم إلى الحياة مرة أخرى بعد موتهم ، لكي يحاسبهم على أعمالهم في الدنيا .

إن عدم علمهم بذلك ، وإنكارهم له ، لمن أكبر الأدلة على جهلهم وانطلاس بصيرتهم ، لأن من قدر على خلق ما هو أعظم وأكبر - وهو السموات والأرض فهو على إعادة ما هو دونه - وهو الناس - أقدر .

قال الشيخ الجليل ما ملخصه : قوله : «أولم يروا...» هذا رد لإنكارهم البعث ، ولما استبعدوه من شأنه ، يعني أن من خلق السموات والأرض ، كيف يستبعد منه أن يقدر على إعادتهم بأعيانهم ... وأراد - سبحانه - ... بمثلهم : إِيَّاهُمْ ، فعبّر عن خلقهم بلفظ المثل كقول المتكلمين : إن الإعادة مثل الابتداء ، وذلك أن مثل الشيء مساو له حاله ، فجاء أن يعبر به عن الشيء نفسه يقال : مثلك لا تفعل كذا ، أي : أنت لا تفعله .

ويجوز أن يكون المعنى أنه - سبحانه - قادر على أن يخلق عبداً غيرهم يوحّدونه ويقرون بكمال حكمته ، ويتركون هذه الشبهات الفاسدة كما في قوله - تعالى - : «وإن تتولوا يستقبل قرماً غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم ، والاول أشبه بما قبله» (١) .

وشبيه هذه الآية قوله - تعالى - : «أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ، بلى إنه على كل شيء قدير» (٢) .

وقوله - سبحانه - : «أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى ودو الخلاق العليم...» (٣) .

(١) حاشية الجليل على الجلالين ج ٢ ص ٦٥١ .

(٢) سورة الأحقاف الآية ١٢ . (٣) سورة يس الآية ٨١ .

وبعد أن أقام - سبحانه - الدليل الواضح على أن البعث حق ، وعلى أن إعادة الناس إلى الحياة بعد موتهم أمر ممكن ، أتبع ذلك ببيان أن لهذه الإعادة وقتاً معلوماً ما يجريه حسب حقيقته - تعالى - فقال : . وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه . .

أى : وجعل لهم ميقاتاً محدداً لا شك في حصوله ، وعند حلوله - إذا الميقات يخرجون من قبورهم للحساب والجزاء ، كما قال - تعالى - : « وما يؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لاتكلم نفس إلا بإذنة ، فمنهم شقى وسعيد . »

والجلمة الكريمة وهي قوله : « وجعل لهم . . . » معطوفة على قوله « أولم يروا . . . » ، لأنه في قوة قولك قد رأوا وعلوا .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : علام عطف قوله : « وجعل لهم أجلاً . . » قلت : على قوله : « أولم يروا » ، لأن المعنى : قد علوا بدليل العقل ، أن من قدر على خلق السموات والأرض ، فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس لأنهم ليسوا بأشد خلقاً منهم ، كما قال : « أنتم أشد خلقاً أم السماء » (١) . وقوله - سبحانه - : « فإني الظالمون لا كفوراء » بيان لإم رارهم على جحود الحق مع علمهم بأنه حق .

أى : فإني هؤلاء الظالمون المتفكرون للبعث ، إلا جحوداً له وعناداً لمن دعاهم إلى الإيمان به ، شأن الجاهلين المغرورين الذين استجبوا العمى على الهدى . ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة بأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن يجابه هؤلاء الظالمين بما جبلوا عليه من بخل وشح ، بعد أن طلبوا منه ما طلبوا من مقترحات متعنتة ، فقال - تعالى - : « قل لو أقمتملكون خزائن رحمة ربي إذا لامسكم خشية الإنفاق ، وكان الإنسان قتوراً » .

والمراد بخزائن رحمة ربي : أرزاقه التي وزعها على عباده ، ونعمه التي أنعم بها عليهم .

« وقتورا ، من التقدير بمعنى البخل . يقال : قتر فلان يقتر - بضم التاء وكسرها - إذا بالغ في الإمساك والشح .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - طؤلا الظالمين الذين أعرضوا عن دعوتك ، وطالبوك بما ليس في وسعك من تفجير الأرض بالآثار ، ومن غير ذلك من مقترحاتهم الفاسدة ، قل لهم على سبيل التقرير والتبكيث : لو أنكم تملكون - أيها الناس - التصرف في خزائن الأرزاق التي وزعها على خلقه ، إذا لبخلتم وأمسكنم في توزيعها عليهم ، مخافة أن يصيبكم الفقر لو أنكم توسعتم في العطاء ، مع أن خزائن الله لا تنفذ أبدا ، ولكن لأن البخل من طبيعتكم فعلتم ذلك .

قال بعضهم : وقوله : « لو أنتم تملكون ، فيه وجهان : أحدهما : أن المسألة من باب الاشتغال . فأنتم مرفوع بفعل مقدر يفسره هذا الظاهر ، لأن لو لا يليها إلا الفعل ظاهراً أو مضمرأ . فهي كيان في قوله - تعالى - : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره ، والأصل : لو تملكون ، حذف الفعل لدلالة ما بعده عليه . والثاني أنه مرفوع بكان ، وقد كثر حذفها بعد لو ، والتقدير : لو كنتم تملكون ... » (١) .

والمقصود بالإمساك هنا : إمساكهم عن العطاء في الدنيا ، وهذا لا يناقى قوله - تعالى - : « ولو أن للذين ظلموا مافي الأرض جميعا ومثله معه لا فقدوا به ... » لأن ذلك حكاية عن أحوالهم في الآخرة عندها يرون العذاب ويتعنون أن يفتدوا أنفسهم منه بأي شيء .

وقوله « إذا ، ظرف لـ تملكون . وقوله « لا أمسكنم ، جواب لو ، وقوله « خشية الإنفاق ، علة للإمساك والبخل .

وقوله : « وكان الإنسان قتورا ، أى : مبالغا في البخل والإمساك . قال الإمام ابن كثير : واقع - تعالى - يصف الإنسان من حيث هو ، إلا

من وفقه الله وهداه ، فإن البخل والجور والهلل صفة له ، كما قال - تعالى - :
 • إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا .
 إلا المصلين ، .

ولهذا نظائر كثيرة في القرآن الكريم ، وهذا يدل على كرمه - تعالى -
 وإحسانه . وقد جاء في الصحيحين : يد الله ملاء لا يفيضها نفقه ، سبحانه الليل
 والنهار ، أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم ينفق ما في
 يمينه ، (١)

وقال الآلوسی : وقد بلغت هذه الآية من الوصف بالشح الغاية القصوى
 التي لا يبلغها الوهم ، حيث أفادت أنهم لو ملأوا خزائن رحمة الله - تعالى -
 التي لا تنفهاى ، وانفردوا بملكها من غير مزاحم ، لأمسكوا عن النفقة من غير
 مقتض إلا خشية الفقرا ، وإن شئت فوازن بقول الشاعر :

ولو أن دارك أنبت لك أرضها لبرأ يضيق بها فناء المنزل
 وأناك يوسف يستعبرك إبرة ليخيط قد قميصه لم تفعل

مع أن قيمة من المبالغات ما يزيد على العشرة ، ترى التفاوت الذي
 لا يحصر (٢)

ثم بين - سبحانه - ما يدل على أن العبرة في الإيمان ، ليست بعظم الخوارق
 ووضوحها ، وإنما العبرة بتفتح القلوب للحق ، واستعدادها لقبوله ، وساق
 - سبحانه - مثلا لذلك من قصة موسى - عليه السلام - فقد أعطاه من المعجزات
 البينة ما يشهد بصدقه ، ولكن فرعون وجنده لم تزدكم تلك المعجزات إلا كفرا
 وعنادا ، فقال - تعالى - :

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٢٢

(٢) تفسير الآلوسی ج ١٥ ص ١٨١

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، فَاسْتَأْذَنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ ، فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَفْعَلْنَا هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ ، وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَ بِهِمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مَنْ بَعْدَهُ ابْنِيَ إِسْرَآئِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) » .

والمراد بالآيات التسع في قوله - تعالى - : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ... » : العصا ، واليد ، والسنون ، والبحر ، والظوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم . قال ذلك ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم .

وقد جاء الحديث عن هذه الآيات في مواضع أخرى من القرآن الكريم ، منها قوله - تعالى - : « فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ . وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَةٌ لِلْمُنَظِّرِينَ ، (١) » .

وقوله - تعالى - : « وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ ... » (٢) .

وقوله - سبحانه - : « فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوَرِ الْعَظِيمِ ، (٣) » .

وقوله - عز وجل - : « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ، آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ، (٤) » .

(١) سورة الشعراء الآيةان : ٢٢ ، ٢٣ -

(٢) سورة الأعراف الآية ١٣٠ (٣) سورة الشعراء الآية ٦٣

(٤) سورة الأعراف الآية ١٢٣

والمعنى : لا تظن - أيها الرسول الكريم - أن لإيمان هؤلاء المشركين من قومك ، متوقف على إجابة ما طلبوه منك . وما اقترحوه عليك من أن تفجر لهم من الأرض يذوفا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ... الخ . لا تظن ذلك :

فإن الخوارق مهما عظمت لا تنشى . الإيمان في القلوب الجاحدة الخاقدة ، بدليل أننا قد أعطينا أخاك موسى تسع معجزات ، ووضحنا الدلالة على صدقه في نبوته ، ولكن هذه المعجزات لم تزد المعاندين من قومه إلا كفرا على كفرهم ورجسا على رجسهم . فأصبر - أيها الرسول - على تغت قومك وأذاهم ، كما صبر أولوا العزم من الرسل قبلك .

وتحديد الآيات بالتسبع ، لا ينبغي أن هناك معجزات أخرى أعطها الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - إذ من المعروف عند علماء الأصول ، أن تحديد العدد بالذكر ، لا يدل على نفي الزائد عنه .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : وهذا القول - المروى عن ابن عباس وغيره - ظاهر جلي حسن قوى ... فهذه الآيات التسع ، التي ذكرها هؤلاء الأئمة ، هي المرادة هنا ...

وقد أوتي موسى - عليه السلام - آيات أخرى كثيرة منها : ضربه الحجر بالعصا ، وخروج الماء منه ... وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر ، وليسكن ذكر هنا هذه الآيات التسع التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر وكانت حجة عليهم بخالفوها وعاندوها كفرا وجحدا .

ثم قال : وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة ، قال : سمعت عبد الله بن سلمة يحدث عن صفوان بن عسال المرادي قال : قال يهودى لصاحبه : أذهب بنا إلى هذا النبي حتى نسأله عن هذه الآية : ، ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ... ، فسألاه : فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - :

لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله
إلا بالحق ، ولا تسحرّوا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تمشوا بهرى . إلى ذى سلطان
ليقتله ، ولا تقذفوا عصنة ، ولا تفروا من الزحف . . . فقبلا يديه ورجليه . . .

ثم قال : « أما هذا الحديث فهو حديث مشكك . وعبد الله بن سلمه في
حفظه شىء . ، وتكلموا فيه ، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات ، بالعشر الكلمات ،
فإنها وصايا في التوراة ، لا تعلق لها بقيام الحجّة على فرعون . . . » (١)

والحق أن مارجحه الإمام ابن كثير من أن المراد بالآيات التسع هنا :
ما آناه الله - تعالى - أنبيه موسى - عليه السلام - من العصا ، واليد . . . هو
الذى تسكن إليه النفس ، لأن قوله - تعالى - بعد ذلك : « قال لقد علمت ما أنزل
هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر . . . » يؤيد أن المراد بها ما تقدم
من العصا ، واليد ، والسنين . . . ، لأنها هي التي فيها الحجج ، والبراهين
والمعجزات الدالة على صدق موسى - عليه السلام - . أما تلك الوصايا التي
وردت في الحديث فلا علاقة لها بقيام الحجّة على فرعون - كما قال الإمام
ابن كثير - .

هذا ، والخطاب في قوله - تعالى - : « فأسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم ، يرى
بعضهم أنه للنبي - صلى الله عليه وسلم - . والمسئولون هم المؤمنون من بنى إسرائيل
كعبد الله بن سلام وأصحابه .

وعلى هذا التفسير يكون قوله « إذ جاءهم » ظرف لقوله « آتينا » ، وجملة
« فأسأل بنى إسرائيل » معترضة بين العامل والمعمول .

والمعنى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بديّات ، وقت أن أرسله الله - تعالى -
إلى فرعون وقومه ، فأسأل - أيها الرسول الكريم - المؤمنين من بنى إسرائيل

عن ذلك ، فستجد منهم الجواب عما جرى بين موسى وأعدائه عن طريق ما طالعوه في التوراة .

والمقصود بسؤالهم : الاستشهاد بهم حتى يزداد المؤمنون إيماناً على إيمانهم ، لأن من شأن الأدلة إذا تضافرت وتعددت ، أن تكون أقوى وأثبت في تأييد المدعى .

قال الألوسي : والمعنى ، فاسأل يا محمد مؤمنى أهل الكتاب عن ذلك ، إما لأن تظاهر الأدلة أقوى - في التثبيت - ، وإما من باب التهييج والإلهاب ، وإما للدلالة على أنه أمر محقق عندهم ثابت في كتبهم . وليس المقصود حقيقة السؤال . بل كونهم - أعني المستولين - من أهل علمه ، ولهذا يؤمر مثلك بسؤالهم ، (١)

ويؤخر أن الخطاب لموسى . عليه السلام . ، وعليه يكون السؤال إما بمعناه المشهور أو بمعنى الطلب ، ويكون قوله : إذ جاءهم ، ظرفاً لفعل مقدر .

والمعنى : ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ، رقلنا له حين مجيئه إلى بني إسرائيل : إنا نطلب من أحوالهم مع فرعون ، أو نطلب منهم أن يؤمنوا بك ويصدقوك ، ويخرجوا معك حين نطلب من فرعون ذلك .

والفاء في قوله : فقال له فرعون إني لأظنك ياموسى مسحوراً ، هي الفصيحة . إذ المعنى : فامتثل موسى أمرنا ، وسأل بني إسرائيل عن أحوالهم ، وطلب من فرعون أن يرسلهم معه ، بعد أن أظهر له من المعجزات ما يدل على صدقه ، فقال فرعون لموسى على سبيل التعالى والتهوين من شأنه - عليه السلام - : ياموسى إني لأظنك مسحوراً .

أى : سحرت غواط عقلك واختل ، وصرت تتصرف تصرفاً يتنافى مع العقل السليم ، وتدعى دعاوى لاتدل على تفكير قويم .

فقوله « مسجورا » اسم مفعول . يقال : سحر فلان فلانا يسحره سحرا فهو مسحور ، إذا اختلط عقله .

ويجوز أن يكون قوله « مسجورا » بمعنى ساحر ، فيكون المعنى : إني لأظنك يا موسى ساحرا ، عليهما بفتنون السحر فقد أنيت بأشياء عجيبة يشير بذلك إلى إنقلاب العصا حية بعد أن ألقاها - عليه السلام - .

وهذا شأن الطغاة في كل زمان ومكان ، عندما يرون الحق قد أخذ يحاصرهم ، ويكشف عن ضلالهم وكذبهم .. يرمون أهله - زورا وبهتانا - بكل تقيصه .

وهنا يحكى القرآن الكريم مارد به موسى على فرعون فيقول : « قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر .

أى : قال موسى لفرعون ردا على كذبه وافتراءه : لقد علمت يا فرعون أنه ما هذه الآيات التسع إلا الله - تعالى - خالق السموات والأرض ، وقد أوجدها - سبحانه - بصورة واضحة جليلة ، حتى لسكانها البصائر في كشفها للحقائق وتجليتها .

فقوله « بصائر » ، حال من « هؤلاء » ، أى : أنزل هذه الآيات حال كونها بينات واضحات تدلك على صدق .

وفى هذا الرد وتوبيخ فرعون على تجاهله الحقائق ، حيث كان يعلم علم اليقين أن موسى - عليه السلام - ليس مسجورا ولا ساحرا ، وأن الآيات التى جاء بها إنما هى من عند الله - تعالى - ، كما قال - سبحانه - : مخاطبا موسى : وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، فى تسع آيات إلى فرعون وقومه ، لأنهم كانوا قوما فاسقين ، فلما جاءتهم آياتنا مبصرة ، قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ، (١) .

وقوله : «ولمّا لا ظنك يا فرعون مشبورا ، توبيخ آخر لفرعون ، وتهديده
لأنه وصف واحدا من أنبياء الله - تعالى - بأنه مسحور .

ومشبورا بمعنى الملك مدمر . يقال : ثبر الله - تعالى - الظالم يشبه ثبورا ،
إذا أهلكه .

أو بمعنى مصروفا عن الخير . مطبوعا على الشر ، من قولهم : ما ثبرك يا فلان
عن هذا الأمر ؟ أى : ما الذى صرفك ومنعك عنه .

والظن هنا بمعنى اليقين ، والمعنى : ولمّا لا اعتقد يا فرعون أن مصيرك إلى
الهلاك والتدمير ، بسبب إصرارك على الكفر والطغيان ، من بعد إتياني
بالمعجزات الدالة على صدقي فيما أبلغه عن ربى الذى خلقنى وخلقك وخلق
كل شيء .

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما هم به فرعون ، بعد أن أخرسه موسى - عليه
السلام - بقوة حجته ، وثبات جناحه فقال : فأراد أن يستفزهم من الأرض ..
والاستفزاز : الإزعاج والاستخفاف ، والمراد به هنا الطرد والقتل .

والضمير المنصوب فى « يستفزهم » يعود إلى موسى وقومه بنى إسرائيل .
أى : فأراد فرعون بعد أن وبخه موسى وهدهده ، أن يطرده وقومه من
أرض مصر إلى يسكنون معه فيها . وأن يقطع دابرهم ، كما أشار إلى ذلك
- سبحانه - فى قوله : « وقال الملائمة قوم فرعون أقذر موسى وقومه ليفسدوا
فى الأرض ويذرك وآهلك قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم ولما فوقهم
قاهرون » .

ثم حكى - سبحانه - ما ترتب على ما أراده فرعون من استفزاز لموسى
وقومه فقال : « فأغرقناه ومن معه جميعا . وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا
الأرض ... »

أى : أراد فرعون أن يطرد موسى وقومه من أرض مصر ، وأن يهلكهم ..
فكانت النتيجة أن عمكنا عليه مكره وبغيه ، حيث أهلكتناه هو وجنده
بالفرق ، دون أن نستثنى منهم أحدا .

وقلنا من بعد هلاكه لبني إسرائيل على لسان نبينا موسى - عليه السلام - :
اسكنوا الأرض التي أراد أن يستفزكم منها فرعون وهي أرض مصر .

قال الألوسي : وهذا ظاهر لأن ثبت أنهم دخلوها بعد أن خرجوا منها ،
وبعد أن أغرق الله فرعون وجنده . وإن ثبت فالمراد من بني إسرائيل
ذرية أولئك الذين أراد فرعون استفزازهم . واختار غير واحد أن المراد
من الأرض . . الأرض المقدسة ، وهي أرض الشام ، (١) .

وعلى أية حال فالآية الكريمة تحكي سنة من سنن الله - تعالى - في إهلاك
الظالمين ، وفي تورث المستضعفين الصابرين أرضهم وديارهم .

ورحم الله الإمام ابن كثير ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : وفي هذا
بشارة لمحمد - صلى الله عليه وسلم - بفتح مكة . مع أن هذه السورة نزلت قبل
الهجرة ، وكذلك وقع ، فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول - صلى الله عليه
وسلم - منها ، كما قال - تعالى - : : « وإن كادوا يستفزوك من الأرض
ليخرجوك منها . . . » ، ولهذا أورث الله - تعالى - رسوله مكة ، فدخلها ، وقهر
أهلها ، ثم أطلقهم حلالا وكرا ، كما أورث الله القوم الذين كانوا مستضعفين
من بني إسرائيل ، مشارق الأرض ومغاربها . وأورثهم بلاد فرعون . . . » (٢) .

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة بقوله : : « فإذا جاء وعد الآخرة
جئنا بكم لفيفا » .

أى : فإذا جاء وعد الدار الآخرة ، أى : الموعد الذي حده الله - تعالى -

(١) تفسير الألوسي - ١٥ ص ١٨٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٢٤ .

لقيام الساعة ، أحييناكم من قبوركم ، وجئنا بكم جميعاً أمتهم وفرعون وقومه مختلطين أمتهم وهم ، ثم نحكم بينكم وبينهم بحكمنا العادل .
واللفيف : اسم جمع لا واحد له من لفظه ، ومعناه الجماعة التي اجتمعت من قبائل شتى .

يقال : هذا طعام لفيف ، إذا كان مخلوطاً من جنسين فصاعداً .
وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكمت لنا جانباً مما دار بين موسى - عليه السلام - وبين فرعون من محاورات ومجادلات ، وبينت لنا سنة سنن الله - تعالى - التي لا تتخلف في نصرة المؤمنين ، ودحر الكافرين .
ثم عادت السورة الكريمة إلى التنويه بشأن القرآن الكريم ، وأثنت على المؤمنين من أهل الكتاب الذين تأثروا وتأثر أبليغاً عند سماعه ، فقال - تعالى - :

« وبالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٤) وَقرَأْنَاكَ فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ، وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا (١٠٦) قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تَوَافِقُوا ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩) » .

قال الألوسي : قوله - تعالى - : « وبالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ » ، عود إلى شرح حال القرآن الكريم ، فهو مرتبط بقوله : « لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله » ، وهكذا طريقة العرب في كلامها ، تأخذ في شيء وتستطرد منه إلى آخر ، ثم إلى آخر ، ثم إلى آخر ، ثم تعود إلى ما ذكرته أولاً ، والحديث شجون (١)

والمراد بالحق الأول : الحكمة الإلهية التي اقتضت إنزاله ، والمراد بالحق الثاني : ما اشتمل عليه هذا القرآن من عقائد وعبادات وآداب وأحكام ومعاملات ...

والبناء في الموضوعين للملابسة ، والجاروالمجورور في موضع الحال من ضمير القرآن الذي دل الكلام على أن الحديث عنه .

والمعنى : وإن هذا القرآن ما أنزلناه إلا ملتبسا بالحق الذي تقتضيه حكمتنا ، وما أنزلناه إلا وهو مشتمل على كل ما هو حق من العقائد والعبادات وغيرهما ، فالحق مداه ولحمته ، والحق مادته وغايته .

قال بعض العلماء : بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة ، أنه أنزل هذا القرآن بالحق ، أى : ملتبسا به متضمنا له ، فكل ما فيه حق ، فأخباره صدق . وأحكامه عدل ، كما قال - تعالى - : « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته ... » وكيف لا ، وقد أنزله - سبحانه - بهلوه ، كما قال - تعالى - : « لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه ، والملائكة يشهدون وكفى بالله شهودا » ،

وقوله « وبالحق نزل » يدل على أنه لم يقع فيه تغيير ولا تبديل في طريق إنزاله ، لأن الرسول المؤمن على إنزاله قوى لا يغلب عليه ، حتى يغير فيه ، أمين لا يغير ولا يبدل ، كما أشار إلى هذا - سبحانه - بقوله : « لأنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين » (١) .

وقوله - سبحانه - : « وما أرسلناك إلى مبشرا ونذير ، فناء على الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي نزل عليه القرآن ، بعد الثناء على القرآن في ذاته .

أى : وما أرسلناك - أيها الرسول الكريم - إلا مبشرا لمن أطاعنا

(١) أضواء البيان ج ٥ ص ٥٧٥ . للشيخ محمد الأمين الشيفيطى رحمه الله .

بالثواب ، وإلا منذرا لمن عصانا بالعقاب . ولم ترسلك لتخلق الهداية في القلوب ، فإن ذلك من شأن الله تعالى .

ثم بين - سبحانه - الحكم التي من أجلها أنزل القرآن مفصلا ومنجما ، فقال : « وقرأنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » .

ولفظه : « قرآنا ، منصوب بفعل مضمر أي : وآتيناك قرآنا .
وقوله : « فرقناه ، أي : فصلناه . أو فرقنا فيه بين الحق والباطل . أو أنزلناه منجما مفرقا .

قال الجمل : وقراءة العامة « فرقناه » ، بالتخفيف . أي : بينا حلاله وحرامه

وقرأ على جماعة من الصحابة وغيرهم بالتشديد وفيه وجهان : أحدهما : أن التضعيف للتكثير . أي : فرقنا آياته بين أمر ونهي وحكم وأحكام ، ومواعظ وأمثال وقصص وأخبار . والثاني : أنه دال على التفريق والتنجيم ، (١)

وقوله « على مكث » ، أي : على تودة وتمهل وحسن ترتيب ، إذ المسك التلبث في المكان ، والإقامة فيه انتظارا لأمر من الأمور .

والمعنى : « لقد أنزلنا إليك - أيها الرسول - هذا القرآن ، مفصلا في أوامره ونواهيه ، وفي أحكامه وأمثاله . . . ومنجما في نزوله لكي تقرأه على الناس على تودة وتأن وحسن ترتيب ، حتى يتيسر لهم حفظه بسهولة ، وحتى يتمكنوا من تطبيق شريعته وتوجيهاته تطبيقا عمليا دقيقا .

وهكذا فعل الصحابة - رضي الله عنهم - : فإنهم لم يكن القرآن بالنسبة لهم ممتعة عقلية ونفسية خسب ، وإنما كانت القرآن بجانب حبه الصادق لقراءته وللإستماع إليه منهجا لحياتهم ، ويطبقون أحكامه وأوامره ونواهيه وآدابه . . . في جميع أحوالهم الدنيوية والدنيوية .

قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرءوننا القرآن ، أنهم كانوا يستقرءون عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يتركوها حتى يعملوا بما فيها ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعا ، .
وقوله - سبحانه - : ونزلناه تنزيلا ، أى : ونزلناه تنزيلا مفردا منجما عليكم يا محمد فى مدة تصل إلى ثلاث وعشرين سنة ، على حسب ما تقتضيه حكمتنا ، وعلى حسب الحوادث والمصالح ، وليس من أجل تيسير حفظه لحب .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يخاطب المشركين بما يدل على هوان شأنهم . وعلى عدم المبالاة بهم ، فقال - تعالى - : دق أذنوا به أو لا تؤمنوا ، لأن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين . الذين طلبوا منك ما هو خارج عن رسالتك ، والذين وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين : قل لهم : آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا به ، لأن إيمانكم به ، لا يزيدكم كلالا ، وعدم إيمانكم به لا ينقص من شأنه شيئا ، فإن علماء أهل الكتاب الذين آتاهم الله العلم قبل نزول هذا القرآن ، ويميزوا بين الحق والباطل ، كانوا إذا تلى عليهم هذا القرآن ، كما مثال عبد الله بن سلام وأصحابه ، يخرون للأذقان سجدا .
أى : يسقطون على وجوههم ساجدين لله - تعالى - شكرآله على إنجازه وعده ، بإرسالك - أيها الرسول الكريم - وبإنزال القرآن عليك ، كما وعده بذلك - سبحانه - فى كتبه السابقة ،

فأجلالة الكريمة : « إن الذين أوتوا العلم . . . ، تعليل لعدم المبالاة بهؤلاء المشركين الجاهلين ، والضمير فى قوله : « من قبله » يعود إلى القرآن الكريم - وقوله : « يخرون للأذقان سجدا » يدل على قوة إيمانهم ، وعلى سرعة تأثرهم بهذا القرآن ، فهم بمجرد تلاوته عليهم ، يسقطون على وجوههم ساجدين لله - تعالى - .

وخصت الأذقان بالذكر ، لأن الذقن أول جزء من الوجه يقرب من الأرض عند السجود ، ولأن ذلك يدل على نهاية خضوعهم لله - تعالى - وتأثرهم بسماع القرآن الكريم :

ثم حكى - سبحانه - ما يقولونه في سجودهم فقال : « ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا » .

أى : ويقولون في سجودهم ، نزه ربنا - عز وجل - عن كل ما يقوله الجاهلون بشأنه ، إنه - تعالى - كان وعده منجزا ومحققا لا شك في ذلك .

ثم كرر - سبحانه - مدحه لهم فقال : « يخرون للأذقان يبيكون ، ويزيدهم أى سماع القرآن ، خشوعا ، وخضوعا لله - عز وجل - » .

وكرر - سبحانه - خروهم على وجوههم ساجدين لله - تعالى - لاختلاف السبب ، فهم أولا أمرعوا بالسجود لله تعظيما له - سبحانه - وشكرا له على إنجازه لوعده .

وهم ثانيا أمرعوا بالسجود ، لفرط تأثرهم بمواعظ القرآن الكريم .
فأنت ترى هاتين الآيتين قد أمرنا النبي - صلى الله عليه وسلم - بالإعراض عن المشركين ، وباحتقارهم وازدراء شأنهم ، فإن الذين هم خير منهم وأفضل - وأعلم قد آمنوا .

وفى ذلك ما فيه من النسبية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكان الله - تعالى - يقول له : يا محمد نزل عن إيمان هؤلاء الجهلاء ، بإيمان العلماء .

هذا ، وقد أخذ العلماء من هاتين الآيتين أن البكاء من خشية الله ، يدل على صدق الإيمان ، وعلى نقاء النفس ، ومن الأحاديث التى وردت فى فضل ذلك ، ما أخرجه الترمذى عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : عيمان لا تمسهما النار : عين بكى من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله .

ثم ختم - سبحانه - السورة السكرية بآيتين داليتين على تفرده - سبحانه -
بالقدّيس والتعظيم والتحميد والعبادة، فقال - تعالى - :

« قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ، أَيَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى
وَلَا تُجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُتُمْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١١٠) وَقُلِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ ، وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا (١١١) .

ذكر المفسرون في سبب نزول قوله - تعالى - : « قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا
الرَّحْمَنَ أَيَا مَا تَدْعُوا قُلِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى . » ، ذكروا روايات منها : ما أخرجه
ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمكة
ذات يوم فدعا الله - تعالى - فقال : يا الله ، يا رحمن ، فقال المشركون : أنظروا إلى
هذا الصابيء ينهانا أن ندعو إلهين فنزلت (١)

ومعنى : ادعوا . سموا ، وأو ، للتخيير . « وأيا ، لإسم شرط جازم
منصوب على المفعولية بقوله : « ادعوا ، والمضاف إليه محذوف ، أي :
أي : الأسمين . » وتدعو ، مجزوم على أنه فعل الشرط لقوله « أيا ، » وجملة « فله
الأسماء الحسنى ، » واقعة موقع جواب الشرط ، و « ما ، » مزيدة للتأكيد
والحسنى : مؤنث الأحسن الذي هو أفعل تفضيل .

والمعنى : قل يا محمد للناس : سموا المعبود بحق بلفظ الله أو بلفظ الرحمن
بأي واحد منهما سميتوه فقد أصبحتم ، فإنه - تعالى - له الأسماء الأحسن من
كل ما سواه وقال - سبحانه - : « فله الأسماء الحسنى ، » للبالغة في كمال أسمائه
- تعالى - للدلالة على أنه ما دامت أسماءه كلها حسنة ، فلفظ الرحمن كذلك ،
كل واحد منهما حسن .

وقد ذكر الجلالان عند تفسيرهما لهذه الآية ، أسماء الله الحسنى ، فارجع إليها إن شئت (١) .

وقوله - سبحانه - : ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ولا تبغ بين ذلك سبيلا ، تعليم من الله - تعالى - لنتبيه كيفية أفضل طرق القراءة في الصلاة .

فالمراد بالصلاة هنا : القراءة فيها . والجهر بها : رفع الصوت أثناءها والمخافتة بها : خفضه بحيث لا يسمع . يقال : خفت الرجل بصوته إذا لم يرفعه والكلام على حذف مضاف .

والمعنى : ولا تجهر يا محمد في قرأتك خلال الصلاة ، حتى لا يسمعها المشركون فبسبوا القرآن ، ولا تخافت بها ، حتى لا يسمعها من يكون خلفك ، بل أملك في ذلك طريقا وسطا بين الجهر والمخافتة .

وعما يدل على أن المراد بالصلاة هنا : القراءة فيها ، ما رواه الشيخان وغيرهما عن ابن عباس .

قال : نزلت ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - مخفف بمكة ، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون ، سبوا القرآن ، ومن أنزله ، ومن جاء به ، فأمره الله بالتوسط .

وقيل . المراد بالصلاة هنا : الدعاء . أى : لا ترفع صوتك وأنت تدعو الله ولا تخافت به . وقد روى ذلك عن عائشة ، فقد أخرج الشيخان عنها أنها نزلت في الدعاء .

ويبدوننا أن التوجيهات التي بالآية الكريمة تتسع لقولين ، أى : أن على المسلم أن يكون متوسطا في رفع صوته بالقراءة في الصلاة ، وفي رفع صوته حال دعائه .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآية : : وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ... ،

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - الحق الكامل ، والثناء الجميل ، لله - تعالى - وحده : الذى لم يتخذ ولدا ، لأنه هو الغنى ، كما قال - تعالى - : قالوا اتخذ الله ولدا ، سبحانه هو الغنى ، له فى السموات وما فى الأرض . . . (١)

« ولم يكن له ، - سبحانه - د شريك فى الملك ، بل هو المالك لكل شيء ، ليس له فى هذا الكون من يزاحمه أو يشاركه فى ملكه أو فى عبادته . كما قال - تعالى - : د قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتغوا إلى ذى العرش سبيلا . سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ، .

وكما قال - عز وجل - : ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذا لذهب كل إله بما خلق ، ولعل بعضهم على بعض ، سبحانه الله عما يصفون (٢) .
« ولم يكن له ولى من الدن ، أى : ولم يكن له - سبحانه - ناصر ينصره من ذل أصابه أو نزل به ، لأنه - عز وجل - هو أقوى الأقوياء ، وقاهر الجبابرة ، ومفلط الطغاة ، « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ، .

« وكبره : كبيرا ، أى : وعظمه تعظيما تاما كاملا ، يليق بجلاله عز وجل . قال الإمام ابن كثير : عن قتادة أنه قال : ذكر لنا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يعلم أهله كبيرهم وصغيرهم هذه الآية . « الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا . . . (٣) .

ثم قال ابن كثير : وقد جاء فى حديث أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سماها آية العز (٤) .

وبعد فهذا تفسير لسورة الإسراء نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا

(١) سورة يونس الآية ٦٨ (٢) سورة الإسراء الآية ٤٢ ، ٤٣

(٣) سورة المؤمنون الآية ٩١ (٤) تفسير ابن كثير ج ٢٠ ص ١٣٩

لوجهه ، ونافعا لعباده ، وشافعا لنا ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .
كتبه الراجي عفوره
محمد سيد طنطاوى

المدينة المنورة - مساء الخميس ١٥ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٤ هـ
الموافق ١٦ من فبراير سنة ١٩٨٤ م

فهرس إجمالى لتفسير «سورة الإسراء»

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة ...	٣
١	سبحان الذى أسرى ...	١٤
٢	وآتيناه موسى الكتاب ...	٢٣
٣	ذرية من حملنا مع نوح ...	
٤	وقضينا إلى بنى إسرائيل ...	٢٥
٥	فإذا جاء وعد أولاهما ...	
٦	ثم رددنا لكم الكرة ...	
٧	إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ...	
٨	عسى ربكم أن يرحمكم ...	
٩	إن هذا القرآن يهدى ...	٤٢
١٠	وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة ...	
١١	ويدع الإنسان بالكفر ...	
١٢	وجعلنا الليل والنهار آيتين ...	٤٧
١٣	وكل إنسان أزمانه ...	
١٤	اقرأ كتابك كفى ...	
١٥	من اهتدى فإنما يهتدى ...	
١٦	وإذا أردنا أن نهلك ...	٥٦
١٧	وكم أهلكنا من القرون ...	
١٨	من كان يريد العاجلة ...	
١٩	ومن أراد الآخرة ...	
٢٠	كلا نمد هؤلاء وهؤلاء ...	
٢١	انظر كيف فضلنا ...	
٢٢	لا تحمل مع الله إلها آخر ...	
٢٣	وقضى ربك أن لا تعبدا إلا إياه ...	٦٧

رقم الآية	الآية المسمرة	رقم الصفحة
٢٤	واخفض لها جناح القدر ...	٧٩
٢٥	ربكم أعلم بما في نفوسكم ...	
٢٦	وآت ذا القربى حقه ...	
٢٧	إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ...	
٢٨	وإما تمرضن عنهم ابتغاء ...	
٢٩	ولا تجعل يدك مفلولة ...	
٣٠	إن ربك ييسر الرزق ...	
٣١	ولا تقتلوا أولادكم ...	٨٦
٣٢	ولا تقربوا الزنا ...	
٣٣	ولا تقتلوا النفس ...	
٣٤	ولا تقربوا مال اليتيم ...	
٣٥	وأوفوا السكيل إذا كنتم ...	
٣٦	ولا تقف ما ليس لك به علم ...	
٣٧	ولا تمش في الأرض مرحا ...	
٣٨	كل ذلك كان سيئه ...	
٣٩	ذلك مما أوحى إليك ربك ...	
٤٠	أنأصفاكم ربكم بالبنين ...	١١١
٤١	ولقد صرفنا في هذا القرآن ...	
٤٢	قل لو كان معه آلهة ...	
٤٣	سبحانه وتعالى عما يقولون ...	
٤٤	كسبح له السموات السبع ...	
٤٥	وإذا قرأت القرآن ...	١١٩
٤٦	وجعلنا على قلوبهم أكنة ...	
٤٧	نحن أعلم بما يستمعون به ...	
٤٨	انظر كيف ضربوا ...	
٤٩	وقالوا ألمذا كنا عظاما ...	
٥٠	قل كونوا حجارة أو حديدا ...	١٢٦

رقم الآية	الآية المفصلة	رقم الصفحة
٥١	أو خلّقا حتى يكبر في صدوركم ...	
٥٢	يوم يدعوكم فتستجيّبون ...	
٥٣	وقل للمبادئ يقولوا ...	١٣١
٥٤	ربكم أعلم بكم إن بشأ يرحمكم ...	
٥٥	وربكم أعلم بما في السموات والأرض ...	
٥٦	قل أدعوا الذين زعمتم ...	
٥٧	أولئك الذين يدعون ...	
٥٨	وإن من قرية إلا نحن مهلكوها ...	١٣٩
٥٩	وسامعنا أن نرسل بالآيات ...	
٦٠	وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ...	
٦١	وإذ قلنا للملائكة اسجدوا ...	١٤٩
٦٢	قال أرايتك هذا ...	
٦٣	قال اذهب فمن تبعك ...	
٦٤	واستفز من استطعت ...	
٦٥	إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ...	
٦٦	ربكم الذي يزجي لسكم الفلك في البحر ...	١٥٧
٦٧	وإذا مسكم الضر في البحر ...	
٦٨	أفأنتم أن ينصف ...	
٦٩	أم أنتم أن يبيدكم فيه ...	
٧٠	واقدر كرمنا بني آدم ...	١٦٣
٧١	يوم ندعو كل أناس ...	
٧٢	ومن كان في هذه أعمى ...	
٧٣	وإن كادوا ليفتنونك ...	١٦٩
٧٤	ولولا أن ثبتناك ...	
٧٥	إذا لاذقناك ضعف الحياة ...	
٧٦	وإن كادوا ليستفزونك ...	
٧٧	سنة من قد أرسلنا ...	

رقم الآية	الآية المفصلة	رقم الصفحة
٧٨	أقم الصلاة لذورك . . .	١٧٥
٧٩	ومن الليل فتهجد به . . .	
٨٠	وقل رب أدخل صدق . . .	
٨١	وقل جاء الحق وزهق الباطل . . .	
٨٢	وننزل من القرآن . . .	١٨٥
٨٣	وإذا أنمنا على الإنسان . . .	
٨٤	قل كل يعمل على شاكلته . . .	
٨٥	ويسألونك عن الروح . . .	١٩٠
٨٦	ولئن علمنا لبذهبن . . .	
٨٧	إلا رحمة من ربك . . .	
٨٨	قل لئن اجتمعت الإنس . . .	
٨٩	ولقد صرفنا للناس في هذا . . .	
٩٠	وقالوا إن نؤمن لك . . .	١٩٩
٩١	أو نكون لك جنة من . . .	
٩٢	أو نسقط السماء كما زعمت . . .	
٩٣	أو يكون لك بيت من زخرف . . .	
٩٤	وعامنع الناس أن يؤمنوا . . .	٢٠٥
٩٥	قل لو كان في الأرض . . .	
٩٦	قل كفى بالله شهيدا . . .	
٩٧	ومن يهد الله فهو المهتد . . .	٢٠٩
٩٨	ذلك جزاؤهم بأنهم . . .	
٩٩	أو لم يروا أن الله الذي خلق . . .	
١٠٠	قل لو أنتم تعلمون . . .	
١٠١	ولقد آتينا موسى تسع . . .	
١٠٢	قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء . . .	٢١٧
١٠٣	فأراد أن يستفزهم من الأرض . . .	

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
١٠٤	وقلنا من بعدہ لبني إسرائيل . . .	
١٠٥	وبالحق أنزلناه وبالحق نزل . . .	٢٢٤
١٠٦	وقرآنا فرقناه . . .	
١٠٧	قل آمنوا به أو لا تؤمنوا . . .	
١٠٨	ويقولون سبحان ربنا . . .	
١٠٩	ويعبرون للأذقان ليكون . . .	
١١٠	قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن . . .	٢٢٩
١١١	وقل الحمد لله الذي لم يتخذ . . .	